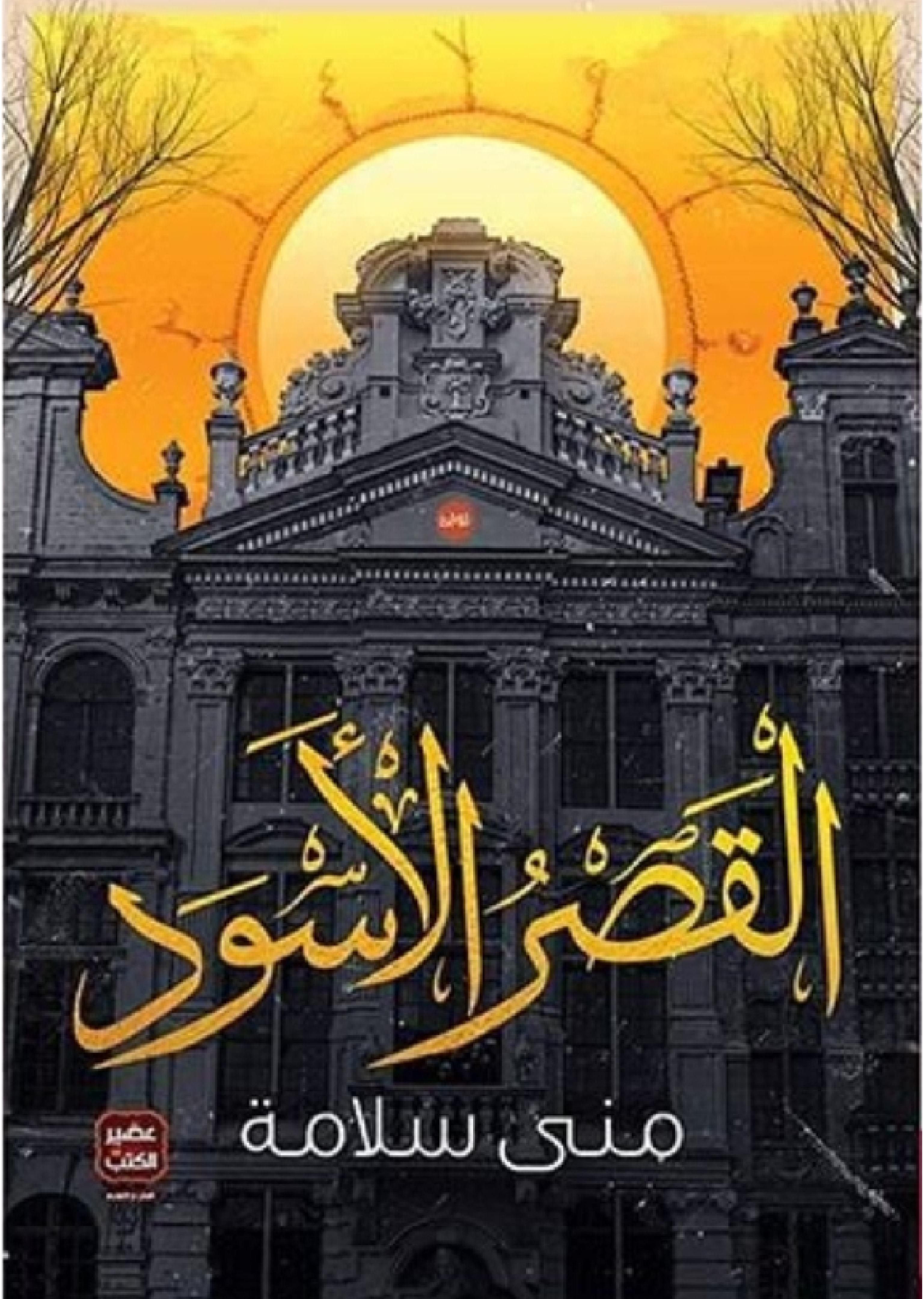
القصر الأسود
منى سلامة
عصير الكتب

رواية

القصر الأسود

منى سلامة

عصير الكتب
للنشر والتوزيع

إهداء

إلى قارئ اليوم

أنتَ أمل الغد.

يا زمن حَنانيكَ علينا، فما التاريخ إلا قهوة مُرة، والأمل سُكَّرها.

(((الزمن)))

- هل.. أنا.. حامل؟

خرج سؤالها مرتعشًا، بكلمات متفرقة، لا تقوى على استجماع شتاتها لتُنظمها في جملة واحدة. السؤال نفسه هزَّها، شتتها، وكأنه يصدر عن فتاة أخرى غيرها، لكن لا مجال للخطأ، الصوت صوتها، والسؤال سؤالها. تجمعتْ لهفة عينيها ورجاؤها ليتعلقا بشفاه العجوز الخبيرة التي تقف قبالتها في دارها الحقيرة، بالية الأثاث، نفَّاذة الرائحة. تكاسلتْ نظرات العجوز فوق وجهها، عاجلتها الفتاة بلهفة المُلتاع:

- في عرضكِ أخبريني الحقيقة.

رفعتْ العجوز عينيها صوب البومة الواقفة عند فتحة النافذة، تنهم بصوت يجمِّد الدماء في العروق، وقالت بصوت كسيح:

- أنتِ الفتاة الثامنة التي تحبَل تحت سقف هذا القصر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ظلَّت العجوز تحوقل وتذكر الله بصوت حاد تُبارز به نُهام البومة. استدارتْ الفتاة وغادرتْ دار العجوز مُضطربة الخُطى، مُخدرة الحواس، وقفتْ دامعة العينين بين أشجار تطل عليها بفضول من كل حدب وصوب، يا لها من ليلة حالكة السواد لا تكاد تتبين موضع خطواتها! وبغتةً أخذت تبكي بصوت يبارز صوت البومة والعجوز، آهات ملتاعة تصحبها وهي

تجري بين الأشجار بسرعة بالغة، يصدمها جذع، ويخمش جسدها فرع، وتعرقل قدمها الأحجار، تقع ثم تقف وتستمر في العدْو والبكاء حتى سقطتْ من ارتفاع شاهق في حفرة عميقة تفترشها الصخور، فاقدة الوعي أو الحياة، ظلَّتْ هناك تنزف جراحها ببطء دمًا دافئًا.

سألتْ الأشجار بعضها البعض، في لوعة، عما حدث للفتاة، يرونها في الغابة للمرة الأولى، يجهلن هويتها وما أصابها وأفزعها تلك الفزعة المُميتة، وحده الزمن كان يعرف قصتها، طلبنَ منه بفضول أن يقص عليهن حكايتها. فقال لهن الزمن:

- حسنًا يا أشجار الغابة، هيا تجمعن حولي وشكّلن دائرة لأُشعل في منتصفها النار، فالليلة شتوية باردة والبرد يقتل الكلمات، لا تخفن.. لن أقطع جذع إحداكن فنيران الحكايات لا تحتاج إلى الحطب، بل إلى قلوب مُصغية وآذان واعية، والآن.. هل تَشعُرن بالدفء؟ جيد، إذن فلتبدأ فصول الحكاية.

(((٢١ يناير ١٩٥٢)))

إن كان صعب على فتاة أن تبلغ العشرين من عمرها بلا خطبة أو زواج، يتيمة الأم، فقيرة، مُعدمة، تخدم في دوَّار العمدة المُطل على مزرعة البرتقال شرق القرية، فمن الأصعب عليها أن تكون الابنة الوحيدة لمجنون القرية، الذي يسير مرتديًا خلخال زوجته -الفالصُو- في ساقه اليُمنى، مُدَّعيًا أنه ذهب خالص!

يمكنها أن تتحمل نظرات تحاصرها طوال الوقت وترميها بـ«حُورية الخادمة»، لكن يشق عليها أن تتحمل تلك التي تنعتها بـ«حُورية بنت المجنون»، حتى أن اسمها ليس «حورية»! وإن كان يحلو للناس أن تُناديها به، ويَكفُّون ألسنتهم عن اسمها الحقيقي.. «حُرَّة».

وليس تحوير الأسماء بشيء عُجاب في قرية «دنشواي»، فـ «مخيمر» السقَّا الذي كان يجوب القرية حافي القدمين، يحمل فوق ظهره قربة الماء، يميل بجذعه فتنفتح فوهة القربة وينهمر منها الماء القذر، يبيعه على أنه ماء نظيف يصلح للشُرب قد تحوَّل بين ليلة وضحاها إلى «مخيمر» بك! تفتَّحتْ شرنقة الرعاع وخرج منها مزهوًا ليلحق برَكْب البَهوات، ولن تتعجب «حورية» إن انضم أيضًا إلى رَكْب البَشوات؛ ألم يكن «سعد زغلول» فلاحًا ابن فلاح قبل أن يتزيَّن اسمه بطربوش البشَوية؟ العجَب كان من نصيب أهل القرية، لا يدور بينهم حديث إلا وتخللته سيرة «مخيمر» السقَّا الذي أضحى «مخيمر» بك. تسمع «حورية» نُدف

أحاديثهم، بينما تمر على البيوت بحمارها الوفيّ «رهوان»، كانت قد ساعدت أمه في ولادته قبل أن تنفق على شط الترعة ساعة المغربية، لم يظهر له صاحب فأخذته لنفسها رفيق درب، تَصحبه كل نهاية أسبوع وهي تجمع زبالة الناس، وكناس بيوتهم، وتحرقها عند مشارف القرية، تتقاضى عن ذلك مطلع كل بدرٍ بضعة قروش من العمدة.

مرَّتْ «حورية» بالسوق، ترتدي جلبابًا أسود وطرحة سوداء، تمسك بأحد طرفيها لتخفي نصف وجهها، مُعلَّق بكتفها كيس أبيض من الكتان، توقفتْ عند «حسَّان» الخُضَري، وربطت حمارها بوتد في الأرض، يمتلك «حسَّان» الخضري ستة قراريط، ويظن نفسه من الأعيان. سمعته يقول لأحد زبائنه:

- لا تتعجب يا رجل، هذه بركات مصر والمصاروة، لو ظل «مخيمر» هنا بين أرجاء هذه القرية الفقيرة لبقى إلى يوم الدين «مخيمر» السقَّا حافي القدمين، أما الآن فهو يرتدي في قدميه مداسات أشكال وألوان، شِي لله يا مصر.

- لكنني سمعتُ أنه باع نفسه للإنجليز.

- والله لو قطَّع من «جتتِّه» وعرض القطعة بقرش صاغ لن يشتريه أحد، إنها بركة تغيير العتبة يا أبا المفهومية.

- إذن نترك أهلنا وزرعنا ودارنا وبهائمنا ونرحل لمصر؟!

قاطع حديثهما «سعد» أشهر تجار القرية، سمين الجسم، خبيث النفس:

- ولماذا تذهب إلى مصر وقد أتيتُ لكم بمصر وبضائعها إلى هنا؟

التفتتْ له «صفية» زوجة «الباز» تاجر العلف، تسأله:

- هل عندك جديد يا حاج «سعد»؟

- إلا جديد.. جئت صبيحة اليومَ بأقمشة وجلاليب لا ترتديها إلا الأميرات في مصر.

ضحكتْ المرأة ملء فمها مستنكرة.

- «يخيبك» يا حاج «سعد»، وهل ترتدي أميرات مصر الجلباب مثلنا؟

- تعالي لتري بنفسك كيف أنها بضاعة مُعتبرة لا تليق إلا بذوات الأصول، تدَّخر بنات الأفندية المال أسبوعًا وراء أسبوع كي يشترين منها واحدة.

تتابع «حورية» ابتعاد المرأة ودخولها دكان الحاج «سعد»، وعندما يلتفت ليلقي عليها نظرات فاحصة تضطرب قسماتها، وتمد يدها تلتقط طرف طرحتها السوداء، تزم عليها بشفتيها لتخفي نصف وجه به مسحة من جمال ريفي هادئ، لا يثير العواصف ولا يصنع الدوَّامات، ساكن كبركة مياه، لم يلق بها أحد حجرًا بعدُ لتنبض بالحياة.

تقرفها نظرات الحاج «سعد»، تاجر الثياب، حين تتلكَّأ فوق وجهها وجسدها، وتضيق بكذبه على زبائنه، تعرف «حورية» أن بضاعته لا تليق بخادمات مصر، فالهوانم لا يرتدين إلا تلك الفساتين العارية المنفوشة التي تراها على أغلفة الأعداد القليلة من مجلة «الدنيا»، يُحضرها العمدة معه من مصر خصيصًا لابنته. ابنة العمدة ذات الستة عشر ربيعًا، التي

تزوَّجتْ منذ عدة أشهر، لا تُحسن القراءة ولا الكتابة، لا تفعل بالمجلات أكثر من التباهي بها وسط بنات القرية، وكأنها إن امتلكت صور الهوانم صارت واحدة منهن!

عاد الحديث يدور مرة أخرى عن «مخيمر»، قال أحدهم بعد أن سعل بصَخَب:

- أنا أعرف كيف تغيَّر حال «مخيمر» بهذه السرعة.

ثم مال على «حسَّان» الخضري يبوح له بسِر العارِف:

- كان يُساعد الإنجليز في التفتيش عن مقبرة فرعونية، عثروا بداخلها على كنوز «ياما»، وأيضًا عثروا على مادة تشفي العليل وتغني الفقير في لمح البصر.

أثار حديثه اهتمام «حسَّان» الخضري، فحثَّه على الإفصاح عن المزيد، أردف الرجل كأنما يبوح بأحد أسرار الكون:

- «الزيبك» الروحاني الأحمر.

اتسعتْ عينا «حسان» الخضري في دهشة، أردف الرجل:

- مشروب يشربه الجن فيصير ملك يمين بني آدم، يسرق له المال والكنوز من خزائن الدنيا وباطن أرضها، يجعله سيد الأرض.

تناهى الحديث إلى أذن رجل يجاوره، فسأله بحماس بالغ:

- يعني يجعله أغنى من الملك فاروق؟

- ومِن جدود الملك فاروق.

أطاح «حسان» الخضري بيد الرجل وهو يقول بانفعال:

- ما هذه التخاريف يا سيد أمك؟! جن وما جن! «غُور» من هنا، قبر يلمَّك.

ثم اختطفَ بفتة ثمرة طماطم كانت تنتقيها «حورية» بعناية من بين الحبات الفاسدة، وصاح بها:

- ستفسدين الخضار يا بنت المجنون.

احتدتْ «حورية»:

- أختار منها ما يصلح للأكل.

- عشنا و«شُفنا» بنت المجنون لا يعجبها خضارنا، ألا تُشبعك فضلات دوَّار العمدة؟ هيا امشي من هنا وإلا قذفتك بحجر يشق رأسك نصفين.

لم يكد يُنهي تهديده حتى انشق رأسه هو!

انفجرت منه نافورة دماء، هرولَتْ «حورية» مبتعدة فرار الغزلان من بطش حيوان جارح، لاهثة الأنفاس، مشتتة الفكر سمعت أحدهم من خلفها يصيح:

- الحقوا يا خلق.. بنت المجنون قتلت «حسَّان» الخضري، الراجل غرقان في دمائه يا ناس.

يرتعد قلبها، تجري بكل ما في جسدها من رغبة في النجاة، تتوارى عن الأنظار في جُرن حمام خالٍ من الحمام، مُتهدم، لم يبق منه سوى جدار آيل للسقوط، جدار الصبر، هكذا أسمَته منذ أن وعيت على الدنيا. تناولتْ حجرًا كعادتها، واجهتْ الجدار بصلابة، استجمعت قوتها من جسد فَارِع عُمره عشرون عامًا، لا يزن أكثر من ثمانية وخمسين كيلو جرامًا، ثمَّ أخذت تطعن الجدار وتُحدِث به جروحًا طولية، تتخيل الدماء

الطازجة وهي تنز منه، دافئة تلطخ يدها القابضة على الحجر بقسوة وكأنها صارت جزءًا من الحجر. أصدر الجدار أنينًا غير محتمل، يحلو لها أن تتخيل ذلك، عندها توقفتْ عن إيلامه، افترشتْ الأرض تاركة عبراتها تغسل وجهها، لكن أين لقلبها بماء رقراق يغسله من القهر؟

ارتادَ فكرها ساحات الغضب، والقهر، والحزن والخيبة، تجوَّل فيهم لساعة كاملة، قبل أن تعثر عليها الخالة «بهانة»، لم تتعجب «حورية» عندما رأتها أمامها في مكانها السِّري في جُرن الحمام المتهدم، فالخالة «بهانة» تعرف أن هذا المكان هو مخبأها الوحيد، همَّتْ بأن تتحدث لكن الخالة «بهانة» بادَرَتها:

– نقول ثور تقولين احلبوه! ألا أحذِّركَ دومًا من افتعال المشاكل في السوق يا مقصوفة الرقبة أنت؟

هبَّتْ «حورية» مُدافعة عن نفسها:

– هو مَن تطاول عليّ أولًا، ابن بائعة الفجل «الفِلاتيَّة» التي...

كتمتْ «بهانة» صوتها وأنفاسها بكف كبيرة خشنة، أضناها العمل في الغيط حتى تشقق باطنها. اشتمَّتْ «حورية» رائحة حليب طازجة من كف المرأة فعلمتْ أنها انتهتْ للتو من حلب بقرات العمدة، نزعت كف المرأة بقسوة وأردفتْ بعناد:

– أتريدين مني أن أسمع الإهانة بأذني وأسكت؟! سمعًا وطاعةً يا خالة «بهانة»، سأسكت، ربنا يخلصكم مني وأسكتْ للأبد إن شاء الله.

لاح بخاطرها منظر الرجل الذي تفجَّرتْ الدماء من رأسه منذ قليل، فتساءَلت بريبة:

- لم يمت المسخوط «حسان»، أليس كذلك؟

لم تُحر الخالة «بهانة» جوابًا؛ وقعت «حورية» على الأرض، تقبض على الرمال وتحثها فوق رأسها مولولة، أمسكت «بهانة» يديها بحزم، تطلعتْ لها «حورية» بعينين دامعتين؛ رقَّ قلب الخالة فقالت:

- كتمتُ له الدم بالبن وعاد إلى داره، لكن إن رآكِ أحد من أهل القرية الآن سيضربك كما ضَرب العمدة حماركِ «رهوان» عندما عاند ورفض السير من أمام المَنْدَرة.

صرَّختْ بعنفوان:

- لا أخاف.

- طيب هزّي طولك إلى دوَّار العمدة، الست «حلاوة» تبحث عنكِ من صباح ربنا، وعندما ترينها قولي لها مقولتكِ تلك.. (لا أخافَ)!

«إلا الست «حلاوة» زوجة العمدة»، هكذا حدَّثتْ «حورية» نفسها وهي تتخذ الطريق الأطول إلى دوَّار العمدة، والذي لا يمر بسوق القرية، كيف يمكن للحلاوة أن تكون مرة كالعلقم؟! لو أنصَفتْ الأسماء لكان أليَق بزوجة العمدة اسم «أمنا الغولة»، فلا بد أن حكاية المرأة المتوحشة التي تختطف الصغار من أمهاتهم وتأكلهم على العشاء، قد نسجتها نساء القرية خصيصًا ليتحدثن عن الست «حلاوة» دون أن يطولهن بطشها. «أمنا الغولة» لا تظهر إلا للأطفال المشاغبين، هكذا كانت تروي لها الخالة «بهانة» الحكايات. ألهذا السبب دخلت الست «حلاوة» إلى حياتها؟ لتعاقبها على عصيانها للأوامر منذ الصغر؟ أتنتظر اللحظة المناسبة لتنقض عليها وتلتهمها على العشاء؟

نفضتْ تلك الأفكار عن رأسها وهي تدخل المطبخ، تشمر عن ساعديها وتُسرع في صُنع عُصاج اللحم، تغلي الماء وتلقي به قطع اللحم والدهن لإعداد المرق الذي يحبه العمدة، وبالطبع لم تنس طحن الدقيق وإشعال الفرن الطيني لخبز رقاق اللحم، كانت تتصبب عرقًا عندما داهمت الست «حلاوة» المطبخ، ارتجَّتْ الطاولة الخشبية فأريق عليها بعض المرق، وكان هذا سببًا كافيًا لإشعال النار في عيني الست «حلاوة»، لكن ويا للعجب لم يحدث ذلك هذه المرة! ظلتْ محافظة على بسمة بلزوجة السمن الذي تعده الخالة «بهانة» من قشطة الحليب؛ صفراء، ثخينة، ثقيلة. شمَلَتْ «حورية» بنظرة فاحصة قبل أن تلقي بأوامرها.

- سيأتي للعمدة ضيوف على العشاء، هيا يا غندورة.. اذبحي من الدجاج والبط ما يكفي لإشباع عشرين بطنًا، وجهزي الحليب الطازج الذي حلبته «بهانة» اليوم، وإياكِ أن تنسي السمن على سطح الحليب في الأكواب، لا بد أن تكون في طول عُقلة إصبع.

هزَّتْ «حورية» رأسها وهي تفرك أصابعها في جلبابها المنقوش بوردات حمراء بهتتْ ألوانها منذ زمن طويل، غادرت الست «حلاوة» بعدما ألقت عليها نظرة فاحصة أخرى أكثر فجاجة من سابقتها. عشرون بطنًا في دوَّار العمدة، من يكونون يا تُرى؟!

هل تجمَّع أهل القرية ليطالبوا العمدة بطردها؟ هل سيخبرونه عما فعلته لـ «حسان» الخضري اليوم في السوق، وعن كلب «الباز» تاجر العلف الذي سمَّمته الأسبوع الماضي بعدما هاجمها خمس مرات بأمر من صاحبه؟ كيف اكتشفوا أنها الفاعلة؟! أم تراه ذلك الكهل الخرف، أحد مساخيط الأعيان الذي استوقفها منذ يومين في السوق، عارضًا عليها أن تكون زوجة ثالثة له، فقبضتْ على حفنة من الرمال ونثرتها فوق رأسه؟ لا هذا ولا ذاك، لا بد أن زوجة «سعد» الدُغُف قد انتبهَتْ لنظراته إليها

فجاءت مع أهلها وعِزوتها لتشكوها إلى العمدة، ولعلها ستدَّعي أنها هي من تُشاغل زوجها وترمي بشباكها حوله.

- ماذا تفعل الآن؟

إن طردها العمدة من دوَّاره هذه المرة لن يُعيدها إليه أبدًا، مهما تسوَّلتْ منه الخالة «بهانة» عفوه ومغفرته، لا يوجد سوى حل واحد.. واحد فحسب!

لابس أنا خلخال ولا لاقي راحة البال[1]

عاشق باقول موال يا ريته ينزال ولا ينقال

ماشي وانا محتار ولا ليا أهل ودار

والعيشة ماشية مرار فيها الأشرار في أحسن حال

تناهى إلى مسامعها صوت شيخ يتزاحف على السبعين -من الساحة الخلفية للمسجد الوحيد بالقرية، حيث الكُتَّاب الذي يُحفِّظ فيه الإمامُ أطفالَ القرية القرآن الكريم، وقِصار الأحاديث النبوية- يتحرك في المكان فيصدر عن الخلخال المعدني بدلَّايات نحاسية الذي يلتف حول ساقه اليُمنى صوت رنين مألوف، دنَتْ من الشيخ رويدًا لئلا تفزعه، رفع أنظاره صوبها متوجسًا، منحته بسمة بعذوبة قلبه، وقالت تُطمئنه:

- لا تخف يا «آبا».

---

(١) الأغنية من تأليف الشاعر المهندس «أحمد فوزي طاحون»، كُتِبَتْ خصيصًا للرواية.

استمر ‌في غنوته، وهو يرسم بعصاه فوق التراب دوائر متباينة الأقطار، أشعث الشعر، مُغبَّر الثياب، حافي القدمين:

غجريـــــة وخدتنـــــي في العشـــــق حبستني

وفي لحظة وسابتني سحرتني ويا ريتني أموت وأنشال.

دنَتْ منه أكثر، جاورته في مجلسه فوق الأرض، ودَّتْ لو تنزع عن ساقه خلخال أمها وتُلقي به وسط الترعة، لكنه يتمسك بالخلخال تمسكه بالحياة ذاتها، حتى وإن أثار ذلك سخرية أهل القرية وأطفالهم كلما رأوه يسير متباهيًا بخلخال زوجته. فتحَت منديلها القماشي الكبير وأخرَجت منه ثمرات جمِّيز، اقتطفتها سرًا من الشجرة المُطلة على شونة الدواب في دوَّار العمدة، قرَّبتها من فمه، تُطعمه حينًا، وتُملِّس فوق شعره أحايين أخرى، قضمة وراء قضمة، حتى أطعمته خمس ثمرات هُن كل ما حواه منديلها من طعام، قالت بحنان وكأنها له أم:

- هيا يا آبا.. عُد معي إلى العشة، الجو بارد هنا، أخاف أن يصيبك المرض.

رفض بعناد الأطفال التحرك من مكانه؛ دفع يدها، تعالى صراخه، وتشبَّثَ بحجر كبير بجُل قوته، كأنه القشة التي يتعلَّق بها الغريق، لكن «حورية» لم تكن له بحرًا هائجًا، ظلتْ تلاطفه، وتلاعبه حتى تقنعه بالتحرك معها. ولأنها أم رؤوم؛ عرفَتْ كيف تُروِّض ابنها المشاكس، غابَتْ لدقيقتين دخلت خلالهما المسجد، التقطتْ المصحف الضخم الذي يقرأ منه الإمام في صلاة الليل، عادت وافترشت الأرض بجوار أبيها، منحته بسمة رائقة وهي تتطلع إلى نظراته الشغوف المتعلقة بالمصحف، بدأتْ في قراءة سورة «ق» بصوت خاشع، شاركها همسًا في ترتيل السورة الأحب إلى فؤاده، والتي تُنسيه دندنة موَّاله، يحفظها غيبًا، لكنه يحب مس مُصحف

الإمام الكبير. نسي كل شيء، لكنه لم ينس سورة «ق»، نُقشَتْ حروفها في سُويداء قلبه، وزاحَمَتْ حطام نفسه، لها على جنونه سُلطان عظيم، ما إن يسمع آياتها حتى يجلس في مكانه كحمل وديع، قسمات وجهه تتهادَى مع قراءتها كموج البحر، تارة ترغي وتزبد عندما تمر «حورية» على آيات العذاب، وتارة أخرى تلين وتسكن عندما تمر على آيات الرحمة، حتى بكى وبكتْ!

انساق معها بوداعة، يدًا بيد، حتى وصلا إلى عِشَّة من القَش تطل على قراريط «حسَّان» الخضري، دعتْ الله ألا تلقاه هذه الليلة، ثم تذكرت أمر العشرين بطنًا، لا بد أن الجميع يستعدون الآن للتوجه إلى مَندَرة العمدة، يشكونها ويطالبون بطردها؛ ضاق صدرها غمًّا. أزاحَتْ ملاءة متسخة قد اتخذت منها بابًا لا يرد لصًا ولا يعوق مُقتحمًا، حتى وإن كان صرصور حقل! أجلسَتْ أباها على دكة خشبية، هي كل ما تملكه من أثاث، ثم أشعلَتْ مصباح الجاز بعود الثقاب الأخير، تسرَّب الضوء في الأركان ليكشف عن وابور، طست، وبعض أغراض المطبخ التي لا تكفي سوى لطبخ الأرز، وعجن الخبز.

- هيا يا آبا، هات قدميك لأغسلهما.

وضعت القدمين الحافيتين في الطست، صبَّت الماء، وأخذت تدعكهما، وتُدلكهما، تتبادل معه ابتسامة باهتة، لم يتحدث لكنه كشف اضطرابها هذه الليلة، لم يسألها كذلك، لكنها أجابته دون حاجة لسؤال:

- أظن أن العمدة سيطردني مرة أخرى من دوَّاره، لكن هذه المرة هي الأخيرة، لن يعيدني أبدًا، ولن أجد بيتًا واحدًا في القرية يفتح لي بابه.

لم تنتظر منه كلمة مواساة، منذ أن غاب عقله تذبذبتْ معه قدرته على احتواء مشاعر الآخرين أو التفاعل معها، مسحتْ فوق كتفه، تنهدت بحرارة النيران الملتهبة في فتيل المصباح.

- لماذا جعلتني أفقد أمي وأبي في اليوم ذاته وأنا ما زلتُ ابنة ساعات؟ لماذا يا آبا؟ لماذا لم تتحمل رحيلها؟ لماذا هدَّك غيابُها؟ أكنتَ تُحب أمي إلى هذا الحد؟ ملعون الحب يا آبا.. ملعون الحب الذي يُصيب صاحبه بالجنون!

تمددتْ فوق الدكة، أراحتْ رأسه فوق ساقيها، تمنَّتْ أن تدور عجلة الزمن إلى الوراء، إلى اللحظة التي وقعت فيها أنظار أبيها على أمها الغجرية لتسلبه عقله، ودَّتْ لو انشقَّتْ الأرض في تلك اللحظة ليُضرب بينهما سور متين لا يُمكِّن أحدهما من النفاذ للآخر، مثل ذاك الذي يمنع يأجوج ومأجوج من ملاقاة البشر. هل أمها أسوأ من يأجوج ومأجوج؟

تراها أسوأ، هي الخطيئة الوحيدة التي زُلَّت فيها قدما أبيها فوقع وكُسِر!

أغمضت عينيها وتقوقعت على الأرض بجوار الدكة الخشبية، كجنين في رحم أمه، تخيلت أنها في رحم أم.. أم أخرى غير أمها الحقيقية، سيدة طيبة بشوشة يُحبها جميع أهل القرية، وتدعوها الست «حلاوة» إلى بيتها لشُرب الشاي بالحليب ساعة العصاري، تخيَّلتْ أن بينها وهذه الأم حبل سُري متين لم تتقطَّع أوصاله بعدُ، وتطرَّفت بخيالاتها أن تلك الأم ما تزال على قيد الحياة، لم تنزف بعد ولادتها حتى الموت، لم تتصفَّ دماؤها فوق

التراب على طول الطريق الطويل إلى مستوصف البَندَر كأمها الحقيقية. كَم كانت هذه الخيالات لذيذة! ودَّتْ ألا تُبددها الحقيقة أبدًا.

مزَّق مشيمتها صوت «مرزوق»، ينادي باسمها ثلاث؛ الأولى بوَجَل والثانية بخوف والثالثة يكسوها الغضب، تأملتْ مُشفقة أباها النائم، ثم أسرعتْ تُزيح الملاءة فأسرع «مرزوق» بالدخول، بادرها مُغاضبًا:

- هل جُننتِ يا «حورية»؟ كيف تتركين هذا المَكتوب في غرفتي؟ لو وقع في يد أحد أتدرين ما الذي سيحدث لنا؟

ارتشفتْ غضبه هازئة:

- ومَن ذا الذي سيتمكن من قراءته يا «مرزوق»؟ أختك لا تقرأ ولا تكتب، وأساسًا لا تزور دوَّار العمدة إلا صباحًا عندما يكون زوجها في الغيط، والست «حلاوة» زوجة أبيك أجهَل من بقرة، والعمدة لا يدخل غرفتك أبدًا.

- لكن «بهانة» تدخلها، والمرأة «تفك الخَط»، هي التي علَّمتكِ القراءة من الأساس.

- الخالة «بهانة» لا يمكنها أن تؤذيني، اطمئن يا «مرزوق».

- نهايته.. ما الأمر العاجل الذي أردتِ إخباري به؟

سرى صوت الخلخال يشق السكون، فاسترعى انتباهه، تململ أبوها في نومته؛ عاجلته بمرارة: - اطمئن، لن يستيقظ، حتى إن استيقظ لن يدري بما يدور من حوله.

كرر سؤاله باضطراب:

- ماذا تريدين مني يا «حورية»؟

- العمدة سيطردني من الدوَّار.

- من أخبركِ بذلك؟

- لستُ بحاجة لأن يخبرني أحد يا «مرزوق»، إن لم يطردني اليوم ستطردني زوجة أبيك غدًا.. أو بعد غد.

سمعا صوت خطوات بجوار العشة؛ توقفت أنفاسه، ولاح الفزع على وجهه. اجتاحتْ «حورية» ريح الغضب، لم تند عنها كلمة ولا حركة حتى ابتعدت الأقدام عن مرمى مسمعهما؛ أخذ «مرزوق» شهيقًا عميقًا زفره ببطء، فوجئ بها تنعته بـ:

- جبان!

لم يغضب، تظاهر بالغضب:

- لماذا تقولين ذلك؟ أنا أخاف عليكِ.

انقضَّتْ عليه بكلماتها واحدة تلو الأخرى، دون أن تدع له مجالًا للرد:

- لو كنت تخاف عليّ لكنتَ تزوجتني يا «مرزوق»، شهور وأنا أسمع منك كلامًا بلا فعل، أقول لك إن العمدة سيطردني من الدوَّار اليوم أو غدًا، لماذا لا تتحرك؟ لماذا لا يجمع بيننا بيت في الحلال بدلًا من اللحظات التي نسرقها في الدوَّار، أو هنا، أو عند الترعة الغربية ليتحدث أحدنا إلى الآخر؟ لماذا لا أكون حلالك وأم أولادك يا «مرزوق»؟. «دَقَّة بالمِرزَبَّة ولا عَشرة بالشاكوش»، فلنتزوج وينتهي الأمر.

انعقد لسانه للحظات، ثم انفجر قائلًا:

- لو لم تثيري في القرية العواصف لما جرؤ أحد على المساس بكِ، لكنك مثل طفل مشاغب يثير الجنون في الآخرين، أخبريني لماذا أحرقتِ مخزن الغلال الذي يملكه «الباز»؟

اضطربتْ، تكشّف أمرها في الحال:

- وما أدراك أنني أحرقته؟

- لأن لا أحد في القرية يثير المشاكل مثلما تفعلين أنتِ.

احتدت تدافع عن نفسها:

- لم أحرقه عمدًا، أقسم لك يا «مرزوق».

- ماذا حدث إذن؟

- الرجل الناقص كان يدفع المال للأولاد ليرشقوا أبي بالحجارة، فجمعتُ الحجارة عند صلاة العشاء وأخذت أقذفها على مخزنه، العين بالعين والسن بالسن، لكن أحدها اصطدم بمصباح الجاز المشتعل فوقع وانكسر، هذا كل شيء.

- أنتِ بَلْوة يا «حورية».. بَلْوة.

زارَ الغم وجهها لمقولته؛ دنا منها ليمسك كتفها مانحًا لنفسه فرصة للتفكير في رد مناسب لا يُأجّج غضبها أكثر، لكنها ضربتْ كفه قبل أن تمسها، قالت مُحتدّة:

- قلت لك إياك أن تمسّني قبل أن أصير حلالك أمام كل أهل القرية.

احتد هو الآخر:

- يا الله، كنت أريد أن أطمئنك فحسب، ألا أرغب في الزواج منكِ؟ بالطبع أرغب، لكن الأمر ليس بهذه السهولة يا «حورية»؛ فهناك أبوكِ المجنون و...

- قَطْع لسانك، أبويا كان زينة رجال القرية، وإمام مسجدها، وشيخ كُتَّابها.

- لكنه الآن في وضع لا يخفى على أحد منذ أن أخذت عقله اللوثة يوم ماتت أمك الغجرية، ومسألة الزواج تحتاج إلى...

قاطعته والنيران تشتعل من عينيها البنيتين فتُحِلهما إلى جمرتين:

- تحتاج إلى رجل، وأنتَ لستَ رجلًا!

- عيب عليكِ يا «حورية»، سأكون رجُلكِ، هل تُهين المرأة رجُلها بهذا الشكل؟

انهارت دفاعاتها، تأرجحت في عينيها عبرات لمعت تحت ضوء نيران المصباح:

- تعبتُ يا «مرزوق».

- المثَل يقول «اتجمّز بالجميز لحد ما ييجي لك التين».

- وإلى متى سآكل الجميز؟ متى سآكل التين؟

- قريبًا جدًا، اصبري من أجلي، من أجل حبيبك «مرزوق».

تعلقت عيناها الدامعتان بوجهه:

- إياك أن تُخيِّب أملي يا «مرزوق»، إياك أن تكسرني، إن كسرتني لن أعود كما كنتُ أبدًا، سأصبح إنسانة أخرى تمامًا، لن أفقد عقلي مثل أبي، لكنني سأتحول إلى نار تحرق كل من يقترب منها.. أتفهم؟!

- أفهم، لن أكسركِ، ثقي بي، ابقي هنا ولا تذهبي للدوَّار هذه الليلة.

مد يده ليكفكف دمعها، لكن يده توقفت في منتصف الطريق بنظرة حادة منها، فهمها في الحال، فأعادها بجواره في خيبة مشوبة بالضيق. غادر وتركها تمضي الليلة أسيرة الهواجس والظنون، مع بزوغ الفجر ستتوجه إلى دوَّار العمدة، وعندها ستعرف ماذا تُخبِّئ لها الحياة. توجَّهتْ صوب كُتب أبيها التي تحتل رُبع مساحة العشة، مرصوصة فوق بعضها البعض، ميراثها الوحيد الذي يحمل رائحة أبيها وأنفاسه، عقله وقلبه وأفكاره، خط يده المنقوش في ملاحظات على طول الهوامش.

لو لم تُدن للخالة «بهانة» بشيء سوى أنها علَّمتها كيف «تفك الخط» لكفاها ذلك، علَّمتها كيف تفرد الشراع، فانطلقتْ «حورية» بمركبها تشق عباب البحر في لهفة وشغف، تقرأ البسيط من الكتب، يستعصي عليها فهم الكثير، لكنها تفرح إذا بلغتْ مِن العِلم الحد القليل، تتزوَّد به فتشعر أنها مختلفة عن بنات القرية الجاهلات، ناقصات الفَهم والهِمَّة.

انتهت حبال صبرها عند العشاء، لم تستطع أن تزيدها في الوصل! كادت أن تتهم عقلها بالجنون حين تناهى إلى أسماعها أصوات زغاريد ترتقي من دوَّار العمدة، وتُحلِّق في سماء القرية، لكن عقلها كان بريئًا من كل اتهام. طافَتْ عيناها عند المندرة فوجدتها ممتلئة برجال يتسامرون بصخبٍ، حول دِلال القهوة وصحون التمر. البِشر يعلو وجوه الجميع، وحدها «حورية» كانت ترتدي قناع الخوف، أيُعقل أن يكون سبب تلك البهجة التي عمَّت القرية هو قرار العمدة بطردها من دوَّاره؟ أم تُراه سيطردها وأباها من القرية كلها؟

في المطبخ كان وجه «بهانة» منطفئًا، الغَم يطوف بأخاديده، خاصة عندما تلاقت نظراتها بنظرات «حورية» التي تأوَّهتِ في نفسها: «آه يا الله، كن معي ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين».

أقبلَتْ «أمنا الغولة» لتلتهم «حورية» على العشاء، لم تسم الله قبل الذبح، كان سكينها بتَّارًا، نَحَرَها من الوريد إلى الوريد:

- اصنعي الشربات وأدخليه إلى الرجال في المندرة، الليلة تم الاتفاق على خطبة سيدك «مرزوق» على بِنَيَّة كَحروتة[1] خرطها خرَّاط البنات، بنت باشكاتب كبير «مَلو هدومه» في ديوان الأشغال، نسَب يشرف صحيح!

اختبأت «حورية» في شونة الدواب حتى خفَّت الأقدام حول الدوَّار، ثم خرجَتْ منها مهرولة، تستُر دمع العين، وتُلملِم كَسرات الفؤاد؛ عَورات لا يجوز عرضها في ساحات الشامتين. ركضت حتى وصلت إلى مخبئها السري في جُرن الحمام المُتهدم، طفقتْ ترشق جدار الصبر بالحجارة، وتصفعه بخيزرانة، وتنثر في عيونه الرمال، لم ينزف هذه المرة، كان النزف من نصيبها هي، صرخَتْ وبكَتْ، حتى كَلَّ منها البكاء، وتحشرج صوتها بالدعاء، وتقاسم الغضب قسماتها جنبًا إلى جنب مع الألم، مثل رفيقا درب تعاهدا على عدم الفراق.

لحقتْ بها الخالة «بهانة»، تُكفكف الدمع، وتُوقف النزف، كما فعلت صباح اليوم مع «حسان» في سوق القرية:

---

(١) فتاة بيضاء.

- آه يا ابنتي المسكينة، ألم أقل لكِ إن ماء الحب مالح لا يَروي، كلما شربتِ منه ازددتِ عطشًا؟

سمعتْ نوح حمامة قريبة، بينما تقول باكية:

- خدعني، كذب عليَّ لأشهر، قال اصبري.. وصبرت، عمري عشرون عامًا ومثلي معها طفلان وثلاث.

- آه يا ابنتي، وهل ظننتِ أن بإمكان «مرزوق» معارضة أوامر العمدة؟ لا يجرؤ أحد على ذلك، لا «مرزوق» ولا غيره.

تعلم الخالة «بهانة» أنها تُلقي الملح على الجرح بحديثها، لكنها ترى أن الشفاء لا بد أن يصحبه نفحة ألم.

- ثم زوجة العمدة الست «حلاوة» لن تقبل بكِ زوجة لـ «مرزوق» ابن زوجها ولو انطبقَتْ السماء على الأرض، من تكونين أنتِ، ومن يكون «مرزوق»؟ «مرزوق» زينة شباب القرية.. صحة وشباب ومال وحسب ونسب.

بات نوح الحمامة قريبًا وكأنها تحج إلى رأس «حورية»، وتطوف فوقها ثلاث، صرختْ:

- لا أريد أن أسمع.

لكن «بهانة» استمرت في مداواتها:

- العين لا تعلو على الحاجب، انظري إلى حكاية أبيكِ وضعيها حلقة في أذنيك، كان زينة شباب القرية، لا يتخير عن «مرزوق» في شيء، يُعلِّمَ الناس القرآن في كُتَّاب القرية ويَؤم المصلين في الصلوات الخمس، ذهب إلى مصر للدراسة في الأزهر وعاد بعد سنوات مرتديًا العباءة والعمة، فتح له كل رجال القرية أبوابهم

ليختار من بناتهم من شاء، لكنه رفض كل بناتنا وتزوّج بامرأة غجرية تطوف القرى والنجوع، تضرب الودع وتقرأ الطالع وتبيع الرخيص من الثياب، حطّت الغجرية على قريتنا مثل غُراب البين، ومن يومها تغيَّر الحال، كفَّ الناس عن الذهاب إلى الكُتَّاب، منعوا عنه أطفالهم، حرموا أباكِ من الإمامة في الصلاة، وأغلق الجميع أبوابهم في وجهه.

- يكفي يا خالة، اقفلي «خَشمك».

- ألقَتْ عليه الغجرية بسحرها فلم يعد يرى سواها، ولم ينفك السحر حتى بعد مماتها، فقد عقله وماله واحترامه بين الناس، فقد حياته كلها وصار مجنون القرية الذي يرشقه الأطفال بالحجارة في الحارات.

الحمامة تُرفرف فوق رأسها، لكنها لم تعد تنوح، اختنق صوتها.

قذفَتْ «بهانة» آخر كلماتها قبل أن تتركها وتنصرف:

- كل برغوث وعلى قدر دمه يا بنت الغجرية!

دخول دوَّار العمدة ليلًا، ومُغافلة الخَفَر صعب على الغريب، سهل على رُوَّاد الدار، و«حورية» تحفظ جيدًا مواطن الثغرات، والنقاط العمياء للخفر، تسلَّلتْ من بينهم دون أن تلتقطها عيونهم الناعسة. في شونة الدواب تسللت عبر فتحة صغيرة إلى ممر يُفضي إلى المطبخ وغرفة «مرزوق» مباشرة، دون أن تضطر إلى الدخول من الباب الأمامي والمرور على صحن الدوَّار، ومندرة الضيوف. أصدَر الباب صريرًا مزعجًا،

فليالي القرية هادئة، لا يتخلَّف صغيرها ولا كبيرها عن فَرشته في مثل هذا الوقت. وقعتْ أنظارها على «مرزوق» المُمدد جسده فوق فراشه غائبًا في عالم الأحلام. التفكير في أنه لربما يحلم الآن بليلة زفافه على ابنة الباشكاتب دفع بالدماء للاندفاع بغزارة إلى رأس «حورية».

أخرَجَتْ من تحت ثيابها سكينًا كبيرًا حادًا ذبَحتْ به «بهانة» البط والدجاجات اليوم، وفي لحظة خاطفة انقضَّتْ على «مرزوق» في فرشته. فتح عينيه على اتساعهما لكن لم يسعه الصراخ؛ بادرته بقسوة وهي تدفع بطرف السكين نحو عرق نابض بعُنقه:

- اصرخ الآن لتكون الفضيحة من نصيبنا نحن الاثنين، لكن قبل أن يصل أحدهم إلى الغرفة سأكون قد ذبحت عنقك كما تقطع «بهانة» رأس البط المسكوفي للغداء.

اتسعتْ عيناه هلعًا، تعطَّلتْ تلافيف عقله عن التفكير بشكل منطقي، وأخذ يتساءل في نفسه: «هل بإمكان «حورية» أن تقتله بدماء باردة؟ ولمَ لا؟! إنها في النهاية نتاج زواج امرأة غجرية برجل مجنون!»

تمكَّن بصعوبة من زحزحة السكين عن عنقه بضعة سنتيمرات، ليقول باضطراب:

- «حورية».. اسمعيني، أقسم لكِ أنني لم أكن أعرف بتخطيط أبويا العمدة لزواجي من بنت الباشكاتب.

دفعت السكين أكثر نحو عنقه، سألته بغضب:

- وماذا فعلت عندما علمت؟ ها؟ وضعت يدك في يد الباشكاتب ثم شربت الشربات، أليس كذلك؟

بات صوته مُختنقًا:

- تعرفين العمدة يا «حورية».. تعرفينه جيدًا، مَن ذا الذي يستطيع عصيان أوامره؟ لم أستطع أن أخبره عنكِ، وأننا...

- اصمت يا «مرزوق»، كلما تحدثت أكثر اشتعل غضبي حتى ليكاد يحرقني ويحرقك ويحرق هذه الغرفة والدوَّار والقرية كلها.

قال يسترضيها:

- لن أتركك يا «حورية»، سأتزوجكِ، والله لأتزوجكِ.

انتعش أملها للحظات:

- كيف يا «خايب الرَّجَا»؟ هل ستواجه أباك وتعصي أوامره؟

أفصح عن نيته باضطراب مَخافة إغضابها:

- لا لن أواجهه، أقول إن.. إن نتزوج سِرًّا.

شعر بكلماتها بصفقاتٍ تُلطِّخ وجهه:

- أنتَ لستَ رجلًا! الرجل الحُر يُدافع عن نفسه وماله وأرضه وحبيبته، أتعرف ماذا أنتَ يا «مرزوق»؟ أنتَ ذكر بط مسكوفي، مبحوح الصوت، لا يجسر على رفع صوته مثل باقي أنواع البط، جبان، ضعيف، لا يحمي أنثاه ولا يرعى صغاره، تستخدمه أمكَ في التهجين مع نوع آخر لإنتاج «بغال البط» العقيمة من أجل التسمين، هذا ما فعله العمدة بكَ، استخدمكَ للتهجين وينتظر منكَ «بغال مرزوق»!

ضُربَتْ عليه الذلة؛ أجهش في البكاء، فما زاده ذلك في نفس «حورية» إلا وضاعة. غلبَ احتقارها له مشاعرها السابقة نحوه، حتى تساءلتْ في نفسها كيف رأته رجُلها يومًا؟!

عبَّأت صدرها بهواء الغرفة التي ستطأها قدماها للمرة الأخيرة، ثم قالت آمِرة:

- بعد يومين ستذهب أختكَ إلى مصر مع أبيكَ العمدة، لا أعرف كيف ستنجح في فعل ذلك ولكن عليكَ أن تقنعهما بأخذي معهما إلى مصر.

توقفت نهنهاته، نظر إليها بلوعة قائلًا:

- مصر؟! وماذا ستفعلين في مصر؟!

آلمته بنصل سكينها مُجيبة:

- لا شأن لكَ، هل ستنفذ ما قلته أم أُفسد عليكَ زواجكَ من بنت الباشكاتب؟ لا تظن أنني لن أقدر على ذلك، تعرفني جيدًا.. إذا وضعتُ شيئًا في رأسي أفعله.

أجابها بنبرات مستسلمة:

- سأفعل يا «حورية»، لكن سامحيني.. أرجوكِ، لم أحب سواكِ.. أقسم لكِ.

اختلج قلبها لوقع كلماته، لماذا لا يُسمِعها تلك الكلمات في عش صغير يجمعهما؟ كانت لتهديه قلبها خالصًا له وحده، وتغزل له من عمرها موال حب يتغنَّى به كل أهل القرية. تصوَّرته في حجرته تلك مع ابنة الباشكاتب فامتعض قلبها، كفَتهُ امتعاضة وجهها ليُدرك أنها في تلك اللحظة أبعد ما تكون عن العفو والمغفرة، نهضت عنه، ثم غادرت الغرفة دون أن تنظر خلفها.

مسَّ بيده خيطًا من الدماء يسيل من رقبته؛ قطع عليه الطريق قبل أن يصبغ ثيابه باللون الأحمر، كتمَ موضع النزف بإصبعه، وعندما وقف

ونظر في المرآة الصغيرة المعلقة على الجدار تذكر كيف كان يمر بجوار «حورية» في البيت والغيط وشونة الدواب دون أن يراها، تتحدث فلا يسمع لها صوتًا.

لم يشعر أبدًا بوجودها المادي حتى يوم زواج أخته قبل عدة أشهر، كانت مختلفة، مُكحَّلة العينين، رائقة الوجه، مهندمة الثياب، رداؤها خال من بقع الطعام وفضلات المواشي، حتى أنه اشتمَّ عطر ياسمين ينبعث منها عندما مرَّت أمامه لتضع أكواب الشربات فوق الطاولة، تقرَّب منها ليلتها، ودون تردد قال لها: أحبكِ يا «حورية».

لم تكن أكثر من مجرد كلمة استهلكها كثيرًا مع غيرها، حتى أصبحت فارغة من معناها، لكنها لم تكن كذلك بالنسبة لـ «حورية»، ففي اليوم التالي لصبيحة الزفاف بدأت بمطالبته بكل ما تحويه الكلمة المقدسة من مواثيق وعهود! ضاق ذرعًا في البداية، خاصة مع صدِّها لرغباته المُلحَّة في لمسة أو قبلة أو عناق، ثم ما لبثَ أن أَحَبَّ نظراتهما المُختلسة في حضور أمه وأبيه العمدة، وكأنها شفرة سرية لا يفك رموزها غيرهما، أَحَبَّ شعور الخطر وهو يتسلل لملاقاتها عند برج الحمام المتهدم، أدمَنَ سباحة الأدرينالين في عروقه وهو يجازف من أجل لقاء لا يدوم في العادة أكثر من دقائق معدودات، أضفَى بعض الألوان على حياة القرية الرتيبة ذات اللون الواحد، شعر أنه فارس مغوار يُحارب الكون والظروف من أجل ملاقاة حبيبته!

عليه أن يعترف أن عواطفه نحوها تبدَّلتْ في الآونة الأخيرة، لم يستطع أن يبني لها العش الذي أرادته، لكنه كذلك لا يرغب في خسارتها، فهي تُكمل نقصه، عثر فيها على الشيء الجوهري الذي ينقصه، والذي يعلم أنه لن يستطيع الحصول عليه أبدًا.. قوَّتها!

كررَّ النظر إلى وجهه في المرآة، توقف نزف رقبته، لكن عيني الفارس الضعيف المهزوم كانتا تنزفان نزفًا من نوع آخر.

أطلَّ الصباح ينظر باستحياء من خَصاص السماء على الفتاة التي تجوب القرية بحثًا عن أبيها، ما إن سمعَت صراخًا آتيًا من مجلس تعلم القرآن في الباحة الخلفية للمسجد، حتى انطلقت كالسهم حيث مصدر الصوت.

مرَّ أبوها بالمجلس فاندفع صوبه كعادته، يزيح عن طريقه الشيخ الذي كان يُعلِّم الأطفال سورة البقرة، ويحل محله في مجلسه، لا يمسَّ المصحف بل يتلو سورة البقرة غيبًا، يخلط الآيات ببعضها، ويمزج بين السور، يُفسد أحكام التلاوة، يقلقل الحاء ويغُنَّ الطاء.

يضرب الأرض بقدمه فيرن صوت الخلخال، يثور عليه الأطفال قبل شيخهم، ينهضون من مجلسهم ويقذفونه بما تطاله أياديهم من الحجارة، بينما يصيح فيه شيخهم:

- وهل تظن القرآن موالًا من مواويل الفجرية التي علّمتكَ إياها.. خسِئتَ يا مجنون!

لا يتزحزح أبوها عن موضعه، يصر على التلاوة، حتى يصيبه حجر في صدره، وآخر في رأسه، تبصق جروحه الدماء، يتألم.. يجزع.. يصرخ.. يهرول باحثًا عن حصنه الآمن.. تُقبل عليه «حورية» بلهفة، تحتضنه.. يبكي بين ذراعيها.. يشير إلى الأطفال الضاحكين وشيخهم الغاضب.. يسيل لعابه.. يتحدث فلا تفهم من مقولته كلمة واحدة.. لكن قلبها ينتفض لألمه ولوعته.. ينشد مواله باكيًا وهو يُحرِّك قدمه اليُمنى بقوة:

الـــدم في إيديكـــــم والظلـــــم كاسيكـــــم
اللعنـة هاتجيكـم في وسـطيكم وبعديكـم ولاد وعيـال
يـــا حـــــرة يا ضنايــــا يا بـدر في سمايــــا
م الفقـر كـدا كفايـة مـا أنـا معايا دهـب خلخـال.

تَمسح عن رأسه الدماء بطرف طرحتها السوداء، تمسك بالحجارة وترشق بها الأولاد؛ يتجمع أهالي القرية الغاضبين لفض الاشتباك، تصيح امرأة:

– إلى متى سنتحمل ذلك؟ لا عيش للمجنون وابنة الفجرية في قريتنا بعد الآن.

يصدّق على قولها جيرانها وصويحباتها، لم تنس إحداهن رفض أبيها الزواج من أي منهن، وتفضيله عليهن غجرية لا أهل لها ولا نسب، لا أصل لها ولا وطن، سنوات طوال ولم يهضم كبرياؤهن الأنثوي تلك الإهانة بعد.

تابعتهما السُحُب المنثورة في السماء، ترقب مرورهما بين عيدان القصب في أرض «الباز»، حتى وصولهما إلى الجسر الخشبي الذي يصل شرق القرية بغربها، يجلسان فوقه وما يزال رأسه مستريحًا إلى كتفها، تزيحه قليلًا وتُريه ما بداخل منديلها الكبير، كِسرات خبز جاف وطاجن فخاري صغير، تُشرق البهجة في عينيه لرؤيته، تقول بحنان:

– فجرًا صنعتُ لك «البصارة» التي تحبها، هيا كلها، إنها لك وحدك.

يُقَبل عليه بلهفة حتى ليكاد يأكل الطاجن نفسه، تمنحه في كفه قرش صاغ قائلة:

- وهذا لتشتري «براغيت الست» تُحلّي بها فمك.

تفيض البهجة من قسماته، يبتسم لها، تظل شفتاها جامدتين، يضيّق ما بين حاجبيه، ليس من شيمها عدم رد بسمته بأحسن منها. يشعر بحزنها.. ألمها.. عذابها، ينفطر قلبه.. يحاول التخفيف عنها.. يمس كتفها بأنامله.. تشن الأفكار العابثة حملة على عقله.. تضيع رغبته في مواساتها بين عشرات الرغبات الأخرى.. يضحك.. يصرخ.. يُنادي.. يبكي.. يتوقف عن البكاء.. يأكل وهو يُنشد مواله:

غجريـــــة وخدتنـــــــي في العشـــــق حبستني

وفي لحظة وسابتني سحرتني ويا ريتني أموت وأنشال.

سبَحتْ عيناها في بحار اللون الأخضر، عيدان القصب، محصول الفِجل، وشجرة «تمر حنة» كبيرة تستند إلى الجسر، وكأن سنوات الصمود قد أتعبَتها فروعها وأهلكَتْ جذعها، لو كان لها أن تتكلم لسألتها: «هل ستنجح في الوصول إلى نهاية الطريق الذي اختارته، أم ستفشل في الصمود وحيدة مثلها وستحتاج إلى جسر تتكئ عليه؟ وإن وجدته، هل سيكون بمتانة الجسر الخشبي الذي تجلس عليه الآن، أم أنه سينهار تحت وطأة حِملها؟

التفتَتْ إلى أبيها هامسة:

- عليّ أن أفعل ذلك، سامحني يا آبا، عليّ أن أتخلى عنكَ لأجلكَ، يشتعل بقلبي حريق هائل لا أعرف كيف أطفئه، القهر ينهش قلبي والخوف كذلك، أنا خائفة جدًا يا آبا، لكن لا حل أمامي غير ذلك، عليّ أن أفر من نار القرية إلى جنة مصر، فلربما صادفني حظ «مخيمر» السقَّا فأصير «هانم» مثلما صار هو «بك»، عندها لن نتفرق لحظة واحدة يا آبا، سيكون معي مال كثير، سأشتري به خفرًا يحموننا، لن يؤذيكَ أحد بعد الآن وسأداويكَ عند أفضل حكيم في مصر، سيردون إليكَ عقلكَ يا آبا، سنكون سعداء.. أنا وأنتَ.. مثلما رأيتُنا في أحلامي.

ها هي خلال ساعات تَترُك وتُترَك، ألم الفقد يتسرَّب إلى مسامها ويجتاح دورتها الدموية، لا فارق بين أن تكون فاقدة أو مفقودة، كلاهما بتر، كلاهما موت!

لم تفوِّت لحظة واحدة من يومهما الأخير معًا، صنعا المراكب الورقية وأطلقاها في الترعة التي تمر تحت الجسر، قطفا عيدان قصب من أرض «الباز»، نزعَت قشرته القاسية بأسنانها، وقطعت لُبه الأبيض حلقات صغيرة، دسَّتها قطعة وراء أخرى في فم أبيها، السائل المسكر يملؤ فمه حلاوة وقلبه طلاوة.

لعبا الغميضة، ضحك ملء قلبه عندما عثر عليها وراء شجرة «تمر حنة»، حاولتْ الفرار منه فوقعا معًا في الترعة، سبحا حتى البر الشرقي، افترشا العشب، كانت أيادي الشمس حانية وهي تجفف ملابسهما، لم تزعجهما برودة الهواء، ولا زمجرة الرياح، حتى تراقُص أوراق «تمر حنة» الجنوني لم ينجح في إقناعهما بمغادرة جنتهما، والالتجاء إلى عشتهما.

همس أبوها بوداعة:

- «حُرة».. ابقي معي دائمًا.

الوحيد الذي يدعوها باسمها الحقيقي، ابتسمتْ له حتى تبدّت نواجزها، تحوم في عينيها غيمة مُحملة بأمطار غزيرة:

- حاضر يا آبا.

طفقتْ فلول الليل تتسابق للهرب من قبضة الشمس، وكأنها لا تجسر على أن تكون شاهدة على يد الألم وهي تنحت من شابة نضرة في ريعان شبابها جمرة نار حارقة، أوَّل ما تبتدره الجمرة بالحرق هو الحطب الحاضن لها! نظرتْ إلى أبيها برحمة، شبَّهته بساقها، ساق كسيحة أصابها المرض، لكنها تظل ساقها، هل يتخلى المرء عن ساقه حتى وإن كانت عليلة لا يُرجَى برؤها؟!

تَلقَّفتها طلائع الخوف في عالم الأحلام، تنازعتها الكوابيس، أيادي الماضي تُسلِّمها إلى حاضرها، فيلقي بها في بئر المستقبل المجهول، وفي الصباح كانت رائحة الندى وهو يمتزج بالعشب من حولها مُنبهًا دقيقًا لساعتها البيولوجية، أن آن أوان الاستيقاظ.

لم يكن أبوها إلى جوارها، سهَّل عليها ذلك مهمتها، توجهت إلى العشة، بدَّلت جلبابها ذا الورود الحمراء الباهتة بجلباب أسود، وكأنها تُخاصم به الألوان، جمعت أغراضها البسيطة في ملاءة، عقدتها مرتين،

وصنعت منها «بؤجة»، ثم عدَّلت «الأمطة» التي تعصب بها رأسها، ولفَّت فوقها طرحتها السوداء، أفلتتْ دمعة أطلَّتْ من شرفة عينها تعانق العشة للمرة الأخيرة.

مسحتْ عن وجنتها البلل وهي تقسم لنفسها بأغلظ الأيمان:

- تلك هي آخر قطرة دمع، لن أبكي مرة أخرى.. أبدًا.

البِر بالقسَم لم يكن سهلًا كما ظنَّتْ! توجهتْ بثقة إلى سيارة العمدة الكاديلاك السوداء، التي تقف على أهُبة الاستعداد أمام دوَّار العمدة، فارغة إلا من خفير يحتل مقعد السائق، فتحت الباب الخلفي دون كلمة واحدة وجلست خلف الخفير، على ثقة من نجاح «مرزوق» في إقناع العمدة بأخذها معه إلى مصر، ما كان ليتحمل الفضيحة، ما كان ليتحمل غضب العمدة إذا أفسدتْ «حورية» زيجته من بنت الباشكاتب، كانت على ثقة من ضعف «مرزوق» لا من قوته!

احتلَّ العمدة المقعد المجاور للسائق، وزاحمتها ابنته في الأريكة الخلفية، بعدما لوَّحَتْ لزوجها مُودِّعة، ينظر الجميع إليها وكأنها مضغة لاكها «مرزوق» ثم بصقها أرضًا، وخطَّ فوقها بقدميه. وعندما همست ابنة العمدة بتشفٍ: «يا مِية نَدامة على اللي حَب ولا طالشي»، كادت تصفعها، وتصنع من شعرها ممسحة للأقدام، لكنها كظمت غيظها، ضاق صدرها بأنفاسها، وضاقت عليها القرية بما رَحُبت، أصدر العمدة أوامره إلى الخفير:

- انطلق على بركة الله.

انفطر قلبها عندما طالعتْ أباها وهو يهرول نحو السيارة التي بدأت في التحرك، يَحجل على قدم واحدة وهو يهتف باسمها، اخترقت صرخاته شغاف قلبها وأدمته، لاحَت لها الخالة «بهانة» تخرج من دوَّار العمدة، وتُمسك بكتفي أبيها، تمنعه من العدو خلف السيارة، صاحت «حورية» بصوتٍ متحشرج:

- انتبهي له جيدًا يا خالة «بهانة»، أمَّنتكِ إياه يا خالة، أيام وأعود إليه، أمَّنتكِ إياه.

استدارت توليهما ظهرها، رفعتْ كفها إلى قلبها تسد عنه نداءات أبيها.. صرخاته.. وبكاءه، لم تره وهو يقع ألمًا فوق الأرض فيزحف فوق التراب وهو ما يزال يناديها، يُعاتبها، يلومها:

- «حُرة».. «حُرة»!

لم تلتفت، منعت دمعاتها من الهرب، أغلقت عليها ألف باب وباب، نشبَتْ أظافرها بلحم ذراعها، ليتغلب ألم جسدها على ألم قلبها.. فلا تبكي.

وعندما مرَّتْ السيارة على قبر أمها، القبر الوحيد الذي بُني على أطراف القرية، منبوذًا.. مغضوبًا عليه، أنزلَتْ زجاج النافذة، وبصقَت فوقه!

(((الراوي)))

قال الزمن للأشجار المُنصتة إلى حكايته:

- القاهرة امرأة يصعب إرضاؤها، مَن أَحبَّها أذلَّته، ومَن ناصَبها العداء أهلَكته، تُدفن الضعيف تحت أنقاضها، وتَرفع القوي فوق أبراجها، حتى إذا ما ظن أنه أمسك بناصيتها سحبتْ بساطها من أسفل قدميه. تحب من يعاملها ندًا بند، تصفعه فلا يدير لها خدًا، تمنحه وردًا فيسقيها شهدًا، تعده بخلود حبها فلا يصدقها، لو كان حب المرأة أبديًا لتوقفت الحياة بعد أول خفقة قلب!

قطعت شجرة «صفصاف» حديث الزمن، قالت حالمة:

- أحسنَتْ الفتاة حين تركت قريتها الظالمة، حتمًا ستجد في القاهرة قلبًا دافئًا يضمد جراحها ويُنهي عذاباتها.

عنَّفتها شجرة «خشخاش»:

- بل قولي أجرَمَت الفتاة في حق نفسها، تترك النار التي تعرفها إلى نار لا تعرفها.

انتظرتْ الشجرتان حديث الزمن ليفصل بينهما، أيهما مصيبة في قولها؟ ليس للزمن وجه ينظرون إليه، وهذا ما أزعج بعض الأشجار الحالمة التي تُحبُّ أن يكون لمُحدِّثها وجه مُكتمَل الأبعاد، لكن جميع أشجار الغابة القديمة يعلمن أن للزمن عيونًا كثيرة، إذ تنبتُ له كل ثانية عينٌ

جديدة! لهذا السبب ليس للزمن وجه، فلا يوجد وجه بإمكانه حَمل هذا الكَم الضخم من العيون! قال الزمن بحكمة عجوز خبير:

- النار التي تُدفئ هي نفسها التي تحرق، لم تدرك الفتاة أن الفارق بين الدفء والاحتراق خطوة واحدة.

تساءلت شجرة «الصفصاف» بقلق:

- وكيف ستشتعل النار يا زمن؟

نفثَ في النيران التي كان قد أشعلها في منتصف الحلقة؛ ازدادت حرارتها، وتطاير شررها:

- تشابه اسمها مع اسم ابنة العمدة هو مفتاح دخولها إلى القصر.

عادت شجرة «الصفصاف» تتساءل في قلق أكبر:

- ما علاقة النيران بالقصر؟! وأي قصر هذا؟

أجابها الزمن بكلمتين فحسب، كان لصديهما وقع مفزع، أخذ يتردد في أفواه الظلام من حولهم:

- القصر الأسود!

- ولماذا سُمِّي بهذا الاسم يا زمن؟

- لأن كل مَن دخله كان مصيره أسود!

صمتت كل الأشجار، إلا شجرة «كافور» حانية، حثَّته بقلق حقيقي وهي تميل مع الرياح لتطمئن على الفتاة فاقدة الوعي داخل الحفرة:

- أكمل لنا حكايتها يا زمن.

التقطَ الزمن خيط الكلمات، وعاد يحيك نسيج الحكاية.

(((قبل سنوات)))

لم يفهم أحد سر إصرار الست «حلاوة» على تسمية ابنتها بـ «حُرة»، خاصة أن في القرية رجلين يحملان الاسم الثنائي ذاته «شعبان رمضان»، زوجها العمدة، وحبيبها مجنون القرية! أخفَتْ ذلك الحب كالسر في قلبها، وعندما عاد من مصر حاملًا شهادة أزهرية، يرتدي عمة وعباءة تسد عين الشمس، ظنت أنه سيختارها دونًا عن كل فتيات القرية زوجة له، فهي أكثرهن جمالًا، وأغناهن مالًا، وأفضلهن حسبًا ونسبًا.. لكنه فضَّل عليها الغجرية.

تزوجت هي من العمدة الذي يكبرها بثلاثين عامًا نكاية به، والذي لديه ولدٌ اسمه «مرزوق» من امرأة غيرها، لم يعبأ بها ولو بمقدار ذرة، أحرقَت نفسها عبثًا، لكن الأمل عاد ليراودها بعد موت الغجرية أثناء ولادتها، وعندما رُزِقتْ بفتاة هي الأخرى بعد أربع سنوات تمنَّت موت ابنة الغجرية، واختارتْ لابنتها الاسم نفسه؛ لعل المجنون يعود له عقله يومًا ويستبدل الغجرية وحُرَّتها.. بها وحُرَّتها.

لكن هذا اليوم لم يأت قط، فكُتِب على ابنة المجنون وابنة العمدة أن يكون لهما الاسم ذاته «حُرة شعبان رمضان»، ومع أن لقب العمدة «الخولي» كان مختلفًا عن لقب المجنون «النُعماني» إلا أنه لم يهضم أبدًا هذا التشابه في الأسماء بين ابنته وابنة المجنون، ولولا ما سقته إياه زوجته الشابة من غنج -وهو الذي تشققت سنوات عمره جفافًا- ما وافق أبدًا.

وفي صبيحة يوم غائم، دخلت عليه ابنة الغجرية المندرة، مغبَّرة الوجه، ممزقة الثياب، حافية القدمين، تسوقها «بهانة» من كفها الصغير، تستجديه أن يستخدمها كخادمة في دوَّاره؛ تأتي بقوتها وقوت

أبيها الذي لا حول له ولا قوة، سألها العمدة عن اسم الطفلة وهو العارف باسمها، وقبل أن تنطق به «بهانة» صاحت ابنة الخامسة بفزع:

- حيَّة.. حيَّة.

فقال العمدة على الفور:

- ماذا قلت.. «حُورية»؟. اسمك «حُورية» إذن.

لكن صرخة «بهانة» نبَّهته إلى الأفعى التي تزحف بين قدميه، اندفع أحد الخفر وأجهَز عليها بعقب سلاحه، في ذلك اليوم استحالت «الحية» إلى عصيدة، وصارت «حُرة» «حُورية».

القاهرة
(((٢٣ يناير ١٩٥٢)))

استقبلتها المباني العالية في «القاهرة» بجفاء، اتسعتْ عيناها وهي تطالع الأدوار الأخيرة منها بفزع، كيف يمكن للمرء أن يعيش بالقُرب من السماء؟ استرعت انتباهها الفوارق المتباينة بين شوارع العاصمة، بعضها شديد الازدحام وأخرى يسودها الهدوء، بعضها واسع نظيف وأخرى ضيقة مُهمَلة، لم يكن التباين من نصيب الشوارع فحسب بل والسائرين فيه كذلك. رأت من الرجال من ينتمي إلى عالم العِمم، ومنهم من ينتمي إلى عالم الطرابيش، ومن النساء من تحجِّب شعرها وترتدي الفضفاض، والكاسيات العاريات، من تفترش الأرض وتبيع جُبنًا، ومن ترتدي الكعب العالي لتنزه كلبًا، لكن على تباين نساء القاهرة لم تقع أنظارها أثناء اختراق الكاديلاك السوداء لشوارعها على من تُماثلها في هيئتها الريفية إلا قليلًا، بعصبة رأسها وجلبابها الأسود.

وأشد ما أثار دهشتها رؤيتها لحدائق واسعة بغير فلاحين، وأشجار بلا ثمار، وشجار بلا مُفرِّقين، وترعة هائلة اسمها «النيل»، هكذا سمعَتْ العمدة يُسمِّيها لابنته! أما «الترام» فكان له نصيب الأسد من انبهارها، ينبعج منه الركاب، يوشك على الانفجار من تكدس اللحم بداخله، مثل زَلعة المِش في بيت العمدة في أول رمضان، سمَّاه العمدة «ترام»، لكنها

سمعَتْ الأطفال في الشارع يهرولون خلفه ويطلقون عليه اسم «العفريت»، ورأتْ رجلًا يسحب خلفه أسرته المكونة من خمسة أفراد ويصيح فيهم:

- أسرعوا، «الكهرباء» وصل.

أتعبَتها كثرة التفاصيل، الأشكال والروائح والأصوات، ولم تكن ابنة العمدة في حال أفضل منها، رغم أنها زارت مصر مع أخيها وأبيها العمدة مرة من قبل، لا يحب العمدة اصطحاب أسرته في سفره، لكنه مُجبر هذه المرة.

تساءلت ابنة العمدة مَبهورة الأنفاس بمصر وجمالها:

- هل سنذهب الآن إلى مَقام «السيدة زينب» يا آبا العمدة؟

- لا ليس الآن، سنذهب إلى اللوكاندة لأستريح، وبعدها لدي موعد مع الباشكاتب، سأسهر معه في «الفيشاوي»، ثم نمُر غدًا على قبر السيدة.

- لا أريد الذهاب غدًا، أريد الذهاب الآن، أمي وصَّتني أن أذهب فورًا.

التفت العمدة صوبها، منحها نظرة أخرستها، لوت شفتيها منزعجة، بينما لمحة من بسمة ساخرة تتكون ببطء فوق شفتي «حورية»، وبدافع استفزازي أرادت «حورية» أن ترد لها صفعة «يا مِية ندامة على اللي حب ولا طالشي»، ثم مالَت لتهمس في أذن ابنة العمدة:

- هل تظنين حقًا «السيدة زينب» المدفونة في قبرها تملك القدرة على منحك جنينًا تعودين به إلى القرية نافشة ريشك؟! لو كان ذلك صحيحًا لصارت كل النساء حوامل متى اشتهين، لكن هذا لا يحدث، أليس كذلك؟

تدرج وجه ابنة العمدة بحمرة الغضب قائلة:

- واسم الله ما إن أصل لمقام «السيدة زينب» لأنذر لها نذرًا من أجلكِ يا بنت الفجرية، سأطلب منها أن تكون موتتك أبشع موتة لإنسان، سأطلب منها أن تشتعلي بالنار حية في يوم نحْس، وسنرى إن كانت قادرة على ذلك أم لا.

عادت «حورية» تطالع شوارع القاهرة من نافذة الكاديلاك السوداء، محافظة على ابتسامتها اللامبالية، لكن رجفة ما أصابت قلبها!

في شرفة لوكاندة «السعادة» التي تطل على حديقة الأزبكية، وقفت «حورية» تتلحَّف بعباءة الليل، تعمل على تذكير نفسها بخطتها للتأكد من خلوها من الثغرات، عليها أولًا أن تعثر على بيت «مخيمر»، وهذا في ظنها لن يكون صعبًا فما تزال لديها تلك الورقة التي كَتب عليها «مخيمر» عنوانه بنفسه، عندما قدِم في زيارته الوحيدة إلى القرية بعد أن أضحى «مخيمر» بك.

لم ينس معروف «حورية» عندما كانت تُهرِّب له «الحنون»[1] كل حين وآخر من مطبخ العمدة، وتدسها سِرًّا في يده، يومها أعطاها الورقة قائلًا:

- إن احتجتِ إلى أي شيء أخبريني، هذا عنواني.

بعد أن تعثُر على بيت «مخيمر» كل شيء سيكون سهلًا، يمنحها عملًا في إحدى شركاته أو مصانعه.. تعود إلى القرية لإحضار أبيها.. تعمل بجِد.. تجمع المال.. تعالجه عند أمهر حكيم في مصر.. يُشفَى

(١) عجينة يوضَع بها السُكر والسمن، ثم تُخبَز في الفرن البلدي.

من الجنون.. يعيشان معًا في سعادة إلى الأبد، عليها فحسب أن تتخيَّر اللحظة المناسبة للهرب من اللوكاندة.

خطة في غاية البساطة!

أفسَد الأرق عقارب الساعة؛ صارت ليلتها أكثر طولًا، جافاها النوم وكأنه يمنحها جزاء سمنار على كل الليالي التي باتت فيها آمنة واثقة من كلمات «مرزوق» ووعوده، ما كان عليها أن تأمن للدنيا ومكرها، عليها أن تخلق سعادتها بنفسها، وألا تثق بأحد غيرها.

حفرَتْ أظافرها بلحم ذراعها أخاديد متعرجة؛ نزفَتْ بضع قطرات من الدماء، نهضتْ بهدوء من فرشتها فوق الأرض لئلا توقظ العمدة وابنته في فراشيهما المتجاورين. في حمَّام الغرفة سرق الماء الجاري قطرات دمائها، اختفى بها إلى حيث تذهب المياه القذرة، أغضبها ذلك حتى كادتْ تخمش ذراعها من جديد، دون أن تدع الماء يسلبها دماءها الغالية هذه المرة.

لاحَتْ بعقلها كلمات أبيها عن الغضب، وكيف يزيل الوضوء ما علَقَ بروحها من ثورة واهتياج. رغم جنونه كان لسانه أحيانًا ينطق بكلمات تتكئ عليها وقت الحاجة، غاب عنها اليقين في إزالة غضبها، لكنها شمَّرتْ عن ذراعيها وتوضَّأتْ، ربما لشعور بالذنب غمرها حين تذكرت أباها، كيف تركته في القرية بمفرده، تُرى ماذا يفعل الآن؟

قبل عودتها إلى فرشتها فوق الأرض وقعت أنظارها على محفظة العمدة المنتفخة الموضوعة على طاولة صغيرة بجوار فراشه، دنتْ منها

رويدًا رويدًا، تقلَّبْ العمدة في نومته فتجمدتْ في مكانها، حبسَتْ أنفاسها ولم تطلقها إلا حين تأكدتْ أنه يغط في نوم عميق، دنتْ أكثر فأكثر، المحفظة منتفخة بالأوراق النقدية، بضع ورقات منها كافية لتحل لها أزمتها، لا يمكنها الهرب من اللوكاندة دون مال، لا يمكنها الوصول إلى بيت «مخيمر» وهي لا تملك في جيبها قرش صاغ واحدًا.

دنتْ أكثر حتى لم يعد يفرق بينهما سوى بضعة سنتيمترات، كان الحرام سهلًا.. أسهل كثيرًا من الصبر والانتظار. لاحَتْ بخاطرها كلمات مَن يدعوه الجميع بالمجنون، حينما كان يصيح في وجه إحدى الفلَّاحات؛ رآها تخلط اللبن بالماء:

- أنتِ امرأة غشَّاشة، البدايات هي نبوءة النهايات، ونهايتكِ حالكة كسواد الليل، كرماد محترق، كقلب آثم، غشَّاشة.. سارقة.. آثمة.

ثم طفقَ يَسكب عليها الماء ليغسل قلبها من الآثام، فقذفته المرأة وأطفالها بالحجارة، يمسكون بجلبابه ويدورون به في ساحة السوق:

- المجنون أهه.. المجنون أهه.

حتى أنقذته «حورية» من بين أيديهم.

انتفضتْ لتلك الذكرى فآوَتْ سريعًا إلى فرشتها، ابتعدتْ عن محفظة العمدة كفرارها من حيَّة على وشك التهامها.

أيقظها سُعال العمدة في صبيحة اليوم التالي، ركلها بقدمه، ثم صاح فيها:

- قومي فِزِّي، أين طعام الفطور؟

تُدلِّك موضع ركلته، وتجيبه بحنق:

- نحن في اللوكاندة وليس في الدوّار يا عمدة، ليس عليَّ مساعدة خُدَّامهم في المطبخ.

استقامَتْ واقفة، فدفعها بحدة:

- اذهبي واطلبي منهم أن يسرعوا إذن، ما كان عليَّ أن آخذك معي فلا أدري لكِ نفعًا، آخ منكِ يا «حلاوة» آخ.

لم تسأله كيف أجبر «مرزوق» أمه والتي أجبرتْ بدورها العمدة على أخذها معه، ولا يهمها أن تعرف. خرجتْ من الغرفة متجاهلة أوامر العمدة، توجهتْ من فورها إلى غرفة مالكة اللوكاندة، مفتوح بابها، تحتسي قهوتها الصباحية وهي تقرأ صفحة المزاد العلني بمجلة «آخر ساعة»، باستخدام عدسة مُكبِّرة، وصوت «سيد درويش» يتسلل من الراديو.

استعجبـــــوا يــــا أفنديـة

لتـــــر جـــــــاز بروبيـة

ثمــــن لتــــر زمـان بصفيحـة

واللـي يطولـه اليـوم بفضيحـة.

حيَّتها «حورية» بحرج:

- سعيدة يا مدام «أرامينتا».

أجابتها السيدة اليونانية بشوشة الوجه:

- سعيدة مبارك حبيبي، هل هناك مشكلة في غرفتكم؟

- لا، ولكنني أريد أن أسألكِ عن شيء، هذا العنوان.. هل هو قريب من هنا؟

ابتسمتْ مدام «أرامينتا» ببشاشة، تناولتْ الورقة من «حورية» قائلة:

- سأقرأها بهذه العدسة؛ لأنني فقدتُ نظّارتي في الصباح.

مرّرَتْ العدسة فوق الكلمات ببطء، ثم أردفتْ:

- آه، هذا المكان بعيد.. بعيد كثيرًا حبيبي.

تهدّل كتفا «حورية» همًا، الوصول إلى بيت «مخيمر» لن يكون سهلًا إذن، لا بد من المال، القاهرة كبيرة جدًا، التجول فيها تمامًا كالسفر. دارتْ على أعقابها بعد أن شكرتها، لكن مدام «أرامينتا» دعتها لدخول غرفتها، لبّتْ «حورية» دعوة السيدة اللطيفة على استحياء.

غرفتها نظيفة ومرتبة مثل غرفتهم، الأثاث ذاته، والمساحة نفسها، لكنها رغم ذلك مختلفة كثيرًا، استشعرتْ فيها «حورية» لمسة أنثوية راقية، ورائحة حلوة مسكّرة، مثل طعم المشمش الذي يهديه أعيان القرية إلى العمدة عند بداية الموسم.

قالت «حورية» للمرأة التي لها شكل المشمش ورائحته:

- لماذا تعيشين هنا يا مدام «أرامينتا»؟

- في اللوكاندة؟

- في مصر، لماذا لا تعودين إلى بلدكِ؟

ابتسمت مدام «أرامينتا» وأشارت لـ «حورية» بالجلوس في المقعد المقابل لها، قالت:

- هاجَر أبي إلى «مصر» هربًا بعد أن أثقلته الهموم والديون، جاء إلى مصر من أجل عمل أفضل وحياة أرقى، انضم إلى الجالية اليونانية بالإسكندرية، وهناك تعرّف إلى أمي وتزوّج منها.

عند ذكر الإسكندرية تراقص قلب «حورية» طربًا، وأخذت تجسد بخيالاتها كلمات المرأة:

- كنا نمضي وقتًا ساحرًا مع أبناء الجالية اليونانية في الحي الأحمر، فلدينا في اليونان حي بنفس الاسم، وفي عطلة نهاية الأسبوع نذهب إلى السينما التي تعرض فيلمًا عربيًّا وفيلمًا أوروبيًّا، ثم نُكمل باقي السهرة في مقهى «تريانون» أو «إيليت»، كانت أيامًا ساحرة.

تساءلت «حورية» بفضول:

- ولماذا انتقلتم إلى القاهرة؟

- أبي الخواجة «نيكولا» -كما كانوا يطلقون عليه- كان يعمل مع أمي في متجر للمخبوزات ذائع الصيت في أبي قير، حتى اجتذبته مرة أخرى حرفته الأساسية التي كان يمارسها في بلده، الخياطة، فأخرجني من مدرسة «أريستوفرونيس» التي قضيت فيها سنوات تجنن في حي فيكتوريا، وأتى بنا إلى القاهرة من أجل فرصة أفضل، تعرفين.. الأسرة الحاكمة تُفضّل الحرفيين الأجانب، وهكذا عملنا في القصر الملكي.

- وأين والداكِ الآن؟

- توفيا، دفنتهما حيث كانا يتمنيان دومًا، الإسكندرية مدينة كوسموبوليتية مدهشة، أنا أيضًا أريد أن أُدفَن فيها.

انعقد جبين «حورية» في ضيق، فبسَّطتْ المرأة مفرداتها قائلة:

- أقصد أنها وطن يسع الجميع.

ثم تساءلت المرأة بود:

- وأنتِ.. هل تُحبين قريتكِ؟ صفيها لي فلم أذهب إلى قرية مصرية من قبل.

أثار سؤالها شجون «حورية»، نهضت وتوجهت صوب النافذة، تدفن نظراتها بين طيّات السماء، ثم تقول:

- أنا.. لم أشعر يومًا أنني أنتمي إلى مكان، أظن أن الأرض ستبصقني حين أموت، لن تحتضنني مثل كل الأموات، لا أريد أن أعيش أو أموت على الأرض!

أغمضتْ عينيها، وفردتْ ذراعيها، وهي تستطرد:

- أريد أن أكون حمامة تُحلّق في السماء، أذهب إلى برج الحمام المتهدم في قريتنا، أبني هناك عشًا بمنقاري وبعض القش، وحين تحين نهايتي أطير إلى البحر.. البحر الذي لم أره قط، أغوص في أعماقه وأصير عروسة بحر تموت بين أحضانه.

هتفت مدام «أرامينتا» باستنكار كبير:

- لم تري البحر قط!

التفتَ إليها «حورية»، هزّتْ رأسها نفيًا مُصدِّقة على قولها:

- رأيته فحسب في صور المجلات التي كان يحضرها العمدة معه من مصر.

ثم أردفتْ فجأة:

- أخبريني، هل ارتديتِ نظّارتكِ هذا الصباح؟

زمّتْ مدام «أرامينتا» شفتيها بأسف:

- كلا، منذ أن استيقظتُ لم أعثر عليها.

- أين تضعينها في العادة؟

- في الشكمجية، فوق هذا الكومود الصغير بجوار الفراش.

توجهتْ «حورية» صوب الكومود، عاجلتها مدام «أرامينتا»:

- بحثتُ جيدًا دون جدوى.

دون تردد أبعدت «حورية» الكومود عن الجدار، وانحنت لتلتقط نظارة المرأة التي بشَّ وجهها فرحًا.

- دومًا تتساقط أغراض العمدة بين خزينته والجدار؛ فأحرص على زحزحتها كلما هممتُ بالتنظيف، وألتقط ما سقط من أغراض.

ثم أردفتْ تُحدِّث نفسها بمسحة كآبة:

- أحيانًا تُسقط الست «حلاوة» الأغراض في هذا المكان عمدًا، وهكذا تتأكد من أنني أدَّيتُ مهمة التنظيف جيدًا.

- شكرًا حبيبي.. شكرًا جدًا.

عادت «حورية» إلى حوار انقطع دون تتمة:

- كيف هو البحر يا مدام «أرامينتا»؟ هل هو بزرقة السماء أم داكن أكثر؟ هل هو باتساعها أم عرضه أكبر؟ هل هو بعيد مثلها أم طبقاته أعمق؟

انشغلت مدام «أرامينتا» بالعبث داخل سحَّارة السرير بعد ارتداء نظارتها ذات العدسات السميكة، دون أن تمنح «حورية» ردًا، ظنَّتْ «حورية» أن المرأة اكتفت من حديثها فهمَّتْ بالانصراف في حرج، لكن

المرأة عادت لتواجهها وقد أخرجت من السحَّارة فستانًا خلابًا تتدرج ألوانه من أكتاف بيضاء بغير أكمام، إلى محيط صدر سماوي، ثم أزرق فاتح، فداكِن عند أطرافه الدانتيل، معه شال أزرق اللون مطرزة أطرافه بلؤلؤات صغيرة.

تمامًا كفستان أحلامها!

انبهرتْ «حورية» بجمال الفستان، أخذتْ تتحس قماشته الحريرية في شجن، سمعتْ صوت المرأة اليونانية تقول:

- هكذا هو البحر.

همستْ وكأنها ترى البحر، وتدفن أصابعها بين أمواجه:

- يهبل.

رقَّ قلب السيدة «أرامينتا»، تقول بحنان، وببسمة ودٍ:

- هو لكِ.

لم تفهم «حورية» مقصد المرأة إلا حين استطردتْ:

- لكن عديني أنكِ ذات يوم ستزورين البحر، وأنكِ ستُحققين لنفسكِ هذا الحلم.

ضمَّتْ «حورية» الفستان إلى صدرها بقوة، مخافة أن تتراجع المرأة عن هديتها، ترقرقتْ عبراتها وهي تبتسم قائلة بحماس كبير:

- أعدكِ، سأرتدي الفستان الأزرق وأنا أنظر إلى البحر.

بينما تسير في الممر المؤدي إلى غرفتهم انفتح باب إحدى الغرف بغتة، أطلَّ منها رجل أربعيني يرتدي طربوشًا وقميصًا ناصع البياض، أمرها بعجرفة:

- الملاءات متسخة، تعالي غيريها.

تَوَغَّر صدرها، واكفَهَّر وجهها، هل مكتوب على جبينها أنها خادمة لأي أحد في أي وقت؟. أراحَتْ كفًا فوق خصرها قائلة:

- غيرها بنفسك.

احتد الرجل:

- أمَّا خادمة قليلة «رِباية» صحيح.

انطلقتْ «حورية» كالسهم تمسك بخناق الرجل، تسحبه إلى خارج الغرفة وتلصق ظهره بالجدار.

- من تلك التي تسُبها يا هَلفُوت؟ أنا هنا نزيلة باللوكاندة مثلي مثلك يا دُهُول.

تطلَّب نزع أصابعها من ملابس الرجل جهدًا فائقًا من زوجته وأحد العاملين باللوكاندة. عادت إلى الغرفة قبل أن يصل طعام الفطور، وعندما سألها العمدة عنه صوَّبتْ نحوه نظرة ألجمتْ لسانه. عليه أن يعترف لنفسه أنه -وهو عمدة القرية الذي يهابه الجميع- أحيانًا يجفل من نظرات تلك الفتاة التي تمتزج في عروقها دماء غجرية بدماء مجنون!

أخَذَتْ ابنة العمدة تَتمسَّح فِي مَقام «السيدة زينب»، تتبرَّك به، تنذر النذور طلبًا للحمل. تأملتْ «حورية» معشر الناس من حولها، تجتاحها بينهم غُربة شديدة، لا تُشبه أيًّا منهم، ولا يشبهونها فِي شيء. رأَتْ الأبيض.. الخمري.. القمحي.. والأسمر، سمعَتْ منهم الدعاء.. الرجاء.. التوسل.. النواح.. والبكاء، أصوات متنوعة وهموم متفرقة، كلٌّ له رغبة ورهبة. تتصادم أجسادهم فِي الزحام، لكن لا يرى أحدهم الآخر، وكأن كل واحد منهم يعيش فِي كون موازٍ منفصل ينفرد فيه وحده بالمَقام.

يمر رجل يدَّعي أنه من شيعة «السيدة زينب»، يردد بصوت جهوري: «يا أم الكِرام يا سيدة»، يحمل ثعابين غير سامة، يُسلطها على وجهه، تلعقه؛ ينبهر الناس متوهِّمين أنه مُحصَّن من سمها لاتصاله بروح السيدة. وبينما كان الجميع يتوجَّهون بأنظارهم إلى المَقام، يتوسلون إلى روح السيدة المباركة لتتوسط لهم عند الله تلبيةً لحوائجهم، كانت عيناها تبحثان عن الله! رفعتْ رأسها وأسلَمَتْ عينيها البنيتين إلى زرقة السماء، تُخاطب رب العباد:

- كيف تُدير كل تلك الخيوط المعقدة دون أن يتفلَّتْ منها خيط واحد.. كيف؟! وإلى أين يؤدي خيطي أنا؟ ما الذي سأجده مُعلقًا فِي نهايته؟ يا الله.. أنا خائفة.. خائفة جدًا، لا يرُد القضاء إلا الدعاء، إن كان قدري أسود فبرحمتك ولطفك أزِح الغَمام وارفع عني شُؤم البلاء.

بعدما نهلَتْ ابنة العمدة من كَرامات المَقام توجهوا إلى وسط البلد، تجوَّلوا طويلًا بحنطور يجرُّه اثنان من الخيول البيضاء، حازَتْ بشدة

إعجاب «حورية»، حسسَّتْ فوق جسدها برقة وهي تُغالب حنينها إلى حمارها «رهوان». دخلوا متاجر وبوتيكات الملابس والأقمشة والأحذية، ودكاكين البخور والعطارة، تطلعتْ «حورية» إلى كل شيء بانبهار، بضائع متباينة الأنواع والألوان، تشترك في التواطؤ والإغواء.

لو رأتْ نساء القرية البضاعة الفخمة التي يبتاعها الناس من تلك الدكاكين، لرجَمْنَ «سعد» التاجر بالحجارة وسط القرية.

رأتْ «حورية» ورقة دعائية عن نوع صابون، مُعلَّقة على الواجهة الزجاجية لأحد الدَكاكين، كُتب فيها: «سعد زغلول هو زعيم المصريين.. ونابلسي سعد زغلول هو زعيم الصابون». استهجَنَتْ ذلك كثيرًا، هل يليق باسم الرجل أن يقترن بصابونة؟! ثم منحَتْ التاجر بعض الحق، ففي المُحصِّلة لكليهما مُهمة تنظيف الوَسَخ.

قفز قلبها فرحًا وهي تتطلع إلى واجهة متجر آخر، أمام سينما «ريفولي» بشارع فؤاد؛ علَّق صاحبه إعلانًا يطلب فيه فتاة للعمل براتب جنيهًا واحدًا في الأسبوع، هذا يعني أربعة جنيهات كاملة شهريًا! لن تعمل الشهر كاملًا، فقط أسبوع واحد وستتمكن من تدبر أمرها كي تصل إلى بيت «مخيمر»، ويؤمِّن لها العمل ومكان المبيت، لن يكون العمل صعبًا، بائعة في دُكَّان للقماش، هي لم تتخرج من المدارس الميري ولا حتى من المدارس الأهلية، لكن لا يحتاج البيع والشراء إلى شهادات، أليس كذلك؟

كل ما في الأمر أنها ستساعد الزبائن في الشراء، ولربما لا يعجبها حديث إحدى السيدات فتمسح بشعرها البلاط، أو تدس قلمًا في عين أحد الرجال إذا تجرَّأ على مغازلتها، أو تحرق شارب صاحب الدكَّان إذا

انتقصَ من أجرها مليمًا في نهاية الأسبوع، أمور طبيعية لا بد أن أصحاب الدكَاكين قد اعتادوا عليها!

صفَّقتْ بجزل طفولي فرِحة بسير خطتها المدهشة على النحو الأكمل، أثارتْ ريبة العمدة، فعاجلته بسرعة:

- رأيتُ قماشًا يهبل في هذا الدكَّان.

رمقها العمدة بحدة فلم تكترث، يكفيها أن تدخل الدكَّان لتسأل صاحبه أن يكتب لها العنوان كاملًا في ورقة؛ كي تتمكن من العودة إليه مرة أخرى. أخذت تلِح على ابنة العمدة للدخول إلى هذا الدكَّان بالذات، أغرتها بالقول:

- لم تشتري هدية لأمكِ، والله لتغضب عليكِ وتَسفَخكِ كَفًّا يجعل منكِ مسخوطًا من المساخيط.

لم تكد تفرح بنجاح مسعاها وهي تدس الورقة في جيب جلبابها حتى انغرس خنجر في صدرها؛ طفقتْ ابنة العمدة تتدلَّل على أبيها متعمدة -نكاية فيها- تُريه الأقمشة أشكال وألوان، تسأله مساعدتها على الاختيار بين حذاء وجلباب فيبتاع لها الحذاء والجلباب، تُخيِّره بين لونين فيبتاع لها ثلاثة ألوان. تدخل دُكَّانًا آخَر في شارع «عباس الأول»[1]، تبتاع اثنين من الصابون الشعبي المعطر «البشير»، وماء كولونيا باللافندر، وراديو «لوكسر» بالبطارية. تضحك بافتعال.. تتكئ على أبيها وتتعلق بذراعه.. ترمق بنظرات متشفية «حورية» الواقفة بزاوية كل متجر، غريبة حتى في متاجر المدَاسات!

(١) أصبح اسمه شارع «الملكة نازلي»، ثم رمسيس حاليًا.

ذكّرها ذراع العمدة الملتف حول كتف ابنته بأبيها الذي لم يستطع أن يكون لها أبًا طبيعيًا؛ ينفر من العناق إلا إذا أحس الخوف أو الخطر، فتتعمد حرق إصبعها بالزيت المغلي في مطبخ العمدة، ثم تركض إلى أبيها باكية، يفزع لألمها وبكائها؛ يحتويها بذراعه، ينفث الهواء في إصبعها فتراقبه بأعين باسمة. أو تُحدِث قطعًا في باطن كفها بالسكين، تبحث عنه في ساحة السوق، ثم تتعلق به وكأنه حكيمها الوحيد، يرى الدماء فينتفض، يزيلها بطرف ردائه، ثم يمسح بحنان على ظهرها.

أو ما يحدث لها بغير عمد منها، مثل اليوم الذي جلدها فيه العمدة فوق ظهرها بالخرطوم، إذ استغلّت حرث الفلاحين في أرضه، فأحدثَتْ بالمِجْراف حُفَرًا أعمق، وزرعتْ كل البط الذي يملكه العمدة، ثم ردمتْ فوقه التراب، وسقته الماء آملة أن تطرح الأرض الكثير من البط؛ يفيض عن حاجته ويمنحها بعضه، فتُطعمه لأبيها الذي يعشق البط!

ليلتها لازمها أبوها، يشاركها أنّاتها، ويمسح فوق جروحها بخرقة مبللة، لم يتركها، لم يخرج ليدندن موّاله ولا مرة واحدة تلك الليلة، فامتزج عندها الحب بالألم، لكي تكون سعيدة عليها أن تشعر بالألم. أولَتْ ابنة العمدة ظهرها، تخفي عنها دمعة كادت تفر من عينها، لحظات واستدارت تواجهها مرة أخرى بقسمات لا مبالية، بينما تنغرس أظافرها في لحم ذراعها وتدميه.

(((٢٥ يناير ١٩٥٢)))

بقي يومان فحسب على عودة العمدة إلى القرية، عليها خلال ثمانية وأربعين ساعة أن تبحث عن فرصة مناسبة للهرب، فكَّرَت في ذلك منذ الصباح، وحتى اللحظة التي تشاركت فيها مع ابنة العمدة المقعد الخلفي من الكاديلاك السوداء مساءً، في طريقهم إلى الحفل

حفل كبير في عوَّامة أحد البشوات الكبار، تلقَّى العمدة دعوة باسمه لحضوره، وذُكر فيها أن الدعوة موجهة أيضًا لابنته وخادمته. تعجَّب العمدة كثيرًا في بادئ الأمر، ثم بعد تفكير ضرب جبينه قائلًا:

- يا لسذاجتي! أولاد الذوات في مصر يحتاجون إلى خدمهم في الحفلات من أجل تلبية طلب، أو إحضار غَرَض، هذا الباشا رفيع المَقام حقًا، إلى درجة أن يوجه دعوة إلى الضيوف وخَدَمهم.

للعمدة علاقات واسعة في القاهرة، يعرف بشوات وبهوات وأبناء ذوات، لكنه لم يلتقِ قط وجهًا لوجه مع الباشا الكبير صاحب الحفل، وإن كان قد سمع أنه باشا رفيع المقام يتردد اسمه كثيرًا في القصور الملكية. لم يكن أساسًا مُرحِّبًا بأخذ ابنته معه إلى الحفل فضلًا عن خادمته، إلا أنه وبعد إلحاح كبير منها اضطر أخيرًا إلى الموافقة، لكن بشرط واحد: أن تبقى حبيسة إحدى الغرف داخل العوامة، لا يتبدَّى لها طرف طوال الحفل، قَبِلَتْ ابنته شرطه على مضض، وفقط كي لا ينهشها الملل، اضطرتْ إلى اصطحاب «حورية» معها.

بَدَتْ لها القاهرة في النهار كرئة سوداء، تختنق بدوّامات العوادِم والغبار، ينهشها سُعار الزحام ورائحة العرق، وفي الليل يحجُب الظلام والمصابيح الاصطناعية كل عَوَار، فتبدو جزيرة ساحرة، تتلألأ بحُسنٍ يُجبر العالم من حولها على الاختفاء.

النيل حول العوّامة ساكن يتلحَّف بعباءة داكنة، يرسل من بين مساماتها نسمات منعشة، ورائحة غريبة لم تعتدها حواس «حورية»، تُرى هل للبحر الرائحة ذاتها؟!

العوامة أضخم مما بلغ له خيال «حورية»، تحِفُّها من كل مكان أضواء ساحرة تخطف الأنظار، تنبعث من الداخل موسيقى هادئة. لم تتمكن من موضعها من رؤية أحد من الضيوف، فقط خادم هنا وسائق هناك. انحنى أحد الخدم باحترام لاستقبالهم، مال العمدة نحو أذنه وهمس له بشيء، فتبادل الخادم نظرة مع ثلاثتهم قبل أن يُشير إلى إحدى الغرف البعيدة عن قلب الصَخَب. تأمَّل العمدة المكان من حوله قائلًا في نفسه: «صحيح يا أولاد اللي يعيش ياما يشوف»، ثم حذَّرهما قبل أن يغلق الباب:

- واسم الله مَن تفكر في الخروج لأقطع قدمها وأعيدها إلى القرية بعُكّاز مثل شحّاتين السيدة.

***

لم تمض أكثر من ثلاثين دقيقة وقد أخذ الفضول ينهش صدر «حورية»، تُرى كيف يسير الحفل في الخارج؟

لكن شيئًا آخر كان ينهش ابنة العمدة.. الجوع، ألحَّتْ على «حورية»:

- أحضري لي الطعام، واسم الله مِتُّ جوعًا.

ثم مسحتْ فوق بطنها مستطردة:

- قد يكون صغيري قد بدأ في التكون داخل بطني الآن، هو أيضًا يحتاج إلى الطعام.

لم تتمكن «حورية» من ردع نفسها! قالت بخبث ضاحكة:

- أو لعلَّه انتفاخ بسبب كل هذا الطعام الذي تناولتيه على الغداء، هل أُحضر لكِ حكيمًا من الحقل يعطيك شَربَة تضيع الانتفاخ؟

قابلَتْ ابنة العمدة خبثًا بخبث:

- ليس انتفاخًا، قبلتْ «السيدة زينب» توسلاتي وسأوفي بالنذرين معًا.

تذكرتْ «حورية» نذرها الآخر الذي تقصده.. أن تموت مشتعلة بالنيران! جابهتها دون أن تند عنها لمحة خوف:

- لا أحد يجسر على إصابتي بشيء ليس مكتوبًا في صحيفة أقداري.

- الأقدار تتغير يا بنت المجنون، وقدركِ تغير منذ أن نذرتُ نذري للسيدة.

لم تكترث «حورية» بالرد، جلست في مكانها لنصف ساعة أخرى لم تتوقف خلالها ابنة العمدة عن دفع «حورية» للخروج لجلب الطعام. تخاف بطش العمدة إذا سمع بخروجها، لكنها لم تعد تحتمل البقاء بين جدران أربعة مع ابنته الثرثارة محدثة النعمة، لحظة أخرى وستعيدها إلى قريتها دون رأس!

لم تجد خادمًا قريبًا، أغلَب الخدم هناك في قاعة الاحتفال بمقدمة العوامة، وبعضهم في الخارج ينتظر إشارة استدعاء من سيده ليُلبّي له حاجته. وقفتْ عند السور الجانبي في عكس اتجاه الريح، تتعرف إلى النيل، لم يكن جميلًا ولا شاعريًا، لماذا يقيم هؤلاء القوم احتفالاتهم في المساء؟ هل هي لوثة تصيب الأغنياء؟! كيف يمكنها الاستمتاع بالنيل في هذا الظلام الدامس؟! كيف يُمكن لعينيها أن تتحسس كسراته، وترفل في درجات ألوانه؟!

على شُطئان الفضول تجوّلتْ، حتى وصلت إلى قاعة الاحتفال، يفصلها عنها إطار نافذة بغير زجاج، اتسعت عيناها دهشة.. مَن هؤلاء البشر؟! ليس حفلًا بل مهرجان من الأقنعة، أحدهم يرتدي ملابس قرصان، بعصبة عين سوداء، يشبه الصورة التي رأتها لقرصان في إحدى القصص المصوّرة التي كان يملكها أبوها، وإحداهن ترتدي شعرًا طويلًا به عشرات الضفائر الصغيرة، وآخر يضع قناعًا ذهبيًا يخرج منه ريش ملون كما لو كان طاووسًا، يشترك الجميع في ارتداء قناع يخفي نصف الوجه، به فتحتان مكان العينين، تبدو فيه كل العيون متشابهات، رجال ونساء، شباب وشيوخ. أي نوع من الاحتفال هذا؟ بل أي نوع من الجنون؟!

دلفتْ إلى القاعة متوخية الحظر؛ مخافة أن تجذب أنظار العمدة، هدفها طاولة الطعام، تناولتْ صحنًا فارغًا ووقفت حائرة، تجوس عيناها في أصناف الطعام، تتابع المدعوين من طرف خفي، لسبب ما بدا الجو مشحونًا بالتوتر والاضطراب، لم يبد لها حفلًا عاديًا على الإطلاق، غاب عنه المرح والانطلاق، رغم أنها لم يسبق لها أن حضرت واحدًا من قبل.

فجأة، اقترب منها أحد المدعوين:

- هاللو.. ما هذا التنكر؟ فلاحة.. مُدهش.. شيء أوريجينال.

جالَ بأنظاره فيها بغير احتشام، وما إن هبط إلى مداسها البالي حتى ذمّ شفتيه:

- ألم تبالغي قليلاً؟! هذا الشيء الذي ترتدينه في قدميكِ بشع جدًا، هل كنتِ مضطرة إلى ترك قدميكِ مُهملتين بهذا الشكل من أجل إتقان دور القروية الساذجة؟!

امتلأ جوفها بالسَخَط، مَن هذا القرد؟! وكيف يجرؤ على الحديث معها على هذا النحو؟!

همَّتْ بتلقينه درسًا لا ينساه، لم يقطع عليها اندفاعها صوبه سوى اقتراب مدعو آخر، إذ قال موجهًا حديثه إلى الشاب:

- هل تُضايق هذه الفتاة؟

رفع الشاب كفيه في استسلام، يُلقي على «حورية» نظرة مفادها أن «الجنازة حارة والميت كلب»، ثم ابتعد على الفور.

قال الذي بقَى:

- هل أزعجكِ؟

ارتدتْ كبريائها بحُسنٍ وأناقة، أجابتْه:

- الذي يزعجني أنهشه بأسناني.

ابتسم الرجل، لم تتمكن من رؤية إفادة عينيه السوداوين، لكنها رأت اتساع ابتسامته، أسمر، جميل الطلّة، بعينيه شقاوة ذكّرتها بـ «مرزوق»، لكنه حتمًا أكثر أناقة ودماثة، شعره أسود مصفف بعناية، أسنانه ناصعة البياض، ما تستطيع أن تراه من وجهه يشي لها أن به من الوسامة الكثير.

اضطربت نبضات قلبها بشدة، اشتعلت وجنتاها وكأن ريحًا ساخنة هبَّت من منتصف الصحراء، وداهمت القاعة دون أن يتأثر بها سواها.

تلعثمت على غير عادتها:

- «تعيش».

ثم استدركتْ بلهجة أهل البَندر:

- شكرًا.

- لماذا؟

- لأنك أنقذتني من إزعاج هذا القرد.

اتسعتْ ابتسامته:

- قلتِ إن الذي يزعجك تنهشينه بأسنانك، لم أفعل شيئًا إذن.

أحبَّتْ ابتسامته، وتبسُّطه في الحديث معها، لم يتعال عليها مثل بعض الأفندية الذين التقتْ بهم حتى الآن، هذا الذي طالَبها بتغيير ملاءته في اللوكاندة، وذاك الذي دعَس قدمها عند مقام السيدة ولم يكلِّف نفسه كلمة اعتذار، أفاقت على يده الممدودة نحوها وهو يقدِّم لها نفسه مُتفكِّهًا:

- لو أنك لن تعتبري حديثي معك إزعاجًا يستوجب النهش.. فأكون ممنونًا أن أقدِّم لكِ نفسي، أنا «فؤاد».. ثلاثة وعشرون عامًا.. حاصل على دبلوم المدرسة العُليا، وأعمل في ديوان الأشغال، وأنتِ؟

تركَتْ كفه معلقًا في الهواء، إذ لم تعتد مصافحة الرجال، ظنَّتْ أنها قد أغضبته، إلا إنه أعادَ يده ببساطة إلى جواره، قالت بارتباك لم تعتده:

- عاشت الأسامي، أنا «حُرة».. ابنة عمدة قرية «دنشواي».

لم تعرف كيف تفوَّهَتْ بهذه الكذبة بمثل هذه البساطة وهي التي لم تعتد الكذب وتعتبره من الموبقات! كل ما تعرفه أن هذا الأفندي مهما كان دمث الخُلُق، إلا أنه لن يستمر في النظر إليها بتلك النظرة الودِّية إن علم أنها خادمة مثل أولئك الذين ينتظرون بأدب الكلاب الجائعة بالخارج حتى ينتهي أسيادهم من تناول الطعام ثم يلقون إليهم بفضلاته، يبدو أن تأثير القاهرة عليها قاهر بحق، يدفعها لتغيير خصالها وعاداتها شيئًا فشيئًا.

سحب الصحن الذي تعصره بكفيها، ثم توجه إلى طاولة الطعام مستطردًا:

- أظن أنكِ لم تتناولي الطعام بعد.

راقبته وهو يتخيّر لها من الطعام الشهي، ومن الحلوى اللذيذة، ثم يعيد لها الصحن متخمًا بما لذ وطاب.

- شكرًا.

اتسعتْ ابتسامته:

- ألا تلاحظين أنكِ لا تقولين سوى «تِعيش وشكرًا»؟

وضعتْ فوق كلماتها قناعًا:

- إنها المرة الأولى التي يُحضرني فيها أبويا العمدة معه إلى مثل هذه الحفلات.

أليس حفلًا تنكريًا، لماذا لا تشاركهم الاحتفال وترتدي قناعًا هي الأخرى، ما الضير في ذلك؟! أضافت المزيد من مساحيق التنكر:

- أبويا العمدة يخاف عليَّ كثيرًا، لكنه أحضرني معه هذه المرة لأنه لا يرفض لي طلبًا.

قال مبتهجًا:

- لكنكِ بنت جدعة لا خوف عليكِ.

استعذَبَتْ كلماته، وسعدتْ بها، أضاف بأسف:

- الحفل على وشك الانتهاء، لم نستطع التحدث مطولًا، لكن حفلًا آخر سيقيمه الباشا في الغد، حفل خاص جدًا، سأكون أحد المدعوين إليه، وأتمنى أن تأتي أنتِ أيضًا.

قفز قلبها طربًا، لو تمت دعوة العمدة إلى حفل الغد بالتأكيد ستصر ابنته على الحضور، وستصطحبها معها، تُرى هل ستتمكن من ارتداء فستان مدام «أرامينتا» في حفل الغد؟

اغتمَّتْ بغتة، ليلة الغد لن تكون في اللوكاندة مع العمدة وابنته، ستكون قد هربَتْ منهما وفتحتْ طريقها الجديد فوق وجه العاصمة. قطع أفكارها اقتحام أحد المدعوين لخلوتهما الصغيرة، يبدو أنه أحد الكبار، تفوح منه الهيبة والوقار، يحمل كأسًا من سائل شفاف، هتف قائلًا موجهًا حديثه إلى «فؤاد»:

- هذه الكارثة سيكون لها تبعات وخيمة، الجميع يُجزم بذلك.

هزَّ «فؤاد» كتفيه مُجيبًا باحترام كبير أكَّد لها أنه رجل ذو مكانة رفيعة:

- لا أعرف يا «جلال» باشا، أظن سيادتكَ على حق، فالغضب يشتعل في قلوب الجميع.

طالتْ صحبتهما قليلًا، دون أن تفقه «حورية» محور حديثهما، يبدو أن «فؤاد» يعرف الكثيرين من البشوات وأولاد الذوات، بعد انصراف الرجل تطلعتْ إليه متسائلة بفضول:

- من هذا الرجل؟ هل هو الباشا صاحب الحفل؟ هل هناك مشكلة في عملك؟

- مشكلة في عملي؟!

- كنت تتحدث معه عن شيء أغضبكما.

حدجها بنظرة استغراب قائلًا:

- ألا تعرفين ماذا حدث اليوم؟

هزّت كتفيها بحيرة، فاستطرد:

- أين تعيشين؟! اشتبكَ البوليس اليوم قبل غروب الشمس مع القوات البريطانية، ورفضوا تسليم أسلحتهم وإخلاء مبنى محافظة الإسماعيلية، قُتِل وأصيب الكثيرون، وفي النهاية استولت القوات البريطانية بدباباتها السنتوريون الثقيلة وعرباتها المصفحة على مبنى المحافظة، دارت خلال ساعتين معركة غير متساوية القوة، شيء مؤسف، كل هذه الدماء المصرية المهدورة شيء مؤسف.

لم تفهم «حورية» تحديدًا مدى تأثير ذلك عليها، لو فشل البريطانيون في انتزاع مبنى المحافظة من أيدي البوليس هل كانت ستصل إلى «مخيمر» بشكل أسرع؟ هل كانت ستمضي الليلة مع والدها بدلًا من حديثها الزائف مع «فؤاد» في حفل تنكري سخيف؟ هل سيعود الحمام إلى برج الحمام المتهدم؟ كانت إجابات تلك الأسئلة هي نفسها في الحالتين؛ لذلك لم تتمكن من أن تفهم كيف لهذا الحدث أن يوصَف بالكارثي! كارثي لمن؟!

- ثم أنه ليس الباشا صاحب الحفل.

- أين هو إذن؟ أشِر نحوه بإصبعكَ، عندي فضول لأعرفه.

أطلق «فؤاد» ضحكة مرحة لا سخرية فيها:

- الباشا الكبير صاحب الحفل لا يحضر الحفلات التي ينظمها، لا يتواجد سوى في الحفلات الخاصة فحسب.. الخاصة جدًا.

- من هو هذا الباشا الذي ينظّم حفلات لا يحضرها؟ أقصد ما اسمه؟

- «كاظم باشا البارودي».

لصدى الاسم في نفسها وقع غريب! أشار «فؤاد» إلى صحنها:

- لماذا لا تتناولين طعامكِ؟

أضافتْ المزيد من المساحيق:

- لستُ جائعة.

نظر إليها مُطوَّلًا، ليته ينزع عن وجهه هذا القناع السخيف لتتمكن من رؤية عينيه بوضوح، وترجمة نظراته.

قال لها ببسمة رائقة:

- يبدو أنكِ تخجلي من تناول الطعام أمام الناس، أمي أيضًا كانت تخجل مثلك، وتكره مثل هذه الحفلات.

هل سيعاملها هذا الرجل الوسيم المهذب بنفس الاحترام إن علم أنها خادمة العمدة وليست ابنته؟ لم تستطع منع مرارة الحسرة من أن تملأ جوفها، وتغشى عينيها بسحابة داكنة، لماذا لا تكون ابنة العمدة حقًا؟ لماذا لا يتبادلان الأدوار ولو ليومٍ واحد؟ بقيتْ أمنيتها المستحيلة حبيسة أصداف الحياة القاسية.

مرَّت بجوار سور العوامة أثناء عودتها إلى ابنة العمدة التي تنتظرها، لعله الظلام أو عقلها الشارد هو ما دفعها للاصطدام بقوة برجل ظهر لها من العدم؛ انسكب الطعام ملطخًا ملابسهما معًا، سقط الصحن أرضًا صحبه صوت تهشم قوي. اشتعلتْ عيناها غضبًا؛ رفعت رأسها لتجابه المتعوس الذي أفقدها عشاء الليلة، لكن بصرها ارتدَّ خاسئًا، وتسارعت خفقات قلبها، أخفى ظلام الليل أغلب ملامحه، وترك الضوء الساقط على عينيه الفرصة لـ «حورية» لتدرك لونهما، لون صادم لم تره سوى مرة واحدة في عيون إحدى القطط، كانت تُطعمها سرًا بفضلات صحون الإفطار خلف شونة الدواب، لكنها لم يسبق لها أن رأت إنسانًا ذا عيون زرقاء!

يومها أخبرتها الخالة «بهانة» أن الذئاب عند ولادتها يكون لها عيون زرقاء، ثم تتحول إلى اللون الذهبي. همَّتْ باستكمال سيرها، تحرك قاطعًا طريقها، وأمرها:

- أولًا نظفي ما تسببتِ فيه من فوضى.

طافتْ بهيئته ثلاث، لا يرتدي قناعًا، ولا بذلة رسمية مثل باقي المدعوين، فقط قميصًا بسيطًا أبيض اللون، مفتوح عنقه، مطوي إلى منتصف ساعديه، وبنطالًا قماشيًا داكنًا، إنه أحد الخدم إذن. نبَتَ العناد بصدرها:

- نظفه أنت، ألستَ خادمًا؟ هذا عملك أنت.

قطع طريقها ثانية، كرر أمره بقسوة أشد:

- لن أسمح لكِ بالمغادرة قبل أن تقومي بالتنظيف.

نشَبَ الخوف بقلبها، لم يسبق لها أن أشعَرها أحد بهذا الخوف، حتى العمدة بجلالة قدره لم تخشاه بهذا الشكل. فقط لو يشيح بوجهه، أو يخفي لون عينيه المخيف لاستطاعت أن تكون أكثر ثباتًا، لا، ليس لون عينيه فحسب هو سبب تلك القشعريرة التي اجتاحتها، بل صوته كذلك، وكأنه قادم من بئر سحيق، بئر لم يرتو منه بشر من قبل. لن تنظف، ستتشبَّثُ بعنادها ولن تنظف.

- لن أفعل.

لم تنتبه إلى جريان الكلمة على لسانها إلا بعد أن فارقتْ فمها، أضحتْ عيناه داكنة أكثر، هل يُهيَّأ لها أم أن ريحًا عاصفة قد هبَّتْ منهما لتصفع وجهها، اهتزتْ خوفًا.. واهتزتْ العوامة.. واهتز النيل.. واهتزتْ السماء.. وتساقطتْ منها بعض النجمات فباتتْ الليلة أشد ظلامًا.

ما الذي يحدث؟!

هل تفقد عقلها؟!

لم يُنقذها من هذا الجنون سوى قدوم العمدة، لأول مرة تبتهج لمرأى وجهه المكفهر، مكَّنها من أن تنسل هاربة دون أن يمنعها الرجل ذو العيون الذئبية، وقبل أن تختفي تمامًا عن أنظارهما ألقتْ خلفها نظرة قلقة، لتجدهما يتحدثان سويًا، تُرى هل يشتكيها للعمدة؟! ليشتكيها، ليفعل ما يحلو له، لا فارق عندها، فغدًا ستتوجه إلى دُكَّان الأقمشة في شارع فؤاد أمام سينما «ريفولي»، وستحصل على الوظيفة التي أعلنوا عنها، غدًا ستهرب من اللوكاندة إلى غير رجعة.

في اللوكاندة تحالَف النوم ضدها تلك الليلة، شلَّ أطرافها وألقاها بين براثن كابوس مخيف.

أصوات صراخ.. وصحون تتهشم.. وقوات تحاصر برج الحمام المتهدم تطالبها بتسليم الجدار، بينما أبوها ينشد مواله في الخارج:

الـــــــــدم في إيديكـــــــم والظلـــــم كاسـيكم

اللعنـة هاتجيكـم في وسـطيكم وبعديكـم ولاد وعيـال

رفضتْ الاستسلام، فأشعلوا النيران في الجدار، حاولتْ الهرب لكن ظهرها التصق به بغير حبال، الجدار يسخن، الدخان يخنقها، الرماد يتساقط من السماء فوقها، وفك الظلام يتسع لينهش لحمها، بينما حمامة كبيرة بعيون زرقاء تقترب منها شيئًا فشيئًا. لا تدري إن قدِمَتْ في حرب أم في سلام!

((٢٦ يناير ١٩٥٢))

نفضَّ صباح اليوم التالي يديه من الأحداث المهمة، صباح ممل ككل صباحاتها في القرية، غادر العمدة الغرفة باكرًا لإتمام أعماله قبل العودة إلى قريته فجر الغد. لم يبق أمامها سوى أربع وعشرين ساعة فحسب للهرب، فليتم الأمر في وضح النهار إذن، بعد الظهر هي لحظة الصفر، ستطير الحمامة أخيرًا بحثًا عن سماء الحرية.

مرَّتْ الساعات رويدًا، وكأنها تستمهلها لإعادة التفكير، لكن «حورية» لن تحيد قيد أنملة عن خطتها. بدا كل شيء طبيعيًا، وباعثًا على التفاؤل، حتى تصاعدتْ حركات مضطربة في أرجاء اللوكاندة، صوت الراديو المرتفع.. الهمسات.. فالصراخ.. فالنواح، بدا أن شيئًا غير طبيعي يحدث بالخارج! همَّتْ بمغادرة الغرفة، فتوعَّدتها ابنة العمدة:

- والله لأخبرن آبا العمدة.

لم تعرِ لها «حورية» أدنى انتباه، كان تركيزها منصبًّا على مصدر تلك الفوضى، خرجت إلى مكتب الاستقبال ففوجئَتْ أن الفوضى قد عمَّتْ الشارع كله، بل العاصمة بأسرها، لقد احترقتْ القاهرة! بادَرتْ صاحبة اللوكاندة متسائلة:

- مدام «أرامينتا».. ماذا حدث؟!

أجابتها المرأة في ذعر:

- مصيبة حبيبي.. حريق.. نار وسط البلد.. دور سينما.. بارات.. كباريهات.. فنادق.. مطاعم.. قهاوي.. متاجر، تم نهبها وإشعال النيران فيها، يقولون إن الحريق التهم شارع فؤاد، وقُتِل عدد من الأجانب داخل نادي سباق الخيل.

سألتها «حورية» ملتاعة:

- مَن ابن الحرام الذي فعل ذلك؟

- لا أعرف.. لا أحد يعرف!

أعادت «حورية» كلمات مدام «أرامينتا» في رأسها، توقفتْ عند قولها: «شارع فؤاد». متجر الأقمشة.. فرصتها في الهرب.. حُلمها، اليوم لم تحترق القاهرة فحسب، طالتْ النيران حُلمها كذلك. بكَتْ كما لم تبكِ من قبل، حينًا تأثرًا على من فقدوا أرواحهم وممتلكاتهم، وأحايين أخرى على حُلمها الذي وُئِد في مهده، افترشتْ أرض الغرفة، تصنع حولها سرادق عزاء، وتستقبل التعازي في فقيدها.. الحلم.

تبلَّدَتْ سماء القاهرة بسُحُب كأكفان تُساق إلى مثواها الأخير، أجزَم الجميع -حتى أولئك الذين يسكنون في أماكن بعيدة لم تطلها النيران- أنهم يشتمُّوا في الهواء رائحة احتراق. الجميع يلتف حول المذياع، في غرفة الاستقبال باللوكاندة، يستمعون إلى بيان «النحاس باشا» وقد أصدَرَ الأحكام العُرفية، أعربَ عن حزنه لتلك الفاجعة، واتهم العناصر المخربة والخونة بالتسلل داخل صفوف الأمة والإتيان بتلك الجريمة والمؤامرة السياسية البشعة. لا شيء مما قاله أزال علامات الاستفهام التي حطَّتْ على رؤوس الجميع مثل غراب البين، بل زادت علامات الاستفهام أكثر.. مَن الفاعل؟ وكيف؟ ولماذا؟ ومتى ستنطفئ تلك النيران التي تشتعل في صدور الجميع، والتي لا تستطيع مياه النيل بأسرها أن تُطفئها؟!

إلا نيران «حورية»، انطفأتْ سريعًا؛ أفاقتْ من صدمتها.. هدمَتْ السرادق.. ومزَّقتْ الكفَن! لا وقت لديها لتجرع مرارة الأحزان، ليس لديها رفاهية الاكتئاب، ستبحث عن خطة بديلة، عليها الآن الهرب من اللوكاندة قبل قدوم العمدة.

وكأن العمدة كانت ينتظر تلك اللحظة ليقرر العودة، تطلَّعتْ «حورية» إليه متبرمة، ما الذي أتى به الآن؟! أمرَ الفتاتين:

- لموا أغراضكما، سنرحل في الحال.

علَتْ الصدمة وجه «حورية»، اهتاجتْ تقول:

- يا ندامة! كيف؟ ألم تقل يا عمدة إننا سنعود فجر الغد؟

- ألا تدرين ما حدث يا بنت الفجرية! البلد تحترق، الله أعلم ما الذي سيحدث، لعل هؤلاء المخربين الأوباش يصلون إلى اللوكاندة ويحرقونها هي الأخرى، هيا.. سنرحل في الحال.

تلك فرصتها الأخير، لن تفقدها مهما كلّفها الأمر، أعلَنَتْ عليه العصيان، ومزَّقَتْ راية الاستسلام:

- لن أرحل معكما.

تطلّع إليها كلًا من العمدة وابنته بعدم فهم، هل يجرؤ أحد على مخالفة أوامر العمدة؟

تساءَل بحدة:

- ماذا تقولين؟

نَسَفَتْ طريق العودة، قالت بإصرار:

- لن أعود إلى القرية، سأبقى هنا في القاهرة.

العمدة الذي أمضى يومًا سيئًا مشحونًا بالخوف والغضب؛ لن يتحمل ذبابة تقف فوق وجهه، فما باله بابنة المجنون العنيدة كعناد حمارها، وكما فعل بحمارها الذي رفض السير ذات يوم، خلع نعله وانهال على «حورية» ضربًا مُبرحًا ذات اليمين وذات الشمال، وحين تقطعَّ مداسه وآلمته يده التقط نبوته وأخذ يطعنها به غير مُفرّق بين ظهر وبطن.. قدم ووجه. كردة فعل غريزية دفعته «حورية» عنها بكل ما تملك من قوة، بيدين مشحونتين بقوافل الخوف والغضب والقهر والألم، دفعته وكأنها تُبعد عنها كل شرور الدنيا. مرَّتْ لحظات من الصمت، ثم ارتفع صراخ ابنة العمدة يشق السماء، لطمتْ خدَّها، مزَّقتْ رداءها، خضَّبتْ كفيها بدماء أبيها، ولطَّخَتْ شعرها. المشهد يمر أمام عيني «حورية» ببطء شديد، بغير صوت، فقط لقطات مُتقطعة، العمدة مُمدد أرضًا، لا تند عنه حركة واحدة، يتفجَّر من رأسه ينبوع من الدماء، اخترق الطرف المدبب للفراش رأسه السميك مثل المقوَرَة، وأفرغ ما بداخلها من أنسجة ودماء!

تحامَلتْ على نفسها لتتمكن من الوقوف، تُهيمن فوق جثة العمدة برأسه المصبوغة بلون دموي مخيف. عادت الصورة تتحرك بسرعتها الطبيعية، وكذلك الصوت، ابنة العمدة تصيح:

- الحقوا يا ناس.. بنت المجنون قتلت أبويا العمدة.. قاتلة.. سيعلقكِ عشماوي من حبل المشنقة.. سأنزع كبدكِ بأظافري.. الحقوا يا خلق.. أبويا «سايح» في دمه.

«حورية» التي ارتعد قلبها فزعًا لم تفكر مرتين، فتحت الدولاب وأخرجَتْ «بؤجتها»، ثم انسلَّتْ هاربة قبل أن تهجم جحافل النزلاء والعاملين باللوكاندة على الغرفة، والذين أخَّرهم التفافهم حول المذياع في غرفة الصالون عن سماع صرخات ابنة العمدة في الحال. هرولتْ إلى السلم، ومنه إلى غرفة الاستقبال، فَالشارع، ثم وقفتْ لاهثة الأنفاس تلتفتُ يُمنة ويُسرة بجوار عمود الإضاءة الوحيد، تحاول أن تقرر في أي الاتجاهين عليها أن تسير. توقفتْ أمامها بغتة سيارة شيفروليه خضراء، نزل سائقها، ودار حول السيارة حتى أصبح في مواجهتها، أين رأت هذا الرجل من قبل؟!

قال دون إلقاء تحية:

- الباشا ينتظركِ.. تفضلي.

حاولتْ أن تتذكر أي باشا قد مرَّ في حياتها من قبل لكنها فشلت، أفكارها كلها تسبح في إثم الجريمة التي أقدَمَتْ عليها منذ لحظات، بصعوبة حاولَتْ التركيز، يقول: «الباشا ينتظركِ».. هتفتْ بغتة بفرحة غامرة، بأمل مُحتَضَر يتشبَّثُ بالحياة:

- «مخيمر»؟! هل حصل «مخيمر» على البشوية؟! هل ينتظرني؟

ضاقت حدقتا الرجل، ثم قال بتروٍ، وكأنه يملك الوقت كله:

- «كاظم باشا البارودي».

أشاحتْ «حورية» بكفها مُغاضبة، تقول بامتعاض وهي تهِم بالسير مُبتعدة:

- لا أعرف أحدًا بهذا الاسم.

أوقفها الرجل بأن قطع طريقها، وأصرَّ بنفاد صبر:

- بل تعرفينه، كنتِ في حفلته بالأمس.

الآن فحسب تذكرتْ أين رأت هذا الوجه من قبل، هاتين العينين، انتبهتْ الآن إلى لونهما الأزرق المخيف، إنه الرجل ذو عيني الذئاب، باتت ملامحه الآن أكثر وضوحًا تحت إضاءة مصباح الشارع. التفتتْ خلفها تنظر إلى مدخل اللوكانة بتوتر بالغ، في أي لحظة سيخرج أحدهم هاتفًا بالرجل ذي العيون الذئبية: «أمسك بها، إنها قاتلة».

حثَّها الرجل بحدة:

- يجب أن نُسرع في التحرك، سيتم فرض حظر التجول بعد ساعتين بسبب حادثة الحريق اليوم.

الأحداث تسير بسرعة لا تكفي لالتقاط أنفاسها، لم يبق أمامها أي خيار، يجب أن تختفي من أمام اللوكاندة في الحال، ويبدو أن المَهرب الوحيد هو الذهاب مع هذا الرجل، حتى وإن كانت وِجهته هي الجحيم ذاته. قطعَتْ يداها على عقلها حبل التفكير، امتدتْ لتفتح الباب المجاوِر لمقعد السائق، وأمرتْ الرجل:

- الآن.. انطلق الآن!

بينما السيارة تبتعد، راقبتْ من المرآة الجانبية مدخل اللوكاندة، أحدهم يخرج.. يلوّح بيده.. يشير يُمنة ويسرة.. ويصيح:

- يا عسكري.. يا شاويييش.

يداها ترتجفان خوفًا، وقلبها يعتصر ألمًا، هل صارت قاتلة؟!

كلا، هذا ليس قتلًا، بل دفاعًا عن النفس، لن تشعر بالذنب، يداها نظيفتان، وضميرها برئ من دمه، لم تقتله، مات قضاءً وقدرًا، تعرف ذلك.. تثق به، لكن.. هل سيرى الناس ذلك؟ البوليس؟ النيابة؟ القاضي؟ عشماوي؟ انتبهتْ إلى جلبابها الأسود، وتمزقه في مواضع عدة، لم تكن في حالة مناسبة للذهاب إلى حفل، خاصة أنها ستلتقي هناك بـ «فؤاد» الذي يظنها ابنة عُمدة، يجب أن تكون في أبهى صورة، ستجعله يصدق أنها ابنة عُمدة حقًا، بل وبنت ذوات، وستطلب منه مُساعدتها في العثور على بيت «مخيمر»، ستستمر في ارتداء قناعها التنكري حتى تحصل على ما تريد. تحدّث إليها الرجل المخيف الجالس بجوارها ببضع كلمات، لكنها لم تسمع أيًا منها، قالت على استحياء:

- أريد أن أبدّل ملابسي أولًا، وأن أشتري حذاء، هل يمكنكَ أن تعطيني عشرة قروش وأردها لك في الحفل؟

لم ينطق، لا بقبول ولا برفض، اغتاظتْ كثيرًا.

توقف بالسيارة أمام «بوتيك» نسائي كبير يضم قسمًا للملابس وآخر للأحذية. وفي غرفة تبديل الملابس ارتدتْ بحماس الفستان الأزرق الذي أهدتها إياه مدام «أرامينتا»، بدا ساحرًا عليها، لكنه لا يتناسب مع غطاء رأسها، نزعته، وأطلقتْ العنان لشعرها الأسود المتمرد. فاض

خجلها، ذراعان عاريتان، وساقان باديتان من أسفل الركبة حتى أخمص قدميها. حدجتها عين الذئب بنظرة ساخرة، أحسَّتْ بالإهانة، بالضعف، بالغضب.

تطلعت للمرآة مرة أخرى، كلا، إنها تبدو جميلة، مدهشة، فقط لو تمكَّنتْ من وأد الخجل! نساء القاهرة لا يخجلن، رأت الهوانم منهن يسرن في الشوارع والأسواق برؤوس مكشوفة وأذرع عارية، إن أرادتْ أن تعيش بينهن، وألا يستخففن بها فعليها أن تحذو حذوهن. انتقَتْ حذاءً أسود ثمنه تسعون قرشًا، اشترته بإصرار رغم أنه باهظ الثمن! بكعب مرتفع، كتمتْ عن مرافقها ألم التواء كاحلها عدة مرات في طريقها القصير إلى السيارة. انطلق بالسيارة بسرعة معتدلة، سائق ماهر هو، أفضل من خفير العمدة الذي أوصلهم إلى القاهرة. جفَّ ريقها، طلبتْ منه شَربة ماء، فأوقف السيارة أمام إحدى القهاوي، وأحضر لها كوبًا، كل ذلك دون أن يتفوَّه بكلمة! حينما خرجت السيارة من العُمران، أصبح كَف الطريق أكثر وعورة، وعروق الليل أشد ظلامًا؛ غابت عنه مصابيح السماء والأرض. حمقاء يا «حورية»، نسيتِ أن تسأليه السؤال الأهَم:

- إلى أين تأخذني؟

تمهَّل قبل أن يجيب:

- أخبرتكِ بذلك، أنتِ مدعوة إلى الحفل.

يظنها ابنة العمدة إذن، يبدو أنه لم يشتكها إلى العمدة بالأمس، لو اشتكاها لعرف أنها خادمته وليست ابنته صاحبة الدعوة، لكن لماذا لم تُوجَّه الدعوة هذه المرة إلى العمدة أيضًا؟ لم يسأل عنه الرجل وكأن حضوره لا يهم، أمر غريب! تُرى هل لـ «فؤاد» يدٌ في ذلك؟

عاد الصمت ليحط بينهما كضيف ثقيل، لكنها طردته بعناد:

- سألتكَ إلى أين تأخذني؟

- إلى القصر؟

تساءلتْ بريبة:

- أي قصر؟

- القصر الأسود!

(((الراوي)))

- لا أستطيع أن أكمل تلك الحكاية، لن أكملها، اعفوني من ذلك.

اضطربت أغصان شجرة «الصفصاف» وهي تقول بلوعة:

- أرجوك يا زمن أكمل الحكاية، لا يمكنك أن تتوقف، أرجوك.

عنَّفته شجرة «الخشخاش» مُستاءة:

- ما كان عليكَ أن تعبث بفضولنا منذ البداية إن كنت سترفض بعنادٍ إتمامها.

أما شجرة «الكافور» الحانية فقد انتبهتْ إلى أن الزمن ليس عنيدًا، بل خائفًا! مسحتْ بفرعها العفي على غصن حديث الولادة بالقرب من ساقها، ثم بادرته:

- ممَّ تخاف؟ أخبرنا، لماذا لا تستطيع أن تُكمل الحكاية؟

لم يحر جوابًا؛ عضَّ الغضب شجرة «الخشخاش»:

- هذا ليس من الإنصاف في شيء، حسنًا، لا تقص علينا بقية حكايتها، سنعرفها بدونك على أي حال.

تساءلت شجرة «الصفصاف» في حيرة:

- من أين سنعرفها إن لم يروِها لنا الزمن؟

أجابتها شجرة «الخشخاش» بينما أغصانها الصغيرة تتمايل زهوًا:

- أحمل فوق رأسي عشًا لحمامتين تعارفتا فتآلفتا عند فرعي الشرقي الجميل، تعرفن أن هذا الفرع قوي وأوراقه في غاية النضرة والجمال.

صدَّقتْ على مقولتها شجرة «الصفصاف»، وقالت حالمة:

- نعم، إنه جميل للغاية، ليتَ عندي فرعًا بجماله.

أردفتْ شجرة «الخشخاش»:

- ذَكر الحمام كان يعيش في جرن حمام بالعِزبة، ماتت وليفته القديمة، ومن بعدها الرجل الذي كان يعتني به، أما وليفته الجديدة

سكتت للحظة لتتأكد من أن الجميع يصغي لها بانتباه، ثم بشَّرتهم:

- أما وليفته الجديدة كانت تعيش فوق شجرة رمان كبيرة في حديقة القصر وتطل مباشرة على غرفة صاحبها.

شهقت شجرة «الصفصاف» بدهشة:

- أتعنين القصر الأسود؟

- نعم هو، أرأيتن؟ لا نحتاج إلى الزمن لنعرف بقية الحكاية، فما إن تنتهي الحمامتان من أعمالهما الشاقة في بناء العش الجديد فوق رأسي حتى أطلب من الحمامة الأنثى أن تخبرني ما حدث لتلك الفتاة في القصر.

احتدَّ الزمن في ضيق:

- خطأ، لن تعرفي بقية الحكاية بهذا الشكل، فكل حكاية لها ألف وجه، تستطيع الحمامة أن تخبركِ عن الوجه الذي رأته فحسب، وطالما بقية الأوجه مجهولة فلن تعرفن الحكاية على حقيقتها أبدًا، لا أحد يعرف كل أوجه الحكايات إلا أنا فحسب؛ لأنني وحدي أملك من العيون الكثيرة ما لا يملكه سواي.

هنا تدخَّلتْ نبتة «أقحوان» كانت تنصت للجميع دون أن تتحدث، أقدم نبتة في الغابة، زهرها الأبيض ذو القلوب الصفراء يتراقص في أحضان الرياح بدلال، يُطلَق عليها ابنة الشمس أو شجرة الحكمة، لم تبلغ الأشجار طولًا، لكنها فاقتهن ذكاءً:

- لن نصر عليكَ يا زمن، ما دمتَ غير راغب في استكمال الحكاية إذن لا تكملها، هيا يا أشجار الغابة.. سلِّمن فروعكن وأغصانكن وأوراقكن إلى الرياح الآن، ولا تتحدثن كثيرًا كي لا يضر ذلك بنضارتكن في الصباح.

تمدد حبل الصمت لثلاث دقائق فحسب، ثم قطعه الزمن بضيق:

- وماذا يفترض بي أن أصنع الآن؟ أنا الزمن، كيف أمضي الوقت دون أن أقص الحكايات، هذا ممل جدًا.

اقترحتْ عليه نبتة «الأقحوان» غير مبالية:

- قُصَّها على غيرنا، فأشجار الغابة كثيرة.

- لكن لا أحد منهم قريب من الحفرة التي سقطتْ فيها الفتاة مثل قربكن منها، ثم أنا لا أحب أن أعيد الحكاية من أولها.

بادرته بتحدٍ:

- أكمِلها إذن!

عادت شجرة «الكافور» تسأله كأمٍ ودود:

- ممَّ تخاف؟ هيا.. أخبرنا.

تعثَّرتْ أنفاسه وهو يقول:

- لا بد أنها غاضبة الآن، تتوعَّدهم، تنتظرهم لتشهَد عليهم، العقاب سيكون رهيبًا، رهيبًا جدًا.

حارَتْ شجرة «الخشخاش»؛ فسألته:

- مَن التي تقصدها يا زمن؟!

عزَم الزمن أمره، وأخبرهن همسًا:

- تلك المُعلَّقة بالعَرش وتتحدث بلسان فصيح!

عمَّ الوجوم، وساد سكون مشوب بالقلق، تساءل فرع «الكافور» الوليد بينما وريقاته تهتز باضطراب:

- عَرش الرحمن؟

سبَّحتْ جميع الأشجار:

- سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله..

تساقطتْ بضع ورقات مُرتجفة من الفرع الصغير،

ربتتْ الشجرة الأم على رأسه، وهدَّأتْ من روعه:

- لا تخَف يا صغيري، لسنا بشرًا، العقاب هو جزاء بني آدم فحسب.

ثم ألقت نظرة مطولة على الفتاة الفاقدة الوعي داخل الحفرة، قالت نبتة «الأقحوان» بحِنكة:

- ما دامتْ تلك المُعلَّقة بالعَرش غير راضية.. إذن في حكايتكَ شخص ملعون، أليس كذلك يا زمن؟

أجابها بأسفٍ بالغ:

- نعم.. إنه صاحب القصر.

شهقت شجرة «الكافور» بلوعة.

لم تستطع شجرة «الصفصاف» أن تصُدَّ سيلان فضولها أكثر:

- أرجوك، أخبرنا يا زمن.. متى علمتْ الفتاة أن صاحب القصر رجل ملعون؟ وهل ستطالها اللعنة هي الأخرى؟

لم يدُم تردد الزمن سوى لحظات، ثم قال:

- حسنًا، فلأُكمل الحكاية!

(((القصر الأسود)))

قصر مهيب هو، ألقى بالرهبة في نفسها، نحَتَ الليل حوله هالة من القدسية، وكأنها تخط أعتاب مكان عريق لا يطأه إلا الملوك والأميرات، يستلزم طقوسًا خاصة في السير، والكلام، وحتى النظرات. رغم الظلام، تبدَّتْ لها الحديقة المحيطة به مهيبة، كالقصر ذاته، لم تتبين أنواع الشجر، وفصائل النباتات، إلا شجرة رمان ضخمة أمالتْ برأسها صوب إحدى النوافذ المغلقة بالطابق الثاني. يتألَّف القصر من ثلاثة طوابق تُحصيها العين، تشتعل الأضواء وتنير الطابق الأول فحسب، بينما يذوب الليل في الطابق الأخير، وينسكب القمر بداخله، حتى لكأنها حين تدخل القصر ستجد القمر مُتربعًا فوق أحد المقاعد لاستقبالها.

توقف مرافقها عند الباب العظيم للقصر، بنقوشه البارزة المُطعَّمة بالذهب. حين نظرتْ إليه مستفهمة، قال وهو يدور على أعقابه مغادرًا:

- انتهتْ مهمتي، غير مسموح لي بدخول القصر.

طعنت عيناها المندهشتان ظهره بحدة، لماذا يُمنع خادِم الباشا من دخول القصر؟ أم تُراه ليس خادمه، من يكون إذن؟!

ذاب جسده في الظلام، دون أن تعثر على جواب مُقنع. ازدردتْ ريقها بصعوبة وهي تخطو خطواتها الأولى داخل القصر، أقبَلَ لاستقبالها رجل طويل القامة، أنيق الهيئة، يرتدي بذلة سوداء، وقميصًا أبيض، وطربوشًا

أحمر، تختفي أصابعه داخل قفاز مخملي أبيض قصير. انحنى قليلًا ثم أشار لها:

- أهلًا وسهلًا «حرة» هانم، أنا «أنيس» كبير الخدم، تفضلي بالدخول، الجميع في انتظارك بالداخل.

تعاظَمَتْ دهشتها؛ لماذا ألحق اسمها بلقب «هانم»؟ حتى وإن كان يظنها ابنة العمدة، فتلك المتعوسة المقشفة لم تكن يومًا من ذوات الألقاب، ثم مَن «الجميع» الذين ينتظرونها بالداخل؟!

مرَّتْ أثناء سيرها المُترنِّح أمام مرآة كبيرة مُذهبة؛ تساءَلَتْ: «مَن تلك التي تنظر إليها في المرآة؟!»، عينان متسعتان، وجه يعلوه الانبهار، شعر متعرج يحيط وجهها في تمرُّد. ضمَّتْ الشال الأزرق المزين أطرافه باللؤلؤ حول ذراعيها العاريتين بإحكام؛ لئلا تفضح جروحًا أحدثتها أظافرها طولًا وعرضًا. يلتصق فستانها بجسدها وكأن جلدها تحوَّل إلى أطياف من اللون الأزرق، منفوش من أسفل حزام الوسط، كيف تترك نفسها عُرضة لكل عين ناهبة؟ لم تكن معتادة على ذلك، لكنها قررتْ أن تعتاد، حتى وإن لَزَم الأمر أن تُغيِّر جلدها، فالبديل لكل ذلك أن تعود إلى اللوكاندة، فيُسلِّمونها إلى أقرب كراكون.

تبًا لتلك الكعوب العالية، كيف ترتديها بنات البندر بسهولة أثناء السير؟! لو تُرِك الأمر لها لخلعته وتجوَّلتْ حافية، أو ارتدتْ خُفَّها القديم الذي أحضرته معها في «بؤجتها». يا له من منظر عجيب! تلبس كالهوانم، وبدلًا من أن تُمسك بيدها حقيبة أنيقة، تحمل «بؤجة «ملابسها! تشوَّهَتْ هَويَّتها، صارتْ بين بين، لا هي هانم ولا هي فلاحة!

تشتتْ عقلها كذاك وهي تُعمِل عينيها في الأسقف الشاهقة، والنَجَف الذي يبرق وكأنه عقود من الماس، الأثاث كأنه قطع من الذهب والفضة

حوَّلتها الحرارة إلى مقاعد وآرائك وطاولات، وعلى الأرض سجاد عجمي مُطرّز بالحرير. ما إن دخلتْ غرفة الصالون حتى استقبلتها الأضواء المُبهرة للنجفة النحاسية الكبيرة، المتدلية بسلسلة حديدية جنزيرية من سقف الصالون؛ غَشَيَتْ بصرها، وهي المعتادة على الضوء الخافتْ للمبة الجاز في دوَّار العمدة، وضوء القمر في عشتها. لم تتبين وجه «فؤاد» بين الجَمع، هو الذي تعرَّف عليها؛ هبَّ واقفًا، أقبل عليها ببشاشة:

- «حرة».. غير ممكن، شكلكِ تغيّر كثيرًا عن الأمس!

كادتْ أن تعيد على مسامعه نفس عبارته، هو أيضًا تبدَّل كثيرًا عن الأمس، أضفى القناع التنكري عليه الكثير من السحر والجاذبية، أما الآن بدا أقل وسامة، وأكثر واقعية، شاب عادي، يعلو شفته العلوية شارب دقيق، لكن ابتسامته لم تكن عادية، دافئة، ووِدِّية؛ بادلته بمثلها:

- سعيدة يا «فؤاد».

- سعيدة مبارك، تفضلي.

أشار لها بالجلوس على المقعد المجاور له، هدأ اضطرابها، وسكن خوفها، الآن بات باستطاعتها أن تتأمل الوجوه الحاضرة بوضوح، وكذلك تفاصيل الغرفة من حولها. غرفة كبيرة ضمت أثاثًا كلاسيكيًا محفورًا ومُطعَّمًا بورق الذهب، بدا كآثار زخر بها قصر أحد الملوك في الماضي، وعلى أحد الجدران عُلِّقت سجادة طويلة بألوان ترابية تُشكِّل لوحة فنية لافتة، على كلا جانبيها طاولة محفورة من خشب الزان المُطعَّم بقشور اللوز، متموضع فوقها تحف اتخذت أشكالًا فنية متباينة، ازدان جدار آخر بمرآة ضخمة ذات إطار خشبي بني اللون مشرب بالحمرة زاد من مساحة الغرفة ببعد آخر.

سِواها و«فؤاد»، ضمَّتْ حجرة الصالون خمسة مدعويين آخرين، يا لها من حفلة صغيرة! فتاة وأربعة رجال!

التقط «فؤاد» خيط فضولها، ثم سحبه بحبور:

- لا أعرف الفتاة، لكنني تحدثت قليلًا مع «أنيس» كبير الخدم قبل قدومكِ وعرفتُ هويَّة الأربعة رجال، انظري إلى ذاك الشاب النحيل الذي يجلس على يسارِك ويقضم أظافره، اسمه «حسين» في الحادي والعشرين من عمره، يعيش في حواري «شبرا»، له سبع شقيقات، يعمل «كوالِنجي» يصنع الأقفال، هكذا يتكسَّب لقمة عيشه ويصرف على أخواته السبع، وواضح من ملابسه الرثة أنه لا يجني الكثير، رغم أن كبير الخدم يقول إن أبيه رجل «كسِّيب» يعمل عَرضحالجي.

فلمَّا ظهر على «حورية» عدم الفهم؛ فسَّر لها:

- كاتب عمومي، يرتدي أكمامًا زائدة فوق قميصه، يجلس أمام المحاكم والمصالح الحكومية، يكتب للناس الشكاوى والمُكاتبات الرسمية ويضع عليها الدمغات مقابل أجر.

انتقلتْ أنظارها إلى رجل بدين يرتدي جلبابًا أبيض بحزام يشد وسطه العريض، تُغطي رأسه طاقية شبكية، في وجهه المستدير شارب أسود عريض مَبروم الحَواف، في نظراته حِدة، يجلس في المقعد المواجه لها، أخرج من جيب جلبابه علبة معدنية بها كمية من «النشوق»[1]، استنشقه بعمق، ثم أطلقَ سلسلة من العطسات المتتابعة؛ يخفف بها احتقان جيوبه الأنفية.

---

(١) تبغ مسحوق غير مُحترَق، يُستنشَق بالأنف.

أردف «فؤاد» مُشيرًا إليه من طرف خفي:

- أما ذاك فاسمه المَعلِّم «شحاتة»، يعمل جزارًا، في الرابعة والعشرين.

- لكنه يبدو أكبر بكثير، في منتصف الثلاثينات ربما!

- هذا الضخامة جسده، ورث مهنة الجزارة أبًا عن جد، لديه عمارتان ملك في العتبة، فتوة شهير في حي الحسينية، له أخ على خلاف كبير معه، يُقال إن المَعلِّم «شحاتة» فقأ عين أخيه بسكين الذبح في شجار، ومن يومها لا ينظر أحدهما في وجه الآخر، هذا ما أخبرني به «أنيس». ارتجف قلبها، أي مدعوون هؤلاء! لا يجمع بينهم قاسم مشترك، هذا ما بدا لها من الوهلة الأولى، لكنها انتظرتْ أن تعرف عن بقية المدعوين قبل أن تُصدر حكمها الأخير.

استطرد «فؤاد»:

- أما الرجل ذو الشارب الكث الذي يجلس بجواره وتبدو عليه «العنجهية».. اسمه «محفوظ»، ضابط في كادر البوليس.

سقط قلبها أرضًا، ضابط في البوليس! قُضي عليها، إذا بلغ علمه أنها قتلت العمدة فإنها لن تخرج من الحفل إلا وهي مُكبَّلة بالأصفاد، ومُساقَة إلى أقرب كراكون.

استطرد «فؤاد» بأريحية، إذ لم ينتبه لما أصابها من اضطراب:

- يعمل في نقطة عزبة «العبيط» المحيطة بالقصر، عمره ثلاثة وعشرون، ليس له إخوة أو أخوات.

التقتْ أعينهما عند الرجل الغريب الذي يقف بجوار النافذة، بمعزل عن الجميع، يُدخِّن غليونًا سميكًا، يخالط الشيب رأسه، ربما يكون من

أرباب الخمسين، إلا أن جسده صغير، وقامته قصيرة جدًا، تساءَلَتْ بفضول، وهي تشير صوبه برأسها:

- وهذا؟

- البرِنس «رستم»، ابن «كاظم باشا البارودي».

- ابن الباشا صاحب القصر؟!

ملامحه الدقيقة، وجسده الصغير، وشعره المُرتَّب بعناية أوحوا لـ «حورية» أنه دمية متحركة وليس إنسانًا طبيعيًا، جَفَلَتْ حين سمعتْ صوت عواء ذئب آتٍ من الخارج، من بعيد، هل تتوهَّم؟! مالتْ على أذن «فؤاد»:

- هل سمعتَ ذلك؟

- سمعتُ ماذا؟

- لا شيء.

تتوهَّم إذن! يا لها من حفلة عجيبة! ابنة عمدة -على اعتبار ما يجب أن تكون- وموظف في مصلحة الأشغال، وكوالنجي، وجزار، وضابط في البوليس، وبرنس ابن باشا له جسد الأطفال، ووجوم الشباب، وهشاشة الشيوخ! وفتاة لا يعرف عنها أحد شيئًا، تبدو مثلهم في بداية العشرينات، ترتدي فستانًا قصيرًا زاهي الألوان، أظافرها مطلية بعناية، تعلو رأسها باروكة صفراء، لا يتناسب لونها مع بشرتها الخمرية، مُصففَة في قبة عالية وكأنها مِئذنة، وقبعة بلون الزرع، وتُدخِّن بشراهة مدفئة في إحدى ليالي «طوبة»!

كيف تقاطعتْ طُرُق تلك المجموعة المتباينة في القصر الأسود؟! ماذا يريد «كاظم باشا البارودي» منهم؟!

- «كاظم باشا البارودي» انتقل إلى رحمة الله، لكن هذا الخبر بقي سرًّا!

في تلك الليلة، لم يكن ذلك أكثر ما نطق به محامي الباشا غرابة، كل حديث الرجل الستيني وقع موقع العَجَب على أسماعهم. أنصتَ الجميع إليه بعد أن أكمَل دائرتهم؛ احتل المقعد الشاغر حول الصالون ليصير عددهم ثمانية أفراد، يطوف عليهم كبير الخدم بفناجين الشاي الخَزَف، والقهوة التركية. أخذ رشفة كبيرة من فنجانه، ثم استطرد:

- حدث ذلك منذ ثلاثة أسابيع.

خرج صوت الفتاة ناعمًا كطبقات الحرير التي تنسدل فوق جسد «حورية»:

- لكن الباشا أقام العديد من الحفلات خلال الفترة الماضية، سمعتُ بها، والجميع تحدث عن ذلك؛ لأنه كان حدثًا عجيبًا إذ لم يكن «كاظم باشا البارودي» يحب إقامة الحفلات.

- حفلات لم يحضرها قط!

قالها «فؤاد».

التفتتْ ذات الشعر الأصفر المستعار صوبه بحركة ناعمة تهز رأسها في تفهُّم. اجتاح الضيق أنفاس «حورية» على أثر البريق الذي كسا عيني «فؤاد» وهو يتطلع إلى المرأة حين قدَّمتْ له نفسها دون حاجة:

- بالمناسبة أنا «درية» هانم.. أرملة «زكي بك الصاوي».. صاحب أكبر مناحل عسل في الإسكندرية.

- تشرفنا يا «درية» هانم.

تأدَّب «فؤاد» في الحديث مع المرأة دفع بصوت «حورية» أخيرًا ليغادر حنجرتها بحدة:

- لا أفهم لماذا نحن هنا؟ هذه الحفلة أشبه بالسيرك، هذا إن كان هناك حفلة من الأساس.

رمَتْ «درية» هانم «حورية» ببسمة متهكمة، ونفحة من دخان سيجارتها، وهي تنقل نظراتها بين «حورية» و«بؤجتها»؛ اضطرتْ «حورية» إلى أن تُزيحها تحت المقعد بقدمها، في غفلة من نظرات المرأة الوقحة. عقَّب الضابط «محفوظ» بحدة مماثلة، وإن بدا انفعاله أكبر مما يتحمله الموقف:

- أضعتم وقتي بما فيه الكفاية، قل لي ماذا نفعل هنا؟ وكيف وصلتني دعوة مُذيَّلة بتوقيع رجل ميت؟! أنا لن أسكت على ذلك، سيُحاسَب المخطئ حسابًا عسيرًا، هذا تزوير.

نهض باندفاع ليُكمل صورته المسرحية، أسكته محامي الباشا في صرامة:

- اجلس من فضلك، ستفهم كل شيء بعد قليل، وبعدها لك مُطلق الحرية في البقاء أو المغادرة.

تلكَّأ «محفوظ» لكنه امتثل أخيرًا وجلس يصغي في تبرُّم.

استطرد محامي الباشا:

- والآن فلأكمل حديثي.. توفي «كاظم باشا البارودي» وترك كل أملاكه من مال وعقارات وأسهم في البورصة إلى ابنه الذكر الوحيد.. البرنس «رستم».

تعالى صوت «شحاتة» الجزار بحنق:

- يا الله يا ولي الصابرين! عائلة يرث فيها الابن أباه، قل لي إذن.. ماذا نفعل نحن هنا في هذا «المدعوق» يا متر؟!

- اصبر يا سي «شحاتة».

- الصبر من عندك يا رب، أسرع الله يكرمك يا متر، «حاكم» أنا خُلقي ضيق.

استطرد محامي الباشا واضعًا ساقًا فوق الأخرى:

- ترك الباشا كل شيء لابنه الذكر الوحيد كما قلتُ، في وصية مكتوبة ومُسجلة، ما عدا هذا القصر، كَتب الباشا وصية خاصة جدًا تتضمن هذا القصر بالذات.

تفرَّس في وجوه الحاضرين قبل أن يستطرد:

- هذا القصر سيصير ملكًا لأحد أحفاده.. حفيد واحد فحسب.

اندفع «فؤاد» بعدما احترقتْ حبال صبره، يحتد على الرجل الذي وجده يشبه إلى حد عجيب كاريكاتير «المصري أفندي» الذي يُستخدم للتعليق على الآراء السياسية والاقتصادية، وأحيانًا في الإعلانات التُجارية، بقِصر قامته، وطربوشه، ونظارته السميكة، والمِسبَحة في يده:

- ما زلتُ لا أفهم.. ما علاقتنا بهذه الوصية لتقرأها علينا يا متر؟

تزامنَتْ كلماته مع دقات الساعة الكبيرة، التي تتوسط أحد الجدران الزاخرة بعدة لوحات ذات إطارات خشبية سميكة، لرجال ونساء تشي ملامحهم ونظراتهم وهيئاتهم بانتمائهم لطبقة أرستقراطية عريقة، تتوسطها صورة ضخمة لـ «كاظم باشا البارودي» بوجهه المُتجهِّم، ونظراته الحادة. تفرَّس محامي الباشا فيهم ثانية قبل أن يُلقي بقنبلة الليلة لتنفجر في منتصف القصر:

- أنتم الستة أحفاد لـ «كاظم باشا البارودي»، واحد منكم سيرث هذا القصر!

هو رجل حُر، لم يفهم أبدًا كيف لإنسان ذي عقل رشيد أن يُخضع عقله وقلبه وجوارحه لبني آدم مثله، لا يُطمئَنّ إلى عدله وحكمته، ويمكنه أن يصير طاغية متى أراد، ربما لهذا السبب لم يدع البرنس «رستم» أبدًا بـ «سيدي»، وفضَّل عليها «جَنَاب البرنس»، حتى أنه يدعو «كاظم» باشا نفسه بـ «سعادة الباشا»، وليس «سيدي الباشا». الدرع الذي أحاط به كرامته أوغَر صدور خُدَّام القصر، وعلى رأسهم «أنيس» كبير الخدم، فالعلاقة بينهما مُضطربة على الدوام.

خاصة أن لا أحد يعرف دوره الحقيقي في القصر؛ يقوم بمتابعة مواعيد دواء «كاظم» باشا مع أنه ليس حكيمًا أو تمرجيًّا، ويطبخ أحيانًا وهو ليس بطباخ، يقود سيارة البرنس وهو ليس بسائق، يحرس بوابة القصر في الليالي الشتوية الباردة وهو ليس بخفير، ويساعد ناظر عزبة «العبيط» في تنظيم حساباتها وشرحها لـ «كاظم» باشا وهو ليس بمُحاسِب!

منذ أن مات الباشا مُنِعَ من دخول القصر! لا يسمح له البرنس إلا بدخول المطبخ عبر بابه الخلفي المُفضي إلى الحديقة، ولا أحد يعلم سبب منعه، أو حتى سبب عدم طرد البرنس له إن كان لا يرغب في وجوده من الأساس.

لا أحد يعرف بأي صفة يشيرون إلى «عادل»، سوى أنه «عادل» أفندي الحاضر على الدوام منذ اليوم الذي اشتعلت فيه غرفة الباشا في الطابق الثاني بالقصر، واقتحمها «عادل» بشجاعة لإنقاذه، منذ ذلك الحين

لا يمر يوم دون رؤيته في الأرجاء، يعيش مع أبويه في بيت لهما بعِزبة «العبيط» المحيطة بالقصر.

- «عادل» يا بني.. لا تذهب إلى هذا القصر الأسود.

التفتَ «عادل» إلى الرجل القعيد المُستلقي فوق فراشه البسيط، في بيت من حجرتين وباحة يرعى فيها ثلاثة خرفان استعدادًا لبيعها للمُضحين في عيد الأضحى. يطل البيت على عشرين قيراط أرض ورثتها أمه عن أجدادها. بيع عشرة قراريط منهم للإيفاء بمصروفاته المدرسية.

ترك «عادل» ما بيده من ملابس ومُتعلّقات شخصية، ثم دنا منه راجيًا:

- لا تطلب مني ذلك يا أبي، اطلب أي شيء إلا ذلك.

ارتعدتْ يد الأب التي أكلها الكَلَف، تمسح فوق رأس ولده بلوعة، وكأنه التَماس الأخير:

- أخاف أن يقضي عليكَ هذا القصر الملعون.

انتفختْ أوداج «عادل»، انتصبتْ هامته بما يليق برجل قد ألَفَ غُبار المَعارك:

- لن أستسلم، لن أتوقف الآن وقد بدا كل شيء قاب قوسين أو أدنَى من النهاية.

- أخشى النهايات يا بُني؛ لأنها لا تكون دومًا عادلة.

لاحت بسمة صغيرة فوق ثغره وهو يقول بلسان أثقله التعب:

- ألهذا السبب سمَّيتني «عادل»؟ إذن فلتضع ثقتك في ذاك الذي منحته اسمه، سأكون ميزان عدل، وسأصنع بنفسي نهاية كما يليق بالنهايات أن تكون.

اغتمَّ أبوه وكأن سنوات أُضيفتْ إلى عمره:

- العدل سيف بتَّار يا بُني، يجرحك من حيث لا تشعر، أذكى الناس وأحكمهم قد يتلبَّثْ عليهم الحق بالباطل، دومًا ستجد المتربصين بكَ والساعين في كسر ميزان عدلكَ وإعلاء عدلهم الخاص، لكن ماذا أقول لكَ؟ ستفعل ما برأسكَ سواء سمحتُ لكَ أم لم أسمح.

تجنَّبَ «عادل» حديثًا مُرهِقًا لكليهما بأن رفع كف أبيه ولثَّم ظاهرها، ثم عاد إلى حقيبته الجلدية يستكمل إعدادها. داهمتْ أمه الغرفة، قلَّبتْ عينيها في محتويات الحقيبة، ثم هتفت بحُرقة:

- سترحل يا «عادل»، إلى أين يا بُني؟

كم مرة رأته يعد حقيبته للذهاب إلى سكنه القريب من الجامعة، فلا يعود إلا الجمعة من كل أسبوع، يتمزَّق قلبها على الطرقات ذهابًا وإيابًا، لكن ذهابه هذه المرة أشد قسوة من كل الذهابات السابقة. استمر «عادل» في إعداد الحقيبة دون أن يجسر على الحديث، أراد الفرار سريعًا كي لا يُخمِّر الشوق لحظات الوداع المؤلمة فيُمددها أكثر. التجأتْ أمه إلى أبيه ترجوه:

- قل شيئًا، أعده عن تلك الأفكار التي تدور في رأسه، «عادل» لا يستطيع محاربة البرنس «رستم» ولا أحفاد الباشا، وحتى إن استطاع أن يتغلب عليهم جميعًا فلن يُفلتَ من يدي «الأعوَر»، إن علم «الأعوَر» بما يدور في رأس «عادل» سيقتله، سيقضي على ولدي، أستسمح بذلك؟

ثقلتْ عينا أبيه بالعبرات، تَغلَّب البكاء على صوت أمه، ارتفعت نهنهاتها؛ تحاول أن تكسر بها إرادة «عادل» وتهزم عناده، لكن إرادته كانتْ جبلًا لا يعرف الانحناء. دنا منها مُشفقًا، قبَّل رأسها مودِّعًا:

- فُوتّك بعافية يا نِينة.

صوت الديوك الرومية على سطح البيت يشق سكون الليل، أتُشاطر أصحاب البيت مخاوفهم؟ أمسكتْ أمه بتلابيبه، تقبض على قميصه بيد معروقة قضمها العمل اليومي في الغيط:

- لن أسمح لك بالذهاب، لم أحرم نفسي من اللقمة وأضعها في فمكَ وأعلمكَ وأدخلكَ المدارس الميري والجامعة كي تقضي على حياتكَ يا ضنَى قلبي.

- أرجوكِ يا نِينة.. لا تصعبي الأمر أكثر، كوني راضية عني كي يرتاح قلبي.. أرجوكِ.

سألته بلهفة وهي العارفة بالجواب، تحتال كي تستبقيه ثوانٍ أُخَر:

- متى ستعود؟

رفع «عادل» ذراع الحقيبة فوق كتفه، وقال بعزم لا ينكسر:

- لن أعود إلا بعد أن آخذ ديَّة كل قطرة دماء سالتْ، وكل روح زُهقت بغير ذنب، النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ [1]

كررتْ يائسة:

(١) آية ٤٥، سورة المائدة.

- متى ستعود؟

أطلق زفيرًا حارًا، وأجابها وهو يُثبِّتُ طربوشه الأحمر فوق رأسه:

- ستُغلَق بوابة القصر ليلة الغد ولن تُفتَح مرة أخرى قبل مرور ستة أيام.. أو...

- أو ماذا؟

- أو يظهر المفتاح!

يحب «عادل» السير في عِزبة «العبيط» ليلًا، تحت ألَق النجوم، الطرق خالية، والبيوت مغلقة على من فيها، العِزبة بأشجارها ونخيلها تشاطره الحياة، كما لو أن البشرية قد فُنِيَتْ وبقى هو ساكن الأرض الأوحد. يستطيع أن يمضي حياته كلها في العزبة، دون أن يشتاق ولو للحظة واحدة للأيام التي قضاها وسط القاهرة، أيام دراسته الجامعية بهندسة الرَي، فقط يتمنى لو كان بإمكانه إصلاح الطرق الخَرِبة، كي يتمكن العَجَزَة والمرضَى من السير بسهولة، أو إيجاد حل لمشكلة الصرف الذي يفيض على البيوت كل فترة، أو إعادة بناء صف المدرسة الوحيد بالعِزبة، ليستوعب تلاميذ أكثر. فقط يتمنى لو أمكنه إزالة الجهل عن عقول أهل العزبة، لو فتحوا له قلوبهم وتركوه يرسم فيها دروب الحق والخير، لو سمحوا له أن يُحرِّك غضبهم من رقاده، فأكثر ما يزعجه في خصال أهل العزبة أنهم لا يغضبون!

أخذَ يتهادَى في خطواته، مرَّ على بيت «براخا» اليهودية، فأسرع الخُطَى، وكعادة المرأة شعرتْ بمن يسير أمام دارها! فتحت الباب بغتة، ورفعتْ صوتها بالسؤال:

- ماذا تفعل هنا في هذه الساعة المتأخرة يا ابن «مبروكة»؟

كم يضيق ذرعًا بأنف المرأة الذي تدسه في كل ما لا يعنيها، جلبابها الأصفر الباهت المُرصَّع بخرزات زجاجية، كِردان الذهب المُعلَّق في رقبتها، شعرها الأبيض الكثيف المعقود في ضفيرة طويلة تُغطي ظهرها، رائحتها الثقيلة، كل شيء فيها يثير نفوره:

- لا شأن لكِ يا امرأة، أغلقي الباب وعودي للداخل.

استشاطتْ غضبًا:

- لن ترَى خيرًا أبدًا يا ملعون، أنتم حثالة نجَّستْ تراب عِزبتنا، هيا.. ارحل عن هنا ولا تعد مرة أخرى، وخذ معكَ أباكَ الكسيح وأمكَ التي تبيع السمن والجُبن والحليب.

تلك عيبة في عُرف الفلاحات، أن تبيع إحداهن ما تجود به بهائمها من حليب، ودجاجاتها من بيض، وما تصنعه بأيديها من سمن وأجبان، لكن أمه اضطرتْ للتعاون مع بقرتها الوحيدة، ودجاجاتها البلدي كي يظل البيت قائمًا. أزاح «عادل» حقيبته أرضًا، ثم اندفع صوب «براخا» اليهودية والنار تتأجج في عينيه؛ انكمشتْ المرأة كما لو أن ماء الحياة تبخَّر من خلاياها، باغَتها:

- لم تحل بنا النجاسة إلا بعد أن وطأتْ عائلتكِ أرض العزبة، لكنني سأنظِّفها منكم ومن كل سلالتكم، هذا عهدٌ عليّ بذلك!

قَبَضَ على باب دارها، ثم أغلقه بقوة.

حرَّكتْ كلمات أمه بواعث الشكوك الكامنة في نفسه، هل حقًا لا يستطيع مجابهة البرنس وأحفاد الباشا؟ هل سيتمكن من التغلب على «الأعوَر» الذي نسجَ بأفعاله أساطير مرعبة تطرد النوم من عيون أهل العزبة، وتَعْلَق في ذاكرتهم؟ كم عاثتْ سلاسة «الأعور» في العزبة فسادًا؟! أذلّوا كبيرها، وحطّموا صغيرها، ومزّقوا أرواح من أبدَى عصيانًا أو تمردًا، هل عليه أن يقلق على حياته؟ هل عليه أن يتراجع؟ أثناء ما كان يُفكّر في كل ذلك لم تتوقف قدماه عن السعي في اتجاه القصر، جسده أجَابَه إذن، نطقتْ بها جُل جوارحه: لن يستسلم، لن يتراجع.

عبَرَ السياج الذي يفصل بين العزبة والغابة المحيطة بحديقة القصر، وما إن توغَّلَ في الغابة حتى قفز ذئب رمادي ضخم فوق عنقه وأسقطه أرضًا. برقتْ عيناه الذهبيتان في الظلام فبدت كمصباحين مُسلَّطين على وجهه، حكَّ فمه في صدر «عادل» بشراسة. بوغِتَ «عادل» بالمفاجأة، حاول إبعاد وجه الذئب عنه بصعوبة قائلًا:

- أنا أيضًا اشتقتُ إليكَ، لكن توقف عن ذلك.. دعني أنهض.

داعب «عادل» عنق الذئب؛ غاصَتْ أصابعه في فرائه السميك:

- هل افتقدتني إلى هذا الحد؟ أعلم أنني انشغلتُ عنكَ في الأيام الماضية، لكنني سأعوِّضكَ عن ذلك بوجبة شهية.

رافقه الذئب الرمادي في سيره، وكلما مرَّا على غيره من الذئاب، وأبدى أحدهم رغبة في مهاجمة «عادل»، أطلق الذئب الرمادي المرافق له عواءً قصيرًا؛ فيتقهقر باقي الذئاب المتعطشة للفتك إلى الوراء، ويسمحون لهما بالمرور. وصلا إلى كوخ خشبي فوق ربوة تفصل الغابة عن حديقة القصر، أنزل «عادل» حقيبته عن كتفه، أدخلها الكوخ، ثم

طفق يجمع الحطب، ويشعل فيه نيرانًا للتدفئة. مسح فوق رأس الذئب الرمادي، أطعمه من يده مباشرة، آمِنًا مكر أنيابه، حدَّثه ببشاشة:

- لا يمكن هزيمة رجل تمكَّن من ترويض ذئب، أليس كذلك؟

ومن بين نوافذ الطابق الثاني كانت نافذة وحيدة مُضاء مصباحها، تقف فيها الفتاة القروية ذات الفستان الأزرق، أطال «عادل» النظر إليها، ثم عاد ليتحدث إلى الذئب:

- تُرى هل نبدأ بها أم نؤخرها إلى نهاية الحفل؟ لدينا ستة أيام طويلة للاحتفال!

تحركَتْ «حورية» صوب نافذة غرفتها، أسبَلَ الليل رداءه على حديقة القصر؛ فلم تتبين معالمها، لكنها تخيَّلتها في غاية الابهار. على امتداد البصر رأتْ أشجارًا سامقة تطل على الحديقة بتحفز، كأنها خفر يحرسون الحديقة ليلًا، خُيِّل لها أنها تتحرك يُمنة ويُسرة، تتبادل الأحاديث مثلما كان الخفر يتسامرون أثناء حراستهم لدوَّار العمدة.

العمدة! هل عادت ابنته إلى الدوَّار؟ هل أعطت البوليس مواصفاتها؟ هل يبحثون عنها في كل حارة وزقاق؟ بالطبع فعلت ويفعلون.

سرت قشعريرة في جسدها، بردًا وخوفًا، التقطتْ الشال الأزرق وغطَّتْ به ذراعيها، لم يكفها؛ فتحتْ بؤجتها وأخرجت جلبابها القديم تتلحَّف به.

عندما تعود ابنة العمدة إلى القرية لدفن العمدة سيعلم الجميع بفعلتها، سيلوك كل بيت حكايتها قبل شروق الشمس، ابنة الغجرية

والمجنون صارت قاتلة. كيف ستتمكن من العودة إلى القرية لأخذ أبيها إذن؟ ألن تُعانقه مرة أخرى.. تشتَم رائحته.. تغسل قدميه بالماء المالح.. تداوي جراحه.. تسابقه عند شجرة تمر حنة.. تسبح معه في الترعة.. تُقشِّر له القصب من أرض «الباز» وتضعه في فمه؟ ألن تناديه «آبا» مرة أخرى؟ هل بُتِر ساقها إلى الأبد؟

ماذا عليها أن تفعل الآن؟

لا حل أمامها سوى أن تستمر في التظاهر بأنها ابنة العمدة. غدًا سيقرأ عليهم محامي الباشا الوصية كاملة، سيخبرهم مَن مِن أحفاد «كاظم» باشا سيرث هذا القصر، حفيد واحد فحسب. لعل الحياة تبتسم لها وتكون ابنة العمدة هي وريثة القصر، ولا ينتبه أحد إلى لقب «النعماني» بدلًا من «الخولي» المدوَّن في شهادة ميلادها، فتنتقل ملكيته إليها، عندها ستساوم ابنة العمدة.. القصر مُقابل حريتها. شهادة ميلادها! أين هي؟ لا تجدها في «بؤجة» ملابسها، تتذكر أنها أخرجتها مرة واحدة في السيارة أثناء قدومها إلى هنا، هل سقطت منها في دُكَّان الأحذية.. في غرفة القياس.. في الطريق.. في السيارة؟!

أزاحَتْ جلبابها عن كتفيها، أبقَتْ على الشال، ارتدت حذاءها ذا الكعب المرتفع، ثم سارَتْ تترنح خارج الغرفة، عبرَت الممر الطويل بالطابق الثاني، الذي تصطف فيه الغرف، كل حفيد ينزل في غرفة منفصلة، مثلها تمامًا. وقفتْ للحظات أمام باب غرفة «فؤاد»، هل تطلب منه المساعدة؟ يا لكِ من حمقاء يا «حورية»! بالطبع لا، إن كشفَ «فؤاد» أمركِ هل سيربت على ظهركِ ويمنحكِ المال لتذهبي في طريقكِ؟ هل سيساعدكِ في الوصول إلى بيت «مخيمر»؟ بالطبع لا، سيُسلِّمكِ إلى الضابط «محفوظ» ليضع أصفاد حديدية صدئة في يديكِ. أكملتْ سيرها

إلى نهاية الممر ومنه إلى درج الطابق الأول، حمدًا لله فباب القصر مفتوح.

- ماذا تفعلين هنا؟

قفز قلب «حورية» من مكانه حين باغتها «أنيس» كبير الخدم، تلعثمتْ:

- أنا.. أنا أردتُ فقط الخروج إلى الحديقة قليلًا.

قال كبير الخدم بدهشة:

- الخروج.. الآن! الوقت مُتأخر يا هانم، ثم ماذا تفعلين في حديقة القصر في وقت كهذا؟!

اندفعت «حورية» صوب الباب وهي تشيح بكفها قائلة بحنق:

- «انكشِح».

لطمها الهواء البارد ما إن غادرت دفء القصر، أحكمَتْ الشال حول جسدها أكثر، نزلت الدرجات العشر الكبيرة المؤدية إلى الحديقة بغير اتزان، يا لهذا الكعب اللعين! كيف تتمكن النساء من السير به أكثر من دقيقتين؟! انفرجتْ أساريرها عندما رأت السيارة التي أقلَّتها، كانت مغلقة الأبواب، هذا لم يمنع «حورية» من تفحصها عبر زجاج النافذة التي جلستْ بجوارها على ضوء مصابيح الحديقة الناعسة.

- عمَّ تبحثين؟

جفل قلبها للمرة الثانية، هل تعاهَد خدم القصر على إفزاعها؟!

صاحت توبخه:

- أفزعتني!

اعتذر «عادل» باستخفاف:

- معذرة يا مدموازيل، لكن ما إن رأيتكِ تفحصين السيارة مثل اللصوص حتى ظننتكِ واحدة منهم.

- لستُ لصة يا قليل الرِّباية.

لم تكن تنوي سبّه، لكن الكلمة اندفعت من فمها فجأة؛ تُزعجها طريقته في محادثتها، واستعلاؤه عليها، يجب أن تُري هذا الوقح مكانته التي يستحقها.

أطلَّ الغضب من عيني «عادل» لهنيهة، ثم وأده في مهده، أو للدقة أخفاه بستار اللامبالاة، عليه أن يتحكم في أعصابه أكثر، لن تُفسد عليه تلك الفتاة المتعالية خطته، لن يحيد بسببها عن هدفه.

- هل أستطيع أن أسأل الهانم إن كانت ترغب في أن تقضي الليلة في السيارة فأفتحها لها؟

أشعل غيظها ثانية، يعاملها كغبية بلا عقل، أوشكت على الصراخ في وجهه: «أنا لستُ ابنة العمدة التي يزن عقلها مقدار عقل بقرته»، لكنها آثرتْ مقالة أخرى، دنَتْ منه خطوة ورفعت رأسها كي تُقلِّص المسافة الفاصلة بين رأسيهما:

- يجب أن تتحدث إليّ بأدب، هذا القصر قد يصير ملكي غدًا، حين يأتي المحامي ويقرأ وصية جدي الباشا.

اجتاحته نوبة ضحك، هكذا ظنَّتْ، لكنه وحده يعلم أن الضحك ما هو إلا ستارًا يخفي خلفه بركانًا من الغيظ، قلَّص المسافة أكثر، ثم قال بتحدٍ:

- لا تكوني واثقة إلى هذا الحد.

هي ليست فاقدة الثقة فحسب، بل والأمان كذلك، عليها ألا تُبدي ضعفها أبدًا، وإلا نهشها الناس كفريسة لا حول لها ولا قوة. رمتْ بتحدٍ سافر هي الأخرى وهي تشير بإصبعها إلى القصر ثم إليه:

- سأكون سيدة هذا القصر، وستصير أنتَ خادمي.

دارَتْ على أعقابها لتنهي هذا السجال القصير، قبل أن تفقد قدرتها على الوقوف في هذا الحذاء اللعين، وتخر عند قدميه مُنهكة القوى. كلماته أوقفتها:

- أتبحثين عن هذا؟

كادتْ الأرض أن تميد بها وهي تلتفتْ صوبه لتراه مُمسكًا بشهادة ميلادها. ازدردتْ لعابها بصعوبة ملحوظة، التهبَتْ أعصابها وتضاعفَتْ برودة كفَّيها، هل قرأ اسمها؟ هل علم أنها تنتحل شخصية غيرها؟ دنَتْ منه ببطء، لا تحيد نظراتها عن عينيه الذئبيتين، رأت فيهما ما كانت تخشاه.. القسوة.. التحدي، وكأنه يستطيع رؤية نهاية هذه الحكاية قبل أن تبدأ.. أو يستطيع كتابتها! لقد عرف إذن!

انتزعتها منه، ثم سارت تعرج باتجاه القصر، خطوات قليلة ثم توقفت؛ نزعت حذاءها، وأكملت باقي المسافة هرولَة. ثقل قلبها بالهموم، وعيناها بالنوم، استلقَتْ فوق الفراش، تستخدم ذراعيها كقيد تُطوِّق به جسدها، دون أن تنتبه إلى أظافرها التي تغوص في لحمها، عليها أن تجد حلًا لهذه الكارثة، يجب أن تُبقيه صامتًا حتى وإن اضطرَّتْ إلى الوصول معه إلى اتفاق سرِّي.. مساومة، مثلما أرادتْ أن تفعل مع ابنة العمدة.

تنهدت بحسرة:

- يا الله، هل جاء العقاب سريعًا إلى هذا الحد؟ هل وقعتُ في الحفرة التي أردتُ أن أحفرها لابنة العمدة؟ العين بالعين والسن بالسن، لكنني لم أود أن آكل حقوقها، أردتُ إنقاذ نفسي فحسب، من أجل أبي، ماذا سيفعل من دوني؟ يا الله، أعلم أنني سقطتُ في الاختبار، لكن ليس لي ملجأ سواكَ. إن كان قدري أسود، فبرحمتكَ تتبدَّل الأقدار.

أطلق «شحاتة» الجزار وصلة من العطس بعد أن استنشق قدرًا لا بأس به من «النشوق»، جاهدتْ عروق رقبته للبروز، إلا أن سُمكها أحال دون ذلك وهو يهتف بانفعال:

- لا أصدق هذا المحامي «النَطْع»، كيف نكون نحن الستة أبناء خالات؟! ليس هذا فحسب بل كل خالة منهن ابنة لامرأة منفصلة، يعني بالصلاة على النبي هذا الذي يقولون عنه جدنا «كاظم باشا البارودي» تزوج سبع نساء، واحدة منهن بنت ذوات أنجبت له البرنس «رستم».. أي خالنا الوحيد. وست نساء فلاحات أنجبن له ٦ بنات.. أمهاتنا! من يُصدِّق هذا الكلام الغشيم؟!

التفَّ الستة حول طاولة ضخمة في غرفة طعام واسعة، باهرة التفاصيل، لها ثلاث نوافذ تطل مباشرة على الحديقة الأمامية للقصر. تناول جميعهم الطعام للمرة الأولى في حياتهم بأدوات مائدة من الفضة، مُطعَّمة بالذهب، ما عدا «درية» هانم التي حضرت مع المرحوم زوجها عدة مناسبات فخمة، وكانت تملك في بيتها مجموعة ملاعق وسكاكين أنيقة. ضاق «شحاتة» ذرعًا بأدوات المائدة؛ ألقى بها وتناول من الصحون بيديه مباشرة.

رمقته «درية» هانم بتقزز، كانت قد بدَّلتْ فستانها، ووضعتْ مكياجًا كاملًا لا يتناسب مع طبيعة الأجواء من حولها، قالت:

- صدقتَ، من المستحيل أن نكون أقرباء.

التقطتْ سيجارًا من علبتها، وقبل أن تطلب أسرع «فؤاد» في إشعالها بقدَّاحتها التي توارَت خلف منديلها القماشي الأبيض المطرز بالحرير، ابتسمتْ له شاكرة.

قال «حسين» الكوالنجي مُصححًا:

- ألم تسمع المتر جيدًا؟ قال إن «كاظم باشا البارودي» تزوج من ثماني نساء! لكن إحدى بناته ماتت فور ولادتها.

هاجمه «شحاتة» بحدة:

- وما الفارق بين سبعة وثمانية؟ المهم أنه كان رجلًا مِزواجًا، ما شأننا نحن بهذا الرجل «الفَلاتي»؟

في تردد أجابه «حسين»:

- لعله على حق، ونكون بالفعل أبناء خالات.

قاطعه «شحاتة» ساخرًا:

- نكون ماذا؟ ألم تنظر إلى المرآة هذا الصباح، وجهكَ وحده يقطع الخميرة من البيت، وملابسكَ.. وحذاؤكَ، لو كنتَ حقًّا حفيد الباشا فأنا حفيد الملك فاروق إذن.

ألقت «درية» هانم برأيها صراحة:

- «باردون» يا «شحاتة» أفندي، لكن مظهركَ أنتَ أيضًا لا يدل على أنكَ حفيد باشا، ربما حفيد فتوة في حارة السقَّايين.

- أفندي! لماذا؟ هل ترين الطربوش فوق رأسي والكرَّاس تحت إبطي؟! أنا لست أفنديًا، بل مَعَلِّمًا ابن مَعَلِّم على سِن ورمح.

أثارَ مناداته بـ «الأفندي» استياءه بشدة؛ يرى فئة الأفندية قد عُجِنَتْ بالثقافة الغربية التي تعلموها في المدارس الميري، حتى ابتعدوا عن مفاهيم أولاد البلد، واقتربوا أكثر من روح الخواجات، بارتدائهم الزي الأوروبي، وعزوفهم عن جلباب أولاد البلد، «يرطنون» بكلمات أجنبية لا يفهمها البسطاء، ويقيسون الناس حسب ألقابهم، وفوق ذلك يؤمنون أنهم أجدَر من يقف أمام الأخطاء التي ترتكبها النخبة في الدولة. أما كلمة «مَعَلِّم» فترتبط بشكل مُباشر بمملكة أولاد البلد.

أولَى «فؤاد» جُل انتباهه إلى «محفوظ» ضابط البوليس الذي لزم الصمت، تعبث أطراف أصابعه بشاربه الكث، مع تقطيبة لم تغادر جبينه ولو للحظة. مال صوبه، إذ كان يجلس في المقعد المجاور له:

- وأنت يا «محفوظ» أفندي.. ما رأيك فيما يحدث؟

يُعدُّ ضابط البوليس من فئة الأفندية، لا يستاء من مناداته بذلك، ويعتبر أن الريف والطبقة الدنيا في الحَضَر هم «الآخرين» بالنسبة له. انتفض «محفوظ» كمن بوغِت بالسؤال، تطلعت إليه العيون، انتظر هنيهة ثم قال:

- لم أكوِّن رأيًا بعد.

ثم أردف مُفكرًا بصوت مرتفع:

- لكن شيئًا كهذا لا يمكن تزويره، ويمكن إثباته بسهولة، وجميعنا في قرارة أنفسنا نعلم أن هذه الحقيقة على غرابتها إلا أنها ممكنة.

سألته «درية» هانم بأنفاس محمولة على أجنحة دخان كثيف:

- ماذا تقصد يا «محفوظ» أفندي؟

شبَّك أصابعه فوق الطاولة، طاف بوجوه الجميع، ثم قال:

- جميعنا نعلم جيدًا أن اسم أم كل واحد منا في شهادة ميلادنا متبوعًا بـ «كاظم البارودي».

أقرَّ «فؤاد» بكلماته قائلًا:

- رأيتُ شهادة ميلادي مئات المرات، لكن لم أتخيل أبدًا أن «كاظم البارودي» المدوَّن اسمه كوالد أمي يكون هو نفسه «كاظم باشا البارودي».

اعترفتْ «درية» هانم وهي تدفع ببقايا سيجارتها في المنفضة الكريستالية:

- أما أنا فانتبهتُ لهذا التشابه، وسخرتُ منه في نفسي، حتى أنني تمنيتُ أن يكون أكثر من مجرد تشابه، لكنني لم أظن أن أمنيتي قابلة للتحقيق.

اندفع «شحاتة» يقول باستهجان كبير، وقد أثار كل هذا الحديث انفعالات شتى بداخله:

- يا خلق.. يا ناس، سأسلمكم عقلي، فقط أجيبوا عن سؤالي.. إذا كان «كاظم باشا البارودي» هو جدنا ووالد أمهاتنا.. لماذا لم تخبرني أمي أنني حفيد باشا، ورضيَتْ أن تمضي حياتها وهي تدبغ جلود الحيوانات في السلخانة؟ لماذا أخفتْ أمهاتكم عنكم ذلك؟

تبادل الجميع نظرات حائرة، سؤال «شحاتة» منطقي، لكن ليس لدى أي منهم إجابة منطقية عن هذا السؤال البسيط.

- يسعد صباحكم، أ.. أقصد.. بونجور.

التفتْ الجميع صوب «حورية» التي دخلت غرفة الطعام بوجه باش، يخفي الأرق الذي عانت منه الليلة الماضية. ما تزال ترتدي الفستان الأزرق، والشال، والحذاء الأسود ذا الكعب المرتفع، الذي عليها أن ترد ثمنه للخادم قليل الرِّباية في أقرب وقت. أثار تحدثها بالفرنسية سخرية «محفوظ»، وتعالتْ ضحكات «درية» هانم، إذ نطقتْ الكلمة الفرنسية بطريقتها الفلاحي، فخرجتْ مشوهة تمامًا، لا هي عربية ولا هي فرنسية.

لم يجب تحيتها سوى «فؤاد» الذي تدارَك الموقف، وامتصَّ حرجها:

- بونجور.. صباح الخير يا «حرة»، ما كل هذا النوم! ظننتكِ معتادة على الاستيقاظ مبكرًا، تعالي شاركينا الحديث.

نهض وترك لها مقعده تأدُّبًا، ثم جلس في المقعد المواجه لها؛ اعتاد التصرف كرجل نبيل في حضرة النساء.

تساءلتْ «درية» هانم بفضول:

- من الواضح أنكما تعرفان بعضكما جيدًا.

وضَّح «فؤاد» مبتسمًا:

- لا أعرف منكم سوى «حرة»، قابلتها أول أمس في الحفل التنكري بالعوامة، بالطبع رأيتكم في الحفل لكنني وقتها لم أعلم بصلة القرابة بيننا.

أخبرهم المحامي بالأمس أن دعوتهم إلى الحفل التنكري بالعوامة مُخططٌ لها بعناية، كي يراهم البرنس عن قُرب قبل دعوتهم إلى القصر وإخبارهم بأمر هذه الوصية العجيبة. لم ترغب «حورية» في أن تكون محور حديثهم، لعل كلمة خاطئة تصدر عنها تكشف أمرها؛ باغتته باضطراب:

- ألن نأكل يا «فؤاد»؟ أكاد أموتُ جوعًا.

قالت «درية» هانم بسماجة:

- كُلي، ومن يمنعكِ؟!

كظمتْ «حورية» غيظها بصعوبة. دخل «أنيس» كبير الخدم، تساءَلَتْ «حورية» في نفسها: «أين باقي الخدم؟»، لم تر أحدهم في أرجاء القصر حتى الآن، شيء غريب!

قال وهو ينحني باحترام:

- هل كانت الغرف جيدة؟ اخترت لكم أفضل غرف القصر، وأكثرها راحة.

تساءل «شحاتة» بسماجة:

- وكم عدد غرف هذا القصر بالصلاة على النبي؟ «غرفة المسافرين» وحدها يمرح فيها الخيل.

تسميته لصالون القصر بـ «غرفة المسافرين» أثار استهجان «درية» هانم وتهكمها.

ردَّ كبير الخدم:

- القصر به ثلاثون غرفة، غير الصالون والسفرة والمطبخ والحمامات.

- شِي لله يا سيد يا بدوي.

غادر «أنيس» بعدما تمَّ على الطعام والشاي. قررَتْ «حورية» الانتفاع بأقصى درجة بهذا الترف من حولها، لم يسبق لها أن وُضع أمامها هذا القدر من الطعام، ولا وُجِدَتْ في تلك الأجواء الفخمة التي تُذكِّرها بصور القصور الملَكية التي رأتْ صورها في المجلات، وكأنها تعيش في حلم، يا له من حلم خلاب!

تساءلتْ:

- متى سيأتي المحامي لقراءة الوصية؟

أجابها «شحاتة» وقد امتلأ فمه بالطعام:

- في المغربية، هكذا قال بالأمس، ترك لنا فرصة للراحة وللتعرف إلى بعضنا البعض قبل قراءة الوصية، لكن لأقول لكم من الآن.. هذه القرابة لا تدخل ذِمَّتي بثلاث تعريفة.

تفرَّس فيهم ثم أردف دون حرج، إذ اعتاد على قول ما يشعر به بصراحة أقرب للفجاجة:

- واحدة هانم أرملة بك، وأخرى كانت بالأمس نمرة غاضبة على وشك افتراس أحدهم، أما الآن فهي أقرَب إلى غزال شارد، وواحد دُهُل.. لا مؤاخذة يا «حسين»، وواحد جناب الضابط بدبورين على كتفه، وآخَر.. امممم.. لم تخبرنا بعملك يا «فؤاد» أفندي.

- أعمل في مصلحة الأشغال.

- وواحد موظف حكومي قد الدنيا.

ثم ضرب صدره قائلًا بفخر:

- وواحد ابن بلد، تُرى من منا سيرث هذا القصر؟

بادره «محفوظ» ساخرًا:

- ألم تقل إنك لا تصدق هذه القرابة؟

مسح «شحاتة» فمه في منديله القماشي الكبير، لمعتْ عيناه وهو يقول:

- لا أصدق ولكن.. طالما هناك قصر في الوصية فيا مرحبًا بجدي الباشا.. وخالي البرنس.. وخالاتي.. وأبناء خالاتي.

شردتْ أفكار «فؤاد» قليلًا، حطَّتْ فوق غرفته البسيطة فوق سطح بناء قديم في «الغورية»، ومرض أمه بداء الربو، لم تتحمل تهيُّج صدرها في برد الشتاء القارص، ولا انخفاض ضغطها في حر الصيف الحارق، لو كان يملك بيتًا أفضل لبقيتْ أمه على قيد الحياة. ربما لهذا السبب يجد نفسه قريبًا من البُسطاء، وإن كان لا يرغب في أن يظل أبد الدهر واحدًا منهم، فلديه أحلام تطال السحاب. أفاق من شروده ليقول:

- أظن أن القصر سيكون من نصيب من يحتاجه أكثر، أفقرنا مثلًا، لا أتخيل مقياسًا آخر لإعطائه لأحدنا إلا الفقر.

أما أفكار «حسين» فحطَّتْ كطير كسير الجناح فوق بيته ذي الثلاثة طوابق، لم يعزه وأخواته السبع المال، لكنه افتقد الأمن والحماية، لم يتمكن من الوقوف أمام أبيه للدفاع عن أمه أو أخواته البنات ومنعه من ضربهن، لم يستطع مجابهة أبيه، يخشاه كما يخشى الموت ذاته، ورغم أنه كان حاضرًا بعد كل عراك ليضمد جرحًا ويجبر كسرًا، إلا أنه لا يغفر لنفسه أنه عاجز عن حمايتهن، رجل ضعيف.. كسيح.. بل ليس رجلًا من الأساس، هكذا يرى نفسه في المرآة كل صباح. تحدث «حسين» للمرة الثانية منذ بداية الحوار:

- أو الضعف، لعل جدنا ترك القصر لأضعفنا، لمن لا يستطيع مجابهة الدنيا.. وناسها.

تجوَّلتْ أفكار «درية» هانم ذهابًا وإيابًا، بين طمع أمها النهمة للمال وتزويجها من رجل يكبرها بخمس وعشرين عامًا، وزوجها الذي أغدق عليها المال ومنحها لقب الهانم دون أن يخفق قلبها له ولو لمرة واحدة، يبدو أن المثل القائل «بِنت الفارة حفَّارة» أدقُّ توصيف لحالها؛ لم تعد قادرة على الاستغناء عن كل ما منحته لها حياة الذوات من ميزات، انتشلتها وأمها من الفقر. قالت بترفُّع وهي تشعل سيجارة ثانية:

- أو أعلانا مقامًا، لا يليق بالعيش في القصر سوى الوجهاء.. الهوانم والبكوات.

«شحاتة» أيضًا كان بعيدًا عنهم بأفكاره، حيث «نحمده» التي تركته وتزوجتْ من أفندي بالكاد يملك قوت يومه، قليل الحيلة، هزيل القدرات، تعارك معه ذات مساء أغبَر فكاد أن يقتله، لولا تدخُّل أخيه الأصغر؛ طاشَتْ سكِّين الجزارة وبدلًا من أن تشق قلب غريمه فقأتْ عين أخيه. يجب أن تندم «نحمده» على فعلتها حتى ولو كلَّفه ذلك حياته، يجب أن تعرف أنه كان الرجل الأقوى والأفضل والأصلح لها، وأنها خسرتْ الكثير بتفضيلها أفنديًا عليه، أين ذاك الأفندي من شُهرة «شحاتة» التي تعدَّتْ فتوات حي الخليفة «كم العرى» و«الملط» و«يوسف بن ستِّهم»، بل وتعدَّتْ شهرته مَعلمة حي المغربلين «عزيزة الفحلة» بجلالة قدرها. ماذا قدَّم هذا الأفندي الجربوع لوطنه؟ أين هو من «شحاتة» الذي توجه إلى الصحراء الغربية قبيل حرب «فلسطين» واشترى أسلحة من بقايا الحرب العالمية الثانية، ثم قدمها هدية للجيش المصري؟

قال بثقة وهو يضرب على صدره:

- أو أكثرنا قوة؛ ليتمكن من الدفاع عن القصر والعزبة المحيطة به.

ألقى «محفوظ» بدلوه هو الآخر، بعد أن جالَتْ أفكاره بالجالسين حوله، ما أغباهم! هل يظنون حقًا أن «كاظم باشا البارودي» قد ترك هذا القصر العظيم لواحد منهم؟!

بادرهم بعنجهية:

- بل أعظمنا سُلطة، المال والقوة والسلاح دون سُلطة لا يساوي شيئًا، وأهلونا قالوها زمان «فَرَسة الحكومة العَرْجة تسابِق الغزال».

التفتَ «فؤاد» إلى «حورية» وسألها باسمًا:

- وأنتِ يا «حرة» ماذا تقولين؟

طال صمتها حتى ظنوا أنها لن تجيب. ثم قالت بشرود:

- حلمتُ الليلة الماضية أن المحامي قرأ علينا الوصية، وأننا عرفنا من سيكون صاحب هذا القصر.

سكتت، فحثتها «درية» هانم بفضول، لا تدري «حورية» إن كان حلمًا حقًا أم خيالًا طاف بعقلها وهي في المنطقة الواقعة بين النوم واليقظة، تنهدت قائلة بمرارة، مُطأطأة الرأس:

- أكثرنا إثمًا!

نظر إليها الجميع بدهشة، رفعت رأسها، أردفتْ بشرود وكأنها ترى المستقبل بعين الخيال:

- الإثم هو الرماد الذي سنُبعَثُ فيه من جديد!

ما أجمل حديقة القصر!

كيف أخفى الليل هذا الجمال تحت عباءته الكالحة بالأمس؟!

خلبتْ الحديقة وزهورها وأشجارها لُبَ «حورية»، سقطتْ أسيرة سحرها وإبداع ألوانها، ما أبدع يد الخالق التي صنعتها! طفق لسانها يُردد: سبحان الرحمن! طافتْ من شجرة لأختها، ومن زهرة لمثلها، حتى نسيت همومها وشجونها، توغَّلتْ في الحديقة أكثر فأكثر، رأت «عادل» خلف إحدى الأشجار، يخرج من كوخ خشبي عند نهاية الحد الفاصل بين الحديقة والغابة المحيطة بها.

يجب أن تحل الأمور معه، الآن! تفحَّصَتْ الحديقة من حولها؛ تتأكد أنها بمأمَن عن العيون أثناء حديثها إلى الرجل ذي عيون الذئاب، ثم توجهتْ صوبه، تُقدِّم رِجلًا وتؤخر الأخرى، لم ترغب في إطالة الحديث فبادرته من فورها:

- أريد أن أتحدث معك، يجب أن نتوصل إلى اتفاق قبل قدوم المحامي الليلة.

كان منحنيًا يعبث في العشب النامي بجوار الكوخ، يقتلع بعضه، ويُنظِّف ما حوله، ما إن سمع صوتها حتى رفع رأسه، رمقها بنظرة لم تدم سوى ثانيتين، ثم عاد إلى ما كان منشغلًا به، لا يوليها أدنى اهتمام؛ تفاقَم غيظها، لكنها تمالكتْ نفسها، أصرَّتْ:

- يجب أن نتحدث.

رفع «عادل» رأسه ثانية، ثم فرد قامته، وانتظر حديثها. ما أغرب عينيه! إنهما خضراوان الآن! كيف تبدَّل لونهما من الأزرق إلى الأخضر؟! هل هو مخاوٍ لنَفر من الجن، طوع يديه، يُبدِّل لون عينيه متى أراد؟! أمَا كان أولى به أن يطلب من الجان ما هو أهم من تغيير لون عينيه؟!

ما إن همَّتْ بالكلام حتى رأتْ ذئبًا بعينين ذهبيتين برَّاقتين يأتي من خلف أحد الأشجار، ويتوقف أمامها، لم تكن تتوهَّم إذن حين سمعَتْ صوت عوائه بالأمس. شهقت بذعر، ارتدَّتْ إلى الخلف مُستطارة الفؤاد، ترفع عقيرتها بالصراخ؛ اندفع «عادل» يكتم أنفاسها بكف خشنة، أكثر خشونة من كفيها، وهي التي اعتادتْ أن تظن أن كفيها هما الأقسَى. انتبهتْ إلى صوته الحازم:

- هل جننتِ! إياكِ والصراخ.. الصوت المرتفع يُفزِع الذئاب ويدفعها للهجوم.

أومأتْ برأسها؛ تركها بعنف كما أمسك بها بعنف. توجه إلى الذئب ومسح فوق رأسه بخشونة، ثم زجره وأمره بالعودة إلى الغابة، لم تتمالك «حورية» زمام فضولها، غالبَتْ ذُعرها، سألته:

- هل تُربي هذا الذئب؟

دنا منها عاقدًا ذراعيه فوق صدره، تجاهل سؤالها، وأعادها إلى سبب قدومها:

- ما الذي أردتِ الحديث بشأنه؟

حاولتْ استجماع شجاعتها مرة أخرى عبثًا، تبًا له ولذئبه، هل يُربي عاقل ذئبًا!

قالت وهي تزدرد ريقها بصعوبة، دون أن تخرج تمامًا من تأثير رؤية الذئب:

- أعلم أنك رأيت هويتي الشخصية بالأمس، وأنكَ تعرف الحقيقية، لن ألف وأدور، سأعترف لكَ، نعم.. أنا لستُ «حُرة» التي يظنونها، أنا «حُرة» أخرى.

لماذا يتطلع إليها بهذا الوجه الجامد الخالي من أي تعبير؟! هذا يُصعِّب مُهمتها أكثر. استطردتّ:

- لقب عائلتي «النعماني» وليس «الخولي»، أنا لستُ ابنة العمدة، بل...

كادتْ أن تقول «خادمته»، أوقفتْ لسانها عن هذا الزلل، ثم استدركتْ:

- بل إحدى قريباته، أتيتُ إلى هنا وكأنني ابنة العمدة لأنني أحببتُ أن أجرِّبَ حياة الأغنياء، ولو لعدة ساعات، ثم ظهر أمر هذه الوصية التي لم أكن أتوقعها، وأنا الآن أرغب في أن يبقى هذا الأمر سرًا بيننا.

فكَّر قليلًا، أو تظاهر بالتفكير، ثم قال باستعلاء:

- ولماذا تظنين أنني سأرغب في مساعدتكِ؟

- لا أظن، بل متأكدة.

فلمَّا لاحت على وجهه أمارات الاستنكار، بادرته:

- سأعقد معكَ اتفاقًا، إذا كان القصر من نصيبي سأدعكَ تأخذ من تحفه وأثاثه كل ما تشتهيه نفسكَ، يارب تفرمني الكهرباء إن لم أفعل.. ما رأيك؟

تعلم أنها تعرض عليه اتفاقًا غير أخلاقي، لكن لا يبدو لها أنه رجل يهتم كثيرًا بمسألة الأخلاق، هل يُربي رجل مستقيم ذئبًا بجوار مكان نومه؟! لا بد أن هذا الكوخ هو مكان مبيته، فهو رجل مناسب جدًا للعيش في الأكواخ، شيء به جعلها تراه كأولئك الفتوات الذين تسمع عنهم، لا يعرفون سوى لغة الضرب والهدم والكسر، وبالطبع السلب والنهب والإتاوات.

تأكدتْ ظنونها حين قال:

- اتفقنا.. لكن بشرط.

- ما هو؟

دنا منها أكثر، وكأنه يتعمَّد أن يُزعجها؛ جَفَلَتْ، نجح في إحداث دوامات وسط بركتها الساكنة، قال:

- إذا لم يكن القصر من نصيبكِ سأوقِع عليكِ العقاب الذي تشتهيه نفسي.

يا له من خسيس!

يستغل حاجتها إليه ويساومها بهذا الشكل الوقح، تعلم أنها ستفوز بالقصر، عليها أن تفوز به كي تتمكن من مساومة ابنة العمدة للتراجع عن شهادتها بقتلها للعمدة، وإذا لم يكن الفوز حليفها فستهرب.. منها ومنه ومن البوليس.. ومن الجميع، لن تسعها أرض ولا سماء، ستتوجه إلى البحر.. مع أبيها، سترتدي الفستان الأزرق وعيناها تغوص بأمواجه، كما وعَدَتْ مدام «أراميتنا».

نطق لسانها بكلمة تضمرُ غيرها:

- اتفقنا.

ثم ودَّعته مُنسلَّة كاللصوص قبل أن يراها أحد:

- تقعد بالعافية يا سي الأفندي.

(بسم الله الرحمن الرحيم

أنا «كاظم البارودي» الموصي بهذا، والموقع باسمي في ختام هذه الوصية أقر بأنني قد حررتها طائعًا مختارًا، وأنا بتمام الصحة والعافية، وبكامل قواي العقلية، وحالتي المعتبرة وأهليتي المعتد بها شرعًا.

أوصي بكل ما أملكه من أموال سائلة، وشهادات مجمدة، وأرصدة في البورصة المصرية، وجميع ما أملكه من عقارات وأراضٍ إلى ابني البكر «رستم كاظم البارودي». أما فيما يخص القصرَ الواقع في الأطراف المترامية للقاهرة، وسط صحراء المعادي، فيؤول بكل ما فيه من لوحات وتحف وأثاث ومشغولات ذهبية إلى واحد من أحفادي الستة، يعرف المحامي الخاص بي أسماءهم وكيفية الوصول إليهم، على أن يكون القصر من نصيب الحفيد الذي سيتمكن من العثور على المفتاح!

ومن أهمَلَ في تنفيذ هذه الوصية أو أي شيء مما ورد فيها أو خالفها أو بدَّلها أو أضاف إليها أو حذف منها، فإنما عليه وزر ذلك. هذه وصيتي إليكم، وقد حررت وصيتي هذه ثابتًا عليها وبها أكون قد عدَّلت أي وصية سابقة.

الموصي: كاظم باشا البارودي.)

تجمدتْ نظرات الجميع، وعقَدتْ الدهشة ألسنتهم، يرمون أنظارهم الحائرة صوب محامي الباشا. «درية» هانم أول من تمكنت من استعادة رباطة جأشها:

- ما معنى ذلك يا متر؟ لم أفهم شيئًا!

قرأ المحامي عليهم نص الوصية مرة أخرى، فقاطعه «شحاتة» بحدة:

- نقول لك لم نفهم، اشرح لنا ما فيها، لا أن تقرأها مرة أخرى.

تنحنح المحامي ثم قال:

- الأمر بسيط جدًا، من يعثر على مفتاح باب القصر، فالقصر ملك خالص له، هذا ما نصَّتْ عليه الوصية وما تحدَّث به الباشا معي قبل وفاته، والبرنس «رستم» يستطيع أن يخبركم بنفسه.

أكدَّ البرنس قليل الكلام، مُترفِّع النظرات:

- كما يقول المتر، أنا شاهد على ذلك.

نهض «شحاتة» سريع الانفعال مُعنفًا:

- ما هذا الجنون! هل أراد الباشا أن يلاعبنا لعبة إخفاء الأشياء؟ أخفَى المفتاح ويطلب منا العثور عليه لنفوز بالقصر؟!

جدنا رجل مِزواج وعرفنا، لكن مِزواج وأهبل! أمَّا «كُرُوذيا» صحيح. استطرد المحامي بصبر يُحسَد عليه:

- لا شأن لي بما أراده «كاظم» باشا بهذه الوصية، مُهمتي تتلخَّص في إحضاركم إلى القصر والتأكُّد من تنفيذها حسب تعليماته قبل وفاته.

تساءلتْ «حورية» التي لم تفق بعد من صدمتها، إذ ظنَّتْ أن الوصية ستكون أكثر سهولة من تلك اللعبة السخيفة:

- وما هذه التعليمات؟

- بعض الشروط التي عليكم الالتزام بها.. أولًا: ومنذ هذه اللحظة غير مسموح لكم بمغادرة القصر قبل العثور على المفتاح المخفي

بداخله، ومن أراد الخروج سيكون قد خسر حقه في القصر، ولا يحق له المطالبة بالعودة إليه مرة أخرى. ثانيًا: لا يحق لأحدكم العبث بمحتويات القصر، أو إهدارها، أو كسرها، أو إتلافها أثناء البحث عن المفتاح، ومن يخل بهذا الشرط سيُستبعد فورًا من الوصية. ثالثًا: إن لم يتم العثور على المفتاح في مدة أقصاها ستة أيام، سيؤول القصر بكل ما فيه إلى الدولة، تستخدمه كمزار سياحي.

لم تكن الوصية بالنسبة لهم سوى درب من دروب الجنون، يبدو أن الثراء الفاحش يُصيب صاحبه باللوثة، فلا يجد متعته إلا في الغريب والشاذ من الأفكار، ولذة الباشا العجيبة تمثَّلتْ في لعبة إخفاء الأشياء التي قرر أن يلعبها مع أحفاده بعد موته!

بعد مغادرة المحامي للصالون برفقة البرنس «رستم»، أبدَى «شحاتة» اعتراضه على الفور:

- لن أشترك في هذا السيرك.

ظنَّ أن الجميع سيحذو حذوه، لكن أمارات التفكير كانت بادية بوضوح على وجوههم، يُقلِّبون وجوه الأمر لدقائق، دون أن يجرؤ أحدهم على التسرع في اتخاذ قرار قد يندم عليه طوال حياته.

تحدَّث «محفوظ» أخيرًا، وبحماس كبير:

- وماذا سنخسر؟. لا شيء، إقامة مجانية في هذا القصر الطويل العريض، كل أوامرنا مُجابة من مأكل لمشرب لملبَس، وإن لم نعثر

على المفتاح فلنعتبر أننا في رحلة استجمام بعيدًا عن أعمالنا ومشاغلنا ومسؤولياتنا.

كانت صيغة الجمع والنبرة الحماسية هي ما أثارتْ ريبة «حورية»، فمن مصلحة كل منهم أن يعترض الباقون على الوصية ويغادرون إلى غير رجعة؛ ليفوز وحده بفرصة البحث عن مفتاح القصر، فلماذا يحرص «محفوظ» على إقناعهم بالبقاء والمشاركة؟! هل هو أكثر طيبة مما يبدو لها؟ هل تنفر منه لأنه ضابط في البوليس لا أكثر؟

أبقتْ على علامة الاستفهام تلك في زاوية قريبة من رأسها. التفتتْ صوب «حسين» لتقول:

- وأنت يا «حسين».. ما رأيك؟

حكَّ رأسه بعصبية، وكأنه يوشك على اقتلاع فروة رأسه، كانت لديه من الأسباب الكافية ما يجعله راغبًا في الابتعاد عن البيت.. وعن أبيه.. وأن يعود لأمه وأخواته بـ«حُجَّة»[1] القصر، وينتشلهم من الجحيم الذي يعيشون فيه مع أبيه الظالم، وحتى إن لم يحدث ذلك، فكما قال «محفوظ».. لن يخسر شيئًا.

قرر الجميع البقاء، سقط في يد «شحاتة»، لا يرغب في العودة خال الوفاض بعدما طاردته أحلام امتلاك القصر طيلة الليلة الماضية، ورؤية الحسرة في عين «نحمده». تنحنح متراجعًا عن قراره السابق:

- طالما الجميع قرروا البقاء.. إذن سأبقى، المَعلم «شحاتة» فتوة حي الحسينية لا يهرب من التحديات أبدًا.

---

(١) صك ملكية.

ثم هتف بثقة:

- سأعثر على المفتاح، وسأفوز بالقصر.

فتح «فؤاد» باب الغرفة ثم نادَى المحامي والبرنس، تحدَّث «محفوظ» نيابة عن الجميع:

- قررنا البقاء، لن يغادر أحد.

تبادل المحامي مع البرنس نظرة غامضة، لم تستطع «حورية» ترجمتها، وهي التي تهوى صيد النظرات وتفكيكها واستخلاص المعاني منها.

نصحهم المحامي:

- عليكم أن تضعوا خطة للبحث بتقسيم غرف القصر فيما بينكم، ربما تقسِّمون أنفسكم إلى فريقين مثلًا، هو مجرد اقتراح مني لتسهيل مهمتكم.

في الوقت الذي تبادل الجميع النظرات في تردد، كانت لـ «درية» هانم أفضلية التفكير بسرعة بديهة، هتفت:

- أنا و«محفوظ» و«حسين» في فريق واحد.

انتفخ صدر «حسين» وكأنه ديك شركسي انتفَش ريشه، الشاب الذي لم يكن محط أنظار أحد من قبل، والذي عادة ما يبقى في الزوايا والأركان كمقعد بالٍ، اختارته «درية» هانم بشحمه ولحمه، يا لسعادته!

لكن «محفوظ» أدرك على الفور الذكاء الكامن وراء اختيارها، فهو أكثرهم حِنكة في التقصِّي والبحث بحكم عملة في البوليس، و«حسين»

على ضعفه وقلة قيمته إلا أنه «كوالنجي»، وحين يكون الموضوع هو البحث عن مفتاح، فـ «حسين» هو أكثر المؤهلين للعثور عليه، أو على الأقل لمعرفة ماهية الشيء الذي يبحثون عنه، يا لها من خبيثة تلك الـ «درية» هانم.

لم تكن «حورية» منزعجة من انضمامها و«فؤاد» للفريق نفسه، ما أزعجها هو اضطرارها للتعامل مع «شحاتة»، والذي سيكون نبع إزعاج لا ينضب، فليكن الله في عونهما إذن! منحهم المحامي مجموعة من المفاتيح، ثم قال:

- هذه المفاتيح تفتح كل غرف القصر، ولأعيد عليكم الشرط الثاني من الوصية وهو عدم تخريب أي من الأغراض والتحف والأثاث الذي يمتلئ به القصر.

ثم أخرج من أحد الأدراج ساعة رملية أنتيكية، جاذبة للأنظار بفخامتها ودقة صنعها، وضعها في مكان بارز فوق طاولة في حجرة الصالون، تُزاحِم ما يُجاورها من تُحَف، تحصي لهم الدقائق والساعات والأيام. استرق النظر إلى ساعة جيب ماركة «الترام» مُسلسَلة إلى معطفه، ثم قال استعدادًا للانصراف:

- سيبدأ إحصاء الوقت من صباح الغد، البرنس «رستم» سيقيم في غرفته بالقصر للتأكد من عدم الإخلال بالشرط الثاني من الوصية، فكما تعلمون.. إذا فشلتم في العثور على المفتاح سيقوم بنفسه بتسليم القصر بما فيه إلى «مَصلحة السياحة»، سعيدة عليكم.

لم يرد أحد تحيته، استغرق كل منهم في أحلام اليقظة، يتمنى لو يفوز وحده بالقصر. فوجئ «فؤاد» بـ «حورية» وهي تجذب ذراعه وتهمس له:

- «فؤاد» هذه المفاتيح عددها تسعة وعشرون.

أقحَم «شحاتة» نفسه في الحديث، قالت لهما والشك ينهش قلبها بضراوة:

- قال «أنيس» صباح اليوم إن عدد غرف القصر ثلاثون غرفة.

ما زال «فؤاد» و«شحاتة» غير مدركين لما تريد قوله؛ احتدَّتْ وهي تطرح سؤالها:

- أين مفتاح الغرفة رقم ثلاثون؟ لماذا لم يعطِه لنا؟

ولم تكن الإجابة في حَوزة أي منهما!

(((اليوم الأول)))

في الصباح، انقضَّ عليها الكائن السمج المُسمَّى: قلق.

استيقظَتْ قبل الجميع، تحتاج إلى ترتيب أفكارها قبل مواجهتهم حول طاولة الطعام. غرفتها على اتساعها ونظافتها وفخامتها تُشعرها بالغربة، تغيب عنها لساتها الشخصية، لم تستطع التواصل مع الجدران بنفس الحميمية التي كانت تتعاطَى بها مع جدار الصبر المتبقّي من جرن الحمام المتهدم في قريتها.

اصطحبتْ معها كائن القلق إلى الحديقة، تهادا في السير سويًا، تَناكَفا الكلام، احتدا، تشاجرا، ملَّتْ منه ولم يملها، سمجًا كان. ما إن زارتْ أنفها نسمات الأزهار الأرجوانية المزروعة في الحديقة الخلفية، وتكحَّلتْ بها عيناها حتى فرّ القلق عدو الجمال!

ذكَّرتها الحديقة بقريتها، ورائحة الغيط، وشجر النبق التي كانت تتغذى من طرحه حينما يقل الفائض من الطعام في دوَّار العمدة، فتُسكّن به جوعها، وبشجرة تمر حنة التي كانت تستظل بأوراقها ساعة العصاري، وبشجرة الجمّيز المُعمِّرة عند شونة الدواب.

وبالخالة «بهانة».. وقصب «الباز».. وبأبيها الذي تشتاقه كثيرًا! استوطَنَتْ قلبها وَحشَة، لم تَذُق الشوق قَبلًا، هَيمن عليها بقوته وجبروته،

يُشعرها بالبرد والجو دافئ، وبالحرارة والمطر مُنهمر، يُغرقها في بحر لُجِّي دون أن تُغادر الشاطئ، ما أصعب البُعد! ما أصعب الشوق!

قررتْ أن تغُض الطرف عن مفتاح الغرفة رقم ثلاثون لبعض الوقت، فأمامها مُهمة أكثر جدية؛ أن تعثر على مفتاح القصر قبل الجميع. تفحَّصتْ باب القصر بانبهار، يا الله، ما أروع تصميمه، يُساوي وحده ثروة! صحيح أنها لا تفهم في التحف والأثاث، ولا تستطيع تخمين قيمة تقديرية لهذه الأغراض، لكن روحها تذوَّقتْ الجمال فور رؤيته، وتعرَّفتْ أناملها على براعة التصميم فور لمسه، هذا باب عظيم، وحتمًا لا يقل مفتاحه عنه عظمة!

نظرتْ من خلال الثقب؛ تحاول تخمين مقاس المفتاح القابل للاحتضان بداخله، مثل عاشق ومعشوق. لم تبد مهمة سهلة على الإطلاق، لو كان «حسين» في فريقها لربما ساعدها في ذلك، تلك الحية «درية» هانم تعرف جيدًا ما تفعله، عليها أن تتفوق على دهاء هذه المرأة إن أرادتْ الفوز بالقصر. عضَّها الجوع؛ جالَتْ بين غرف الطابق الأول تتلمَّس طريقها إلى المطبخ، وجدته أخيرًا في نهاية الرواق، يا الله، هل هذا مطبخ؟!

إنه أضعاف حجم مطبخ دوَّار العمدة! على الموقد قدر يغلي، يبدو أن «أنيس» قد استيقظ قبلها، لا يوجد خادم غيره في القصر، وهذا لعمرها شيء عُجاب! عليها أن تعرف أين اختفى باقي الخدم، ستضع هذا الأمر في قائمة الأمور التي ستسعى خلفها، بعد الغرفة رقم ثلاثون.

أخرجتْ من الثلاجة بعض الجبن والبيض، استدارتْ، فارتطمَتْ فجأة بجسد أحدهم، أطلقت صيحة فزع، ارتدَّتْ خطوتين إلى الوراء، ثم رفعت رأسها لتنهره:

- أنتَ ثانية، هل تتعمَّد إفزاعي؟

أجابها «عادل» مستهزئًا:

- نعم، على هذا يُعطونني عشرة جُنيهات شهريًا.

فتحَ الثلاجة بدوره، أخرج ثمرة بطاطا، ثم توجه إلى المغسلة لينظفها. تساءَلَتْ في نفسها: «لماذا يُعدَّ الطعام؟ هل يُساعد «أنيس» في إعداد الفطور؟»، قالت تُذكِّره بما سبق أن قاله لها أول أمس:

- ممنوع عليكَ دخول القصر.

أوْلاها ظهره، يقطع الثمرة ويضعها في القدر، وكأنه العمل الأكثر أهمية في العالم. قال:

- أنا لستُ في القصر.

احتدتْ بعناد من أجل إغاظته:

- أنتَ في المطبخ الذي هو تابع للقصر.

تجاهلها؛ تعاظَم غيظها، إن استمر هذا الخادم في معاملتها بهذه الطريقة المُهينة فستفقد قدرتها على إقناع الجميع أنها ابنة عمدة، وحفيدة باشا على وشَك الفوز بقصره، يجب أن تُعامَل بطريقة تليق بمكانتها الجديدة، كي لا يستخف أحد بها. نهرته:

- انظر إليّ عندما أتحدثُ إليكَ.

تجمدتْ حركته، هل يُفكر في قذفها بآخر قطعة من البطاطا؟ لكنه أودَعَها القدر، ثم التفتَ ببطء، فاستطردتْ بثبات:

- أحسنتَ، والآن أجب عن سؤالي، ما هو عملك بالضبط؟

تحدَّتها عيون الذئب:

- هل تفكرين في نقلي إلى عمل آخر عند قريبكِ العمدة؟

لقد تعمَّد ذلك، هي واثقة، أتَى على ذِكر العمدة كي يُذكِّرها بأنه يتستَّر عليها، كونها «حرة» أخرى غير حفيدة الباشا، لا تكفي مساومته بتحف القصر، يجب أن ترفع خطورة المساومة أكثر:

- هل تعرف ما سيحدث إذا كشفتَ لهم الحقيقة؟

عقد ذراعيه، بدا وكأنه يتسلَّى بحديثها، قال:

- ماذا سيحدث؟

- سأخبرهم أنكَ شريكي في الخدعة، أعددناها سويًا حينما كنا قادمين معًا إلى هنا في السيارة، لا أظنك غبيًا بما يكفي لتفضح الأمر؛ لأنني لستُ الوحيدة التي ستخسر، أنتَ أيضًا ستخسر.. ربما أكثر مِني.

بابتسامة ليس فيها أي أثر للمرح، سألها:

- أستكذبين؟

أجابتْ عن سؤاله الساخر بحزم:

- أكذِب.. وأفعل أكثر من الكذب.

تحلَّى بالصمت، عيناه الزجاجية لا تكشف لها أي شيء مما يعتمل بداخله، لكن جبينه المعقود نبهها إلى ضرورة أن ترخي الحبل قليلًا؛ لئلا تُفلِتَ زمامه:

- اسمع.. نستطيع أن يساعد أحدنا الآخر، فمصلحتنا واحدة.

- تقصدين أن نكون فريقًا؟

أعدَّتْ سؤاله بادرة اتفاق، فأردفتْ بجزلٍ مُستبشرة:

- ولم لا؟ سنكون فريقًا عظَمة، فأنتَ.. امممم لا أعرف ما هو عملكَ هنا بالضبط لكنكَ تعرف هذا القصر أكثر مني.. أكثر من الآخرين، ستكون نافعًا جدًا بالتأكيد، وسيُسهِّل ذلك عملي في إيجاد المفتاح والحصول على القصر.. دون الإخلال بشروط الوصية.

طال صمتٌ لا تسمع فيه إلا صوت غليان الماء في القِدر. ضاقتْ حدقتاها، استطردتْ:

- لماذا لا تبدو عليكَ الدهشة؟ لم تسألني عن المفتاح، أو تفاصيل الوصية، أنتَ تعرف بشأنهما، أليس كذلك؟

- فلنفترض أنني أعرف.

تبًا لهذا الغموض، ألا يستطيع هذا المخلوق أن يكون واضحًا؟! حاوَلَتْ التحلِّي بأقصى معدلات ضبط النفس:

- إن كنا سنُشكِّل فريقًا يجب أن نتعاون معًا، يجب أن تعطيني كل المعلومات التي لا أعرفها عن القصر وعن الباشا.

- لم أوافق بعدُ على أن نكون فريقًا.

لم تسمح لليأس بسحق آمالها:

- لكنك ستُفكِّر في الأمر، أليس كذلك؟

- لماذا الفوز بهذا القصر مهم جدًا بالنسبة لكِ؟

لم يُمهلها فرصة للجواب، استدركَ:

- معذرة.. سؤال في غير محله، فأفعالكِ تفضح نواياكِ الخبيثة.

يا لها من فتاة شَرِهة مُتعطشة للثراء! تضع عينها على ما يملكه الآخرون، تزوِّر اسمها، تكذب، وتخدع، وتحتال في سبيل المال!

انتفض كأنما لدغه جشعها، كم يشعر بالتقزز منها ومن أمثالها! سئم الحديث، توجه لباب المطبخ دون تحية مغادرًا؛ وجَّهتْ إليه أوامرها حِفظًا لماء الوجه:

- لا تُكثِر من الملح، لا أحب الطعام المالِح.

صفعها والباب في وقت واحد:

- هذا الطعام ليس لكِ.

(((درية هانم)))

الألم الملتف حول كتفها الأيمن أصبح غير محتمل، زادها ذلك عصبية، فحوَّلتْ غرفتها إلى محرقة سجائر!

الغرفة لا بأس بها، بل جيدة جدًا في الواقع، عليها أن تكون أمينة، القصر كله قطعة من الفخامة الأوروبية، وهي التي كانت تظن زوجها المرحوم أغنى رجال الأرض، حين قدمت إلى بيته للمرة الأولى وهي ابنة الثامنة عشر، يا لها من ساذجة!

دائمًا ما تُعيد تلك الذكرى غصة مريرة تستقر في منتصف حلقها، لم ترتد فستان زفاف أبيض مثلما تمنَّتْ، ولم تُزَف سوى بزغرودة واحدة من أمها عنَّفها زوجها البك بعدها، فلم تفتح فمها ثانية. لم تسمع كلمة حب، ولم يرتعش قلبها فرحًا.

يوم زفافها كان أشبه بالمأتم، أو تنفيذ حُكم في مجرم يُساق إلى زنزانته، لكن ما هو جُرمها؟ كيف لا تفرح ابنة الثامنة عشر بالهدايا والعطور والملابس التي أغدقها البك عليها؟ كيف لا ترغب في المزيد؟ كيف لا تشتهي العيش في فيلته الراقية بالزمالك، وتصير واحدة من بنات المجتمع الراقي؟! بالطبع اشتهتْ، ولم تر في اشتهائها جُرمًا، كيف تستقبحه بينما تبخ أمها الجشع في أذنيها صباحًا وعشية.

ألن يتوقف هذا الألم؟ ضغطتْ بكفها فوق كتفها تُخرس أوجاعه.. عصرته.. خنقته.. قرصته، لكن الألم استمر في جَلدها.

فتحت علبة جديدة، وأشعلت سيجارًا آخر، اكتسبتْ تلك العادة ليس عن اشتهاء، أو رغبة حقيقية في التدخين، فقط لتُحاكي غيرها من النساء اللاتي اعتادتْ مخالطتهن في الحفلات التي كان يصطحبها إليها زوجها البك، كي يتوقفن عن همزها ولمزها بـ «ابنة الحارة». أما الآن باتتْ لا تستطيع التنفس بغير دخَّان سجائرها. تركتْ خلفها طباعها وعاداتها القديمة، واكتسبت كل ما يمكنه أن يجعلها واحدة من أولئك النسوة الثريات، شاركتهن مجالس السمر، ورافقتهن في الحفلات والرحلات، حتى اسمها بدَّلته، من «نفيسة» ابنة الحارة إلى «درية» هانم زوجة البك.

هل يُمكن للإنسان أن يموت ألمًا؟ ماذا تفعل الآن ولا يوجد حكيم في القصر؟ لعل بالعزبة مستوصف، فقط لو يهدأ الألم بعض الشيء لتتمكن من مغادرة الغرفة، وتسأل «أنيس» كبير الخدم عن أقرب حكيم.

الآن وقد علمَتْ أن أمها ابنة باشا ثري، لن تغفر لها أنها دفعتها إلى تلك الزيجة مُستغلة حداثة سنها، ستلعنها إلى يوم الدين، لم تكن أمها بحاجة إلى أموال البك، ولا إلى نفوذه وسلطته، لماذا لم تخبرها عن جدها الباشا؟ لماذا لم تلجأ إليه في أسوأ أوقاتهم هي وأختيها؟ بدلًا من أن تُلقي بها تحت قدمي رجل مُتصابي في عُمر أبيها يُعاملها كواحدة من التُحَف التي يحرص على جمعها في بيته.

عليها أن تفوز بهذا القصر، ستُرممه وتجعل واجهته على الطراز الفرنسي، مثل قصر الزعفران الذي يطل على حي العباسية، والذي بُني على طراز قصر فرساي الفرنسي، هامَتْ به حُبًا حين رأته مع زوجها لأول مرة، واجهاته معشَّقة بنوافذ وشرفات، زخارف بهيئة فروع نباتية وأكاليل زهور، أسقفه ملونة بألوان السماء.

حين يكون القصر من نصيبها، ستجعل منه تُحفة فرنسية يتحاكى الناس عنها، حتى يصل اسمها إلى آذان الملك، والأمراء، والنبلاء، فيعلو شأنها بين خصوص الخصوص. لم يعد بوسعها تحمُّل الألم أكثر، تحاملَتْ على نفسها ونزلتْ الدرج برويَّة، قابلتها تلك الفتاة التي لم تنزع فستانها الأزرق منذ ليلتين! تتمايل كالسكارَى في حذائها ذي الكعبين، تُشبهها كثيرًا في بداية زواجها من البك، كانت تتصرف بالسذاجة نفسها وهي تحاول أن تدس نفسها دسًا وسط نساء الطبقة الراقية، كم سخرن منها، كم ألقين النكات في ظهرها، كم احتقرنها!

لا ترغب في رؤية تلك الفتاة الريفية أبدًا، لا ترغب في تذكُّر نفسها القديمة بعد أن كفَّنتها ودفنتها منذ سنوات.

بادرتها الفتاة وقد لاحظت أمارات المعاناة على وجهها:

- «درية» هانم.. ماذا بكِ؟

لم يكن لديها الوقت ولا الطاقة لشرح آلامها للفتاة:

- لا شيء، ألم تري «أنيس»؟

- كلا، ليس في المطبخ، ولا في غرفة الطعام، ولا في الحديقة، أظنه لم يستيقظ بعد.

انفعلتْ وهي تُخرج سُحبًا دُخَّانية متقطعة من فمها:

- وهل يجري أي شيء في هذا القصر بشكل طبيعي حتى يستيقظ رئيس الخدم قبل أسياده!

أزعجها اهتمام الفتاة وهي تقول:

- إذا كان بإمكاني مساعدتكِ في أي...

لم تكن في مزاج يسمح بتحمل اهتمام زائف؛ قاطعتها بحدة وهي تكمل طريقها للبحث عن كبير الخدم:

- لا أحتاج مساعدتكِ.

بحثتْ عنه في المطبخ فلم تجده، وفي الحديقة دون أثر، لكن عندما عادتْ إلى القصر ثانية وجدته يخرج من الطبخ بوقاره المعهود، تعجَّبتْ بشدة، كيف دخل المطبخ دون أن تراه؟. أغلظَتْ عليه القول، مُطالبة إياه بإحضار حكيم في أقرب وقت. عادتْ إلى غرفتها بمزاج سيء، انتبهتْ إلى عُلبة سجائرها فوق الطاولة، تذكُر جيدًا أنها تركتها مع القداحة فوق حقيبة يدها الموضوعة على المقعد أمام الطاولة.

شخص ما دخل غرفتها في غيابها، حرَّك علبة السجائر والقداحة ليتمكن من فتح الحقيبة، وفي خضم عجلته نسى أن يعيدهما كما وجدَهما. سارعتْ بفتح الحقيبة، وفَض محتوياتها، لا شيء ناقص، مالها، هويتها، ومتعلقاتها الشخصية كما هي! عمَّ كان يبحث هذا المُتسلل إذن؟ ومن يكون؟!

((حسين))

هو أحد أولئك الذين لا ينظرون إلى السماء، تتعلَّق نظراته دومًا بالأرض، ترابها، أحجارها وأقذارها. اعتاد على عد خطواته في طريقه إلى شيخ الكُتَّاب، طريق طويلة كان عليه أن يقطعها ذهابًا وإيابًا، يبخل والده عليه في ثمن تذكرة الترومَّاي، ويخشى التعلُّق مثل أصدقائه بجوانب «الكهرباء» أثناء سيره؛ فكان مصيره قطع هذا الطريق مرتين يوميًا.. وحيدًا!!

لم يكن والده ممن يهتمون بالتعليم، فالصنعة عنده أهم من الكتب، لكنه لم يتوانَ عن إرسال «حسين» لشيخ الكُتَّاب؛ يخلفه في حفظ كتاب الله، كيف لا يكون ابن الحافظ حافظًا؟ لن يترك لجيرانه الشامتين من أرباب «قهوة عصافير» فرصة للانتقاص منه. «حسين» الذي كان نهمًا للحفظ في بادئ الأمر، أصبحت الآيات والسور تتساقط من عقله وكأنها تمر عبر منخل، مع كل مرة كان يهجم فيها أبوه على أمه وأخواته البنات. لم يستطع والده وقف هذا التسرُّب قط، لا بالسب، ولا بالضرب، وعندما يئس من ابنه البليد أخرجه من الكُتَّاب وألقى به في ورشة حدادة، ثم نجارة، ثم عاملًا عند الإسكافي في أول الحارة، ثم صبي بقَّال، وأخيرًا كوالنجي. الصنعة التي لم يحبها قط، ولم يجد لها نفعًا؛ ميَّزته الآن عن باقي أحفاد الباشا.

تمتم وهو يقضم ظفر سبابته:

- لن يعود أي شيء كما كان سابقًا، سأنقذ أمي وأخواتي البنات.

فشل أبوه كذلك في أن يمنعه من عادته الذميمة في قضم أظافره، لم يرغب في منعه منها حفاظًا على مظهره أمام الناس، بل لأنها كانت تُصيبه بنزلات معوية يضطر معها إلى الإنفاق على علاجه. جرَّبَ وضع الشطة على أصابعه.. ربطها بالشاش.. حتى كسَّرها بعصاية الغليَّة، لكن كل ذلك لم يُوقِف «حسين» عن تلك العادة المقززة.

دنا «حسين» من باب القصر، وتأمَّل ثقب المفتاح، قدَّر أنه بحجم كف اليد طولًا، وبعرض إصبعين أو ثلاثة.. ربما، وبارتفاع سنتيمتر واحد تقريبًا، أما مادته يُمكنها أن تكون أي شيء؛ معدن، حديد، ذهب، فضة، زجاج، رخام وحتى الخشب!

أفزعه مواء قط أشبه بالعويل، رآه يجري في الحديقة، ظنَّ أن كلبًا يطارده، لا يخشى «حسين» الكلاب، كانت ترافقه أحيانًا في طريقه إلى الكُتَّاب، خاصة في الصباحات الباكرة.

لم يكن كلبًا ما يهاجم القط، بل قطًا آخر أكبر حجمًا، ربما اختلفا على حصة طعام، أو تحديد منطقة نفوذ كل منهما. القط يجري مذعورًا، يحاول النجاة من بطش القط الأسمن عبثًا. استيقظ بداخل «حسين» دافع قوي لإنقاذ القط المسكين؛ انطلق يجري خلفهما، يحاصرهما من زاوية إلى أخرى، تمكَّن أخيرًا من الانقضاض على القط المذعور، رفعه بعيدًا عن فم القط السمين الذي يحاول استعادة غريمه ليُكمل العراك.

- أأنت بخير يا صغيري؟ هل آذاك هذا «المأفون»؟

القط ما يزال يرتعد، لا يأمَن ذراعي «حسين» الذي أطبق عليه بإحكام:

- هل أنت جائع؟ أنا أيضًا جائع، يبدو أننا الاثنان الوحيدان اللذان استيقظا باكرًا في هذا القصر، هيا.. فلنذهب معًا إلى المطبخ.

التفَّ حول القصر، دخل إلى المطبخ عن طريق بابه المؤدي إلى الحديقة الخلفية، على النار وجد قدرًا يغلي، به مكعبات من طعام ما، لعلها بطاطا، رأى بعض الجبن والبيض فوق الطاولة، فتح الجبن، اقتطع منها، ثمَّ قربها من فم القط؛ تقزز القط من رائحتها، ورفض على جوعه أن يمسَّها بلسانه:

- قط شره.

بادره «عادل» الذي دَلَفَ إلى المطبخ عبر باب الحديقة الخلفي، ثم أطفأ النار تحت القدر:

- صباح الخير، يلزم خدمة يا حضرت؟

ردَّ «حسين» التحية بودٍ:

- صباح النور، أنتَ الجنايني، تقابلنا في حديقة القصر عندما أتيتُ إلى هنا.

- نعم، أذكر.

ولم يزد «عادل» عن ذلك، دنا منه «حسين» متوددًا، يمد له كفًا بحماس:

- لم نتعرف جيدًا يومها، حتى أنني لا أعرف اسمكَ.

صافحه «عادل» بحذر:

- أنا «عادل».

- ممنون يا «عادل» أفندي.

ثم سأله بغتة:

- هل تعرف عادات الباشا في الاحتفاظ بالأشياء القيمة؟

ما إن نطق «حسين» بسؤاله حتى كتم فمه بكفه، قال:

- هذا غش، أليس كذلك؟ لا يجب عليّ أن أستعين بأحد من أجل إيجاد المفتاح، تعرف طبعًا بشأن الوصية، فريقي يضم «درية» هانم و«محفوظ» أفندي الضابط، اختارتني «درية» هانم بنفسها، قالت: «أريد «حسين»»، هكذا نطقَتْ اسمي دون غيره.

استدار «عادل» استدارة كاملة ليواجهه، لا يبدو أنه شاب يتصنع الوَرَع، بالعكس.. بدا بلا تجارب اجتماعية.. طيبًا حد السذاجة.. ضعيفًا حد الهشاشة.. ثرثارًا حد الحماقة، وهذا النوع أحيانًا أخطر على المجموعة من القوي الخبيث! فالقوة تُسقطها ضربة قاضية، أمَّا الحماقة فقد «أعْيَتْ من يُداويها»!

انتقلتْ أنظار «عادل» إلى القط الذي يحاول «حسين» أن يطعمه الجبن قسْرا ثم أمره أن ينتظر، أخرج من الثلاجة نصف سمكة، وضعها أرضًا في زاوية المطبخ؛ أفلتَ القط نفسه من يدي «حسين» وهجم عليها يأكلها بشراهة. انفرجتْ أسارير «حسين»، وامتلأ قلبه زهوًا، لقد نفع في شيء، أنقذ القط من مخالب غريمه، وساعده على مِلء وعاء بطنه. ثم ما لبثتْ أمارات الألم أن احتلَّتْ مكانًا بارزًا في وجهه، لو كان بإمكانه أن ينقذ أمه وأخواته السبع مثلما أنقذ هذا القط لانتفخ صدره فخرًا طيلة حياته.

عندما عاد «حسين» إلى باب القصر يتفحَّصه مرة أخرى، انتبه إلى الشيء الذي غاب عنه في المرة الأولى.. تلك النقوش البارزة التي تُزين الباب ليست حفرًا، ليست خشبًا من الأساس. فحصها بدقة أكثر، واستخدم مفتاحه ليُقشِّر جزءًا بسيطًا من الطلاء الذهبي بعد أن تأكد من أن الحديقة خالية من المُتطفِّلين، لا يرغب بالتأكيد في أن يُقبَض عليه متلبسًا بإحداث تلف في الباب، فيُحرَم من الوصية.

يا الله! ثمة مادة قاسية، مُتعددة الأحجام والأشكال لُصِقَت بالباب بأكمله، تتخذ أشكالًا زخرفية بارزة، مطلية باللون الذهبي.. ليستْ خشبًا.. ولا معدنًا.. ولا رخامًا.. ولا ذهبًا!

إنها عظام!

هذا الباب مُرصَّع بعظام.. بشرية أو حيوانية!

«البرنس «رستم»»

لا يهوَى الكلام، يُفضِّل الصمت أكثر، ليس لأنه رجلٌ قليل البضاعة، ضحل المعرفة فحسب، بل لأن الصمت يضفي على صاحبه رداءً من الهيبة والوقار والثقة بالنفس أفاده كثيرًا. خاصة أن جسده الضئيل الذي يشبه جسد طفل لم يتخطَّ الثانية عشرة كان مبعثًا للسخرية من الجميع. الاحترام الذي لم يحصل عليه بشكله وكلامه اكتسبه بحسبه ونسبه، بحفلاته وأمواله!

لم يفهم أحد قط نفسيته المُفككة، روحه إبريق وقع وانكسر وفشلتْ أجزاؤه في الالتحام ببعضها مرة أخرى. ولم يكن بحوزة أبيه الباشا الغراء المناسب لجبر الكسر، بل لم يدرك أن هناك كسرًا من الأساس؛ كانت حياة الباشا تدور في فلك خاص به، منعزل عن الناس أجمَعين. لو بقيتْ والدته في مصر، واستمرتْ في حياتها الزوجية مع أبيه، لربما حظى بهذا الغراء، لكن أمه فضَّلتْ النجاة بنفسها مع زوج آخر، إلى «فرنسا» مدينة العشق والجمال، تاركة إياه مع أب لا يعرف من الأبوة سوى أنها اسم يُضاف في شهادة ميلاد طفل حديث الولادة. لم يسامح والدته قط، ليس لأنها انفصلتْ عن أبيه بعد زواجه من امرأة ثانية، بل لأنها كانت من الأنانية إلى الحد الذي جعلها تتركه خلفها وهو ابن العشر سنوات، فقط لأن زوجها الجديد لم يرغب بطفل ليس من صلبه، كان منطويًا ومختلفًا عن بقية الأطفال.

أحيانًا يُعطيها الحق في غضبها، زوجة ثانية تعيش معها في القصر، ليس هذا فحسب بل زوجة فلاحة ابنة فلاح. وبعد أن كانت سيدة القصر الوحيدة، طفقتْ إحدى فلاحات عزبة «العبيط» تُشاركها أنفاسها فيه. أغضبتها زوجة واحدة فطلبتْ الطلاق، لم تعرف وقتها أنه سيكون هناك زوجة ثانية، وثالثة، ورابعة، وخامسة، وسادسة، وسابعة! كلهن فلاحات من عزبة «العبيط»، كن أبكارًا.. صغيرات السن.. حملنَ بالبنات! ما إن تلد إحداهن حتى تموت بين ليلة وضحاها في حادث عجيب، فشل لسنوات في أن يفك لغز موت زوجات أبيه الفلاحات!

ألقيتْ الزوجة الأولى، والطفلة الأولى بداخله بذرة الكره، ومع كل زوجة جديدة وطفلة جديدة طفقتْ البذرة تنمو وتكبر وتلتف حول روحه مثل لبلاب سام، لا فكاك منه. كم كره أطفالهن، وصراخهن يسري يوم ولادتهن في أرجاء القصر، يقض مضجعه، لم يرَ إحداهن كأخت له، لم يلاطفهن أو يلاعبهن ولا مرة، كُنَّ بالنسبة له غريمات جئن يُشاركنه اسم أبيه وثروته، كرههن جميعًا، وكره أباه، وكره نفسه كذلك!

مرَّتْ حياته كلها يسأل نفسه سؤالًا واحدًا: «إذا كان أبوه الباشا يبحث عن ابن ذكر يحمل اسم العائلة، ويصون أموالها من بعده، فلماذا لم يكتفِ به؟! أولئك الفلاحات لا يمكن البحث عندهن عن نسب، أو سُلطة، أو مال.. أو متعة! ماذا غير الولد إذن؟! لم يعرف حقيقة الأمر إلا حين التقى بـ «الأعور» منذ شهر تقريبًا، عندها عرف سِر الباشا، وسر موت زوجاته السبع!

دفعته ثلاث طرقات متتابعات على باب غرفته إلى أن يُغلق دفتر مذكراته، وقد كان على وشك أن يضيف إليها فصلًا جديدًا، منحته

الكتابة ثقبًا في روحه، مكّن إفرازات الغضب من أن تتسرّب منه كل فترة، لو لم يحدث ذلك لماتَ منذ زمن بتضخّم في غُدده النفسية!

فوجئ بـ«محفوظ» أمامه، جذبه بحدة من قميصه، ثم أغلق الباب:

- هل جُننتَ يا «محفوظ»! ماذا إن رآك أحدهم وأنتَ قادم إلى هنا؟

أجابه «محفوظ» ساخرًا، وهو يتخذ من فراشه مقعدًا:

- سيقولون إنني جئتُ لألقي تحية الصباح على خالي البرنس..

- «بونجور» يا خال.

انفعل البرنس:

- لا تتماد، أنت تخاطر بكل شيء.

وقف «محفوظ» وقال مُلطِّفًا:

- لا تقلق يا خال، لم يرني أحد، الوقت مبكر، لا أظن أنهم قد استيقظوا بعد.

ثم استطرد:

- ربما تلك الفتاة «حُرة»؛ فهي فلاحة معتادة على الاستيقاظ مُبكرًا، لكن على كل حال لا تقلق.. لا يمكن لأحدهم أن يُخمِّن أن هناك أمرًا يجمعنا غير قرابة الدم.

أطلق بغتة ضحكة عالية، قال:

- من كان يصدق أن «القصر الأسود» الذي كنت أسمع عنه مئات الحكايات في صغري، والذي كنتَ أخشى مجرد الاقتراب منه.. أدخله مُعززًا مُكرَّمًا كحفيد للباشا.

ثم استطرد، متطلعًا إلى عيني البرنس بقوة شامتًا، يمسح شاربه الكث بأصابعه:

- حفيد تم الاعتراف به أخيرًا.

لم يرغب البرنس في خوض هذا الحوار:

- فلنترك الماضي للماضي، نحن أبناء اليوم.

لكن هيهات، كيف لـ «محفوظ» أن ينسى استجداءه الحب والعطف من جده الباشا؟ أن يسمح له فحسب بزيارته في القصر، أو بمنحه الحلوى كما يفعل أجداد القرية مع أحفادهم الصغار، لكن الباشا غليظ القلب كان يرده خائبًا.

ذات مساء تسلل «محفوظ» إلى القصر في غفلة من حارسه، لم يكن هدفه تسول العطف تلك المرة، بل نهب خزينة الباشا، التي ولا بد أنها تعج بالذهب والمجوهرات، كان وقتها قد أتمَّ الثالثة عشرة. من سوء حظه كان الباشا يجلس في التراس لوقت متأخرٍ؛ قبض على «محفوظ» على الفور، وأمر حارسه أن يُعلِّقه على بوابة القصر، ويربطه فيها بالحبال، ثم أخذ يضربه بالكرباج حتى بلغ صوت صراخه أهل العزبة.

أتت أمه تزحف على يديها وقدميها، تُقبِّل قدم الباشا ليترك ولدها، وتستجديه:

- سامحه يا باشا، عبيط وغلط، ألسنا من عزبة «العبيط»؟ أحب على يدك يا باشا اتركه، لوجه الله اتركه.. ولن يأتي إلى هذا القصر مرة أخرى.

أنزل الباشا الكرباج على ظهرها هي الأخرى، صائحًا:

- أنتِ السبب، لو لم تملأي عقله بالكلام الفارغ لما جرؤ على التسلل إلى قصري.

- في عرضك يا باشا، لن يفتح فمه مرة أخرى، أنتَ لستَ أبي، وهل يُعقل أن تكون أبي؟! خالتي كاذبة وابنة كاذبة، هي التي ملأت رأس الولد بهذه الأكاذيب وهي على فراش الموت، سامحها الله، أقبّل يديكَ يا باشا.. اتركه.. ولن ترى وجهه مرة أخرى أبدًا.

لكن ابن الثالثة عشرة عندما غادر القصر تلك الليلة، صمم أن يعود إليه ثانية مرفوع الرأس. خالة أمه التي يعتبرها جدته لم تكذب عليه طيلة حياته حتى تكذب وهي تحتضر، ما زالت كلماتها ترن في أذنيه:

- اسمع ما أريد أن أقوله لك يا ولدي فبعد قليل سأقابل وجهًا كريمًا.. أنتَ حفيد «كاظم باشا البارودي»، وأمكَ ابنة له.. من صلبه، تزوّج من جدتك على سنة الله ورسوله، تزوجهن جميعًا على سنة الله ورسوله، أنتَ حفيد شرعي له!

لم تخبره أكثر من ذلك، إذ عاجلها ملك الموت، يسرق منها كلمات لم تتمها. أعاده البرنس إلى الحاضر عندما قال بنفاد صبر:

- قل لي.. ما التقدم الذي أحرزته حتى الآن؟

- ليس بعد.

احتد البرنس، وهو يقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا:

- وماذا تنتظر؟ ليس لديّ وقت، يجب أن تدخل بينهم، أن يثقوا بك ويروا فيك صديقًا لهم فيبوحون لك بأسرارهم، يجب أن أحصل على ذلك المفتاح.

- سأفعل، ولكن لا داعي للعجلة.

- طالما الأمر كذلك.. لماذا أزعجتني في هذا الوقت؟ ماذا تريد؟

- معذرة يا جناب البرنس، لكنني أحتاج إلى الخروج من القصر.

احتد البرنس أكثر، حتى نسي أن صوته العالي قد يتسرب من الطابق الثالث حيث غرفته، إلى الطابق الثاني حيث غرفهم:

- هل تمزح؟ أنسيتَ شروط الوصية التي قيلَت أمام الجميع بالأمس، لو رآك أحد منهم خارج القصر سيطالبون بإقصائكَ منها.

- لا تخش شيئًا، لن يروني، ثم أن خروجي مهم.

- لماذا؟ هل أوحشتكَ عشيقتكَ السرية في العزبة.

هذا البرنس لا تخفى عليه خافية، يعرف إذن بعلاقته الآثمة بإحدى فتيات العزبة، تجعَّدتْ قسمات «محفوظ» ضيقًا. أجاب بجملة واحدة:

- سأقابل «الأعور».

تلذذ «محفوظ» لمرأى الرعشة التي أصابت جسد البرنس، والخوف الذي تسرَّب من مسامات جسده، حتى فاحت رائحته في الغرفة. ثم أردف وهو ينحني باحترام مصطنع:

- والآن اعذرني جناب البرنس.. أقصد يا خال، يجب أن أذهب، لا أريد أن أتأخر على ميعادي مع «الأعور» فيغضب، أنت لا تريده أن يغضب، أليس كذلك؟

ابتلع البرنس كل اعتراضاته في جوفه، أغلق باب غرفته بإحكام بعد مغادرة «محفوظ»، توجه إلى الطاولة الصغيرة، فتح دفتر مذكراته، أمسك بالقلم، واستهلَّ اليوم بهذه العبارة:

«يجب أن أحصل على المفتاح.. فحياتي مرهونة به!»

«شحاتة»

أغلق نافذة غرفته بإحكام، والتي تطل على الحديقة الخلفية للقصر، تساءل وقد تجعَّد وجهه تقززًا: «كيف يمكن لنعمة من نِعم الله أن تتحوَّل إلى نقمة بهذا الشكل؟!».

يومًا ما سيفقد عقله ويمسك بسكين الجِزارة الحاد ويقطع أنفه، ثم يدفنه في بطن بئر مهجور، ويحيل فوقه التراب! لعنته منذ الصغر هي أنه بدين أكثر مما ينبغي، غضوب أكثر مما ينبغي، حاسته الشمِّية قوية أكثر مما ينبغي، وتلك الأخيرة كانت أكثرهن إفسادًا لحياته. ما يزال يذكر يوم زفاف صديقه، وبينما الجميع منغمس في الطبل والزمر والرقص والأكل.. اشتمَّ هو رائحة عفونة تنبعث من الطعام؛ أخبر العريس على استحياء، والذي أعدَّها إهانة لا تُغتَفر، وأقسَم عليه أن يأكل من الطعام كي يمسح عن جبينه تلك الإهانة، فاضطر «شحاتة» إلى تناول ملعقتين فحسب، وكانت النتيجة أنه الوحيد من بين المدعوين الذي أصابه تسمم غذائي، وقضى الليلة في المستوصف يغسل معدته، لو لم تكن حواسه مُرهفة بهذا الشكل لتمكنت معدته من هضم الطعام الفاسد مثل أي معدة مصرية تحترم نفسها!

حين طلب من «أنيس» رئيس الخدم تبديل غرفته التي كانت في الطابق الثاني بغرفة في الطابق الأول؛ كي يُجنِّب نفسه صعود الدرج ونزوله كلما همَّ بدخول غرفته، لم يدرِ وقتها أن هناك عذابًا من نوع آخر ينتظره

في تلك الغرفة، رائحة كريهة تخالط الهواء في إصرار وقح! فتحَ النوافذ طوال الليل، رغم البرودة المتسربة إلى جلده، دون جدوى، لم تنفصل الرائحة عن هواء الغرفة ولا لحظة واحدة.

الآن أمامه خياران لا ثالث لهما.. إما أن يعودٍ إلى غرفته في الطابق الثاني ويتحمل مشقة صعود الدَرَج الطويل المغطّى بسجادة حمراء عدة مرات يوميًا، أو يبقى في تلك الغرفة المجاورة للمطبخ، خاصة أن الرائحة تتدرج حدتها من قوية إلى متوسطة في بعض الأحيان. لم يحتج وقتًا طويلًا للتفكير، أي شيءٍ يُجنِّبه العمل الشاق هو معه ويؤيده،

لكنه أيضًا لن يدع تلك الرائحة اللعينة ترافقه طوال فترة إقامته بالقصر؛ سيأمر «أنيس» بتنظيف الغرفة، وقلبها رأسًا على عقب، سيتابعه أثناء ذلك، وسيُعنِّفه إن أبدَى تكاسلًا، لا أحد يقوم بعمله على الوجه الأكمل إلا إذا ضُربَ فوق ظهره بالكرباج مثل حمار الحنطور. يجب أن يعرف مصدر تلك الرائحة، خاصة أنه بخبرته في الجِزارة يستطيع أن يُجزم أنها تشبه إلى حد كبير رائحة اللحم الفاسد!

التفَّ الجميع حول طاولة الطعام الكبيرة، والتي تتيح لكل واحد منهم أن يجلس على مسافة من الآخر. الطاولات الصغيرة أكثر دفئًا، يلتف حولها الناس على مقربة من بعضهم، تحتك أجسادهم حينًا، وتصطدم أياديهم أحايينٍ أخرى، يتشاركون الصحن نفسه، ويتقاسمون رغيف الخبز ذاته. ترأَّس الصمتُ الطاولة، يتناول الستة طعامهم واجمين في حضرته، أما فطور البرنس فيأتيه على صينية من فضة يضعها «أنيس» فوق طاولة بعَجَلٍ، ويتركها أمام باب غرفته، بعد أن يطرقه بخفة ثلاث.

يعرف «أنيس» أن المحظورات في القصر كثيرة، ومن أهمها أن ممنوع عليه فتح باب مغلق، أو غلق باب مفتوح!

مع سيجارتها الثالثة أعلنت«درية» هانم بوضوح:

- عرفتُ شيئًا مهمًا.

كانت عبارتها كافية لتتوجه كل العيون إليها متسائلة، ينتظرون بلهفة أي كلمة تزيل بعض الغموض الذي يلف مهمتهم، لكن «درية» هانم أستاذة ورئيسة قسم في جذب الانتباه، ومادتها الأهم في هذا القسم تتضمن عدم البوح بالمعلومات المهمة دُفعة واحدة. أقصر الحبال صبرًا هو «شحاتة» بالطبع:

- انطقي.. ماذا عرفتِ؟

لم يكن ذلك كافيًا، البوح أقل لذة من الشعور بعيونهم المُترقِّبة فوق وجهها، وتعلق نظراتهم بشفتيها، في انتظار جوابها. ثاني الحبال قصرًا هي «حورية»:

- هل سننتظر كثيرًا؟ إن كان لديكِ شيئًا فقوليه.

ما يزال ذلك غير كافٍ، تحتاج إلى المزيد، فأعطاها «فؤاد» ما تمنَّتْ:

- كنتُ أشعر أنكِ تخفين أمرًا ما، منذ أن دخلتِ غرفة الطعام والابتسامة لم تفارق شفتيكِ، «درية» هانم جعبتها لا تنفد من الأخبار المدهشة.

أطلقتْ ضحكة عالية، تقول:

- أمَّا «بكَّاش» صحيح.

ثم استندتْ إلى ظهر مقعدها، مُستطردة:

- تحدثتُ إلى أمي بالهاتف منذ قليل.

بدا التوتر في صوت «حسين» وهو يقول:

- أليس ذلك ممنوعًا؟

أجابته بحدة:

- ومن منعه؟ ثم كان يجب أن أخبرها عن مكاني، هل أنا من الشارع حتى أغادر البيت دون أن أخبر أهلي بذلك؟!

سقط في يده، عليه أن يتوقف عن اعتبار الحياة سلسلة من المحظورات، وأن الأصل فيها هو المنع، عليه أن يخرج من تحت عباءة والده، بل عليه أن يمزقها.. لكن، أيمتلك القوة الكافية ليفعل؟

استطردتْ «درية» هانم:

- سألتها عن تلك القصة التي لا تُصدَّق، نهرتها لأنها أخفتْ عني وعن أختيَّ نسبها للباشا، لكنها فاجأتني تمامًا، ليس لديها علم بأي شيء، لم تخبرها جدتي قط أنها تزوجت يومًا من «كاظم باشا البارودي»، ولم تأتِ على سيرة أنها ابنته ولو حتى من الحرام

تلمَّظ «شحاتة» من الغيظ، أخرج علبة «النشوق» من جيبه وهو يقول:

- وهل هذا هو الأمر المهم؟!

قالت مُحَذرة:

- لن أتحدث بحرف واحد إن بدأتَ في العطس!

أعادَ «شحاتة» علبة «النشوق» إلى جيبه على مضض، أردفتْ «درية» هانم:

- إذا لم تخبر جدتي أمي أو أي أحد آخر بهذا الأمر إذن فهناك لغز في هذا الزواج، وكما قلتم جميعكم.. أمهاتكم أيضًا لم يخبرنكم بأي شيء، أنتَ قلتَ ذلك يا سي «شحاتة».. و«حسين».. و«فؤاد».. امممم «محفوظ»؟

سارَع «محفوظ» مؤكدًا:

- أنا أيضًا لم تخبرني أمي أو جدتي بأي شيء عن ذلك.

كذَبَ بأريحية شديدة، لم يُعدَّ الكذب يومًا من الموبقات، بل أداة لتحقيق غاية يُحسن الذكي استخدامها، ويُسيئ الغبي معاملتها، فيرتد عليه وبالها. كانت المنظومة الأخلاقية في رأيه، وما اعتاد الناس على تسميته خطأ وصواب، قابلة للتعديل حسب الحاجة. الخير خير لأنه يجلب الخير.. والشر شر لأنه يجلب الشر، وقوله الصدق الآن في هذه اللحظة سيفتح عليه أبواب الغضب، ويُعرقل مسعاه، ويُفسد ما عكف على إعداده منذ موت الباشا، واتفاقه مع «الأعور»، في هذه الحالة الصدق لا يجلب الخير، هو شر إذن!

توجهَتْ «درية» هانم بالسؤال إلى الشخص الأخير:

- وأنتِ يا «حُرة»؟

وقعت «حورية» في مأزق منذ اليوم الأول الذي قررتْ فيه أن تنتحل شخصية ابنة العمدة؛ حسب منظومتها الأخلاقية، الكذب من الموبقات، ويستجلب لصاحبه غضب الرب، وعذابه. الكذب لا يُنجِّي، بل يعيث في القلب فسادًا، وينكته بنُكتة سوداء، لا تُطهِّرها إلا التوبة والإنابة، والعزم على عدم تكرار الذنب، لكنها مضطرة إليه، إن لم تفعل ستخسر كل شيء، ستخسر حُريتها! وكأن القاهرة ساحرة لعينة تحوِّلها بعصاها السحرية إلى نسخة بغيضة من نفسها!

فكَّرتْ أن ابنة العمدة نفسها لا تعلم أنها حفيدة الباشا، وإلا لما كتمت ذلك لحظة واحدة، ولتعالت عليها بالجاه والنسب أكثر مما تفعل بنسبها لأبيها العمدة، إذن فالست «حلاوة» لم تخبر ابنتها بذلك قط، كل ما عليها أن تفعله هو أن تتقمص دور ابنة العمدة، وتُمرر الصدق على لسان كذوب؛ لئلا تفضحها عيناها غرستهما في تطريز السجادة الحريرية المُصنَّعة يدويًا:

- لم يخبرني أحد بشيء.

كررتْ «درية» هانم قولها:

- في هذا الزواج لغز إذن، زيجات كأنها لم تكن.. هذا شيء يفوق الريبة بمراحل، وكأن الباشا كان يتزوج فقط ليُنجب البنات.

قاطعها «فؤاد» وهو يمعن في التفكير:

- أو الولد، لعله كان يرغب في إنجاب ولد.

عارضته «حورية»:

- لكنه أنجب الولد بالفعل.. البرنس «رستم»، ومن امرأة بنت ذوات، ما الذي يجعله يتزوج من عدة فلاحات لينجب ولدًا آخر.

هزَّ «فؤاد» كتفيه قائلًا ببساطة:

- المشكلة في البرنس «رستم» إذن، لم يرغب الباشا به، لم يحبه، لقد رأيتموه جميعًا، ليس رجلًا طبيعيًا.

قاطعته «حورية» ثانية:

- لو لم يحبه كما تقول لماذا ترك له كل ثروته، في حين أنه قرر أن يستخدم هذا القصر كي يُلاعب به أحفاده؟

استسلم «فؤاد»:

- عدنا إلى نقطة البداية إذن.

وكانت تلك هي اللحظة المناسبة لتلقي «درية» هانم بالمعلومة الأهم:

- هناك أمر آخر قالته لي أمي، فهي تحرص على متابعة أخبار الطبقة الأرستقراطية في نادي الهوانم كما لو أنهم جزء من العائلة، سمعتْ أمي من إحدى صديقاتها في النادي أن البرنس «رستم» يعاني من مشكلة.

انتظرتْ ثانيتين قبل أن تقول:

- البرنس رجل عاجز، لا يمكنه الإنجاب!

صاح «حسين» بحماسة:

- إذن الأمر واضح الآن، أراد الباشا استمرار نسله فتزوج من أخريات ليحظى بولدٍ يحمل اسم العائلة ويأتي للباشا بالأحفاد؛ لهذا تزوج كثيرًا.

اقتنع الجميع بمقولة «حسين»، إلا «حورية»، كانت الوحيدة التي راودها سؤالٌ بلا جواب: «لماذا فلاحات؟!».

تشرق روحها بسعادة كلما رأت «فؤاد»، أو تحدثت إليه، أو تناقشت معه في رسم خطوات بحثهما عن المفتاح في غرف القصر، ما أسعد ابنة

العمدة! ليس بنسبها إلى الباشا، واحتمالية أن ترث القصر فحسب، بل لأنها و«فؤاد» أقرباء دم، بعد أن ينتهي كل شيء، ستنكشف الحقيقة، سيعرف أنها خادمة في بيت العمدة الذي قتلته وفرَّتْ هاربة، وسيصير بإمكان ابنة العمدة أن تكون قريبة من «فؤاد» أكثر، خاصة بعد موت أبيها الذي كان يحول بينها وبين النزول إلى القاهرة.

وبعد أن يتزوج «مرزوق» من ابنة الباشكاتب ربما ينتقلون جميعًا إلى الغورية، حيث يعيش «فؤاد»، هذا إذا لم يفز أحدهما بالقصر، وعندئذ سيعيشون فيه جميعًا جنبًا إلى جنب. مجرد التفكير في كل ذلك دفع بالدماء إلى تشكيل مطارق طفقتْ تضرب رأسها بسرعة وكأنها في سباق محموم.

- عليكما أن تزيحا هذا الدولاب.

قالها «شحاتة» آمرًا، ذمَّتْ شفتيها متبرمة، طيلة اليوم يلقي بالقسم الشاق من العمل على عاتقها و«فؤاد»، لم يبد «فؤاد» أي ضيق وهو يقول:

- لا مشكلة، ساعديني يا «حرة» من فضلكِ.

كادتْ أن تعلن اعتراضها، وترمي بكلمات قاسيات في وجه «شحاتة»، لولا أن شفقتها سبقت غيظها؛ رأته في الغرفة الأولى حين جرَّب زحزحة الفراش فكاد أن يسقط فوقه، ونبتَ فوق جبينه عرق غزير رغم أن الجو مشحون بنسمات باردة، يبدو أنه ليس معتادًا على العمل الشاق، لا تفهم كيف يكون هذا الكسول فتوة الحي كما أخبرها «فؤاد» من قبل؟! أما هي فكانت معتادة على العمل الشاق، ربما أكثر من «فؤاد» نفسه، الذي لاحظ ذلك فقال لها باسمًا:

- لم تتذمري ولو مرة واحدة رغم ما بذلتِه من جهد.. «عَفارِم» عليكِ يا «حرة».

هل بَرَقَتْ السماء بغتة؟

كلا.. هذا الضوء لا يأتي من النافذة المفتوحة على مصراعيها، بل من داخلها!

ضوء مُبهج دام لثوانٍ، تمنَّتْ لو يطول أكثر. ابتسمتْ له، ربما أكبر ابتسامة نبتتْ فوق ثغرها منذ... لا تذكر منذ متى، مرَّ وقت طويل إلى درجة ألا تتذكر آخر مرة تفتحتْ بداخلها تلك الغبطة. اشتمَّ «فؤاد» رحيق السعادة يفوح منها، فاتسعتْ ابتسامته أكثر.

لا تبدو له امرأة مُجرِّبة مثل «درية» هانم، هي أقرب ما تكون إلى زهرة كاميليا برية، تستطيع أن تمضي حياتها في الظل، ولا تحتاج من الشمس إلا الفتات، نبتتْ وسط غابة موحشة، أشواكها حادة، تُرى ما الذي مرَّتْ به حتى تنبت لها تلك الأشواك؟ أما هو فيُفَضِّل الزهور المخملية؛ فهي ناعمة، مُدللة، مُحببٌ لمسها، تَعشق أن يُعتنَى بها، وجودها في مكان يملأه إشراقة، وكأن الشمس بَزَغَتْ بعد غياب، ورغم ذلك فهي قوية، تتحمل الصعاب.. مثل «درية» هانم.

وكان هو زهرة دوَّار شمس، أيادي الشمس قِبلته، يُسلِّم وجهه إليها حيث كانت.

- الله يخرب بيت الباشا، ووصية الباشا، وقصر الباشا، هذه الغرفة أيضًا لا يوجد بها المفتاح اللعين.

دأبَ «شحاتة» على الانفجار بهذا الشكل كلما انتهى ثلاثتهم من تفتيش إحدى الغرف، بقلبها رأسًا على عقب، ثلاث غرف حتى الآن، ثلاث محاولات تجر أذيال الخيبة، تُرى هل الفشل أيضًا هو ما لاقاه الفريق الآخر في نهاية اليوم الأول؟ جرى الاتفاق على أن يتم تقسيم الغرف التسعة والعشرين على عدة أيام، بالإضافة إلى الصالون والتراس

والمطبخ والحمامات، أراد «شحاتة» أن ينتهي الأمر كله في يومين، لكن «حُرة» و«فؤاد» عارضاه بشدة. وضَّح «فؤاد»:

- من الأفضل أن نبحث داخل عدد قليل من الغرف يوميًا بدقة، أفضل من تكدس العمل خلال أيام قليلة.

لكن البحث الدقيق لم يُسفر في يومه الأول عن شيء إطلاقًا، رغم المجهود المُضني الذي بذله الجميع! «شحاتة» هو أكثرهم سخطًا بهذه النتائج الصفرية، لم يحب لعبة البحث عن المفتاح التي أُجبِر على المشاركة فيها، وهو الذي لا ينحني ليلتقط مالًا وقع منه أرضًا، ليس زُهدًا بالطبع، إنما تكاسلًا!

وعندما التقوا ببقيتهم في غرفة الصالون عرفوا من وجوم وجوههم أنهم لم يحصلوا على نتائج أفضل، أراح ذلك الجميع، وقلّص احتمالات وجود المفتاح في غرفٍ أقل.

نبَّههم «محفوظ» إلى الشيء الذي غاب عن إدراكهم جميعًا:

- نحن نعمل ضمن فريق ولكن.. من سيفوز بالقصر شخص واحد فحسب.

ببلاهة تساءل «حسين»، وهو يمسح فوق رأسه قطه الساكن بين يديه:

- ماذا تقصد؟ ألم يخبرنا المحامي أن نعمل ضمن فريق؟

- لم يأمرنا، لقد اقترح علينا ذلك فحسب، ولا أراه نافعًا على الإطلاق.

تساءل بالبلاهة نفسها:

- لماذا؟ كنا فريقًا مدهشًا اليوم، أليس كذلك؟

انتبهتْ «درية» هانم إلى ما رمَى إليه «محفوظ»، خاصة أن «حسين» كان غير ذي جدوى تمامًا عكس ما ظنَّتْ، إذ لم يستطع إهدائهم إلى ما يتعلق بالمفتاح سوى حجمه، ويسمح لهذا القط المقرف الذي عثر عليه في الحديقة بالتحرك معه حيثما ذهب، قالت «درية» هانم:

- ما يقوله «محفوظ» صحيح، ليس علينا العمل ضمن فريق، إذا عثر فريق على المفتاح سيتقاتل أفراده عليه، الأفضل أن يعمل كل منا بشكل منفرد.

لم يكن «حسين» قد أخبرهم بعدُ عن الباب المرصع بالعظام، وعن تفكيره في احتمالية أن يكون مفتاح القصر من المادة نفسها.. العظام، ليس خبثًا منه؛ فهو لا يستطيع التخابث حتى وإن أراد ذلك، وإنما سقطت تلك المعلومة سهوًا أثناء عمله الشاق اليوم ، أشرفت «درية» هانم على عملية البحث، ولم تمد يدها لإزاحة شيء ثقيل من موضعه، تاركة تلك المهمة للرجلين.

أحَبَ «حسين» فكرة الفريق؛ لأنها تنتشله من وحدته، وتجعله يبدو مُفيدًا، ثم أن التنظيم وترتيب الأفكار ليست من خصاله، يحتاج إلى عقل «درية» هانم، وإلى قوة «محفوظ» من أجل الفوز؛ لذلك حاول أن يجعلهما يريا كم هو مفيد لهما:

- نسيتُ أن أخبركم، اليوم صباحًا فحصتُ باب القصر، لفتتْ انتباهي الزخارف التي تغطيه، كان الطلاء متساقطًا عن جزء منها، فأزلته أكثر و...

صاح «شحاتة» الذي اتخذ فوق المقعد وضعية خرقاء؛ أثارت استهجان «درية» هانم:

- أخللتَ بشروط الوصية، ماذا قال محامي الباشا، لا تخريب، صلاة النبي أحسن، نقصنا واحدًا.

عضَّ «حسين» لسانه، يا له من مغفل!

حاول إصلاح الأمر:

- الطلاء كان متساقطًا بالفعل، أنا فقط خربشتُ بأظافري فوقه لأتمكن من الكشف عن خامة تلك الزخارف، فوجدتُ أنها...

قاطعه «شحاتة» مختالًا:

- لا أعذار، هيا.. فليتصل أحدكم بالمحامي، أو لنطلب من البرنس النزول من غرفته لنخبره بتلك البُشرى.

انكمش «حسين» مثل قطة في يوم ماطر، يا له من مُغفَّل، ضاعتْ فرصته بسبب زلة لسان! القط الذي يقبع بأحضانه شعر بتوتر صاحبه، فانكمش هو الآخر. لا تنكر «حورية» أنها شعرتْ بالغبطة هي الأخرى، لقد تقلَّص عدد الورثة إلى خمسة، وهذا يرفع فرصة فوزها. لكن بدا لها أن من الظُلم معاقبة «حسين» على أمر كهذا، فهو في النهاية لم يقم بفعل تخريبي جسيم، ولو كتموا هذا الأمر عن المحامي والبرنس لن يعرفا به أبدًا. بضع خدوش أحدثها بظفره في أحد جوانب الباب، ما المؤذي في ذلك؟

كان السبب في غبطة «محفوظ» مختلفًا؛ أحبَّ رؤية دبيب الخلاف يشق صفوفهم، إذ كيف يتقرَّب إليهم إن كانوا يدًا واحدة في القول والعمل؟ ظل الجو مشحونًا قرابة النصف ساعة، حتى حسمتْ «درية» هانم الخلاف؛ اشتد ألم كتفها إلى الحد الذي جعلها ترغب في إنهاء هذا النقاش فورًا، ثم الذهاب إلى غرفتها، ذكَّرتْ نفسها أن عليها الطلب من «أنيس» مرة

أخرى في الصباح إحضار حكيم إلى القصر، أو أن يُسمح لها بالذهاب إلى المستوصف دون الإخلال بشروط الوصية على اعتباره أمر طارئ.

قالت:

- فلنعرف ماذا اكتشف من وراء ذلك، إن شاركنا شيئًا مهمًا نستطيع عندئذ التغاضي عنه هذه المرة.

ارتخت أعصاب «حسين» أخيرًا، كان على ثقة من أن كشفه كافٍ لإمطارهم بالدهشات، وقد حدث ما توقَّع، ما إن صرح بظنونه عن الباب ومفتاحه حتى كست نُدّف الحيرة رؤوس الجميع، تساءل «فؤاد» عاقدًا ما بين حاجبيه:

- الباب مُرصَّع بالعظام.. ما معنى ذلك؟

لم يجد مُجيبًا عن سؤاله، أما «محفوظ» فتوترتْ قسماته، وطفق يقول:

- هذا كلام سخيف، يظن أنه سيُسكتنا بهذا الهراء كي لا «نَخْبُص» عليه، حسنًا.. سنعفو عنك هذه المرة يا سي «حسين»، وليكن بعلمك هذا هو الخطأ الأول والأخير، هيا.. أمامنا عمل شاق في الغد، تصبحون على خير.

ظنَّ الجميع أن «حسين» واهم في ظنونه، كيف تكسو العظام باب القصر؟ حتى وإن كان الأمر كذلك، فإنه مجرد ذوق غريب لا أكثر، «لولا اختلاف الأذواق لبارَت السلع».

وحده «شحاتة» جمع واحد زائد واحد، وخلُصَ إلى نتيجة بديهية وهي رقم اثنان، فكَّر أن «النشوق» حتمًا هو سبب وضوح أفكاره، وصفاء تفكيره.

عظام عند الباب + رائحة عفونة في غرفته= ثمة بقايا جثة مُتحللة في مكان ما بهذا القصر!

رقَصَ قلبها طربًا عندما عرض عليها «فؤاد» السير قليلًا في الحديقة قبل النوم، ثم سارع بسؤالها:

- أم أنكِ مُتعبة؟

أجابت «حورية» فورًا:

- أنا «عَال» جدًا.

كعادة الحديقة، موحشة جدًا عندما يكتنفها الظلام. لم تشعر «حورية» بالخوف؛ فمن جهة هي معتادة على السير في الظلام، عندما كانت تخرج للبحث عن أبيها في طرقات القرية وحواريها، في غيطها وعند زوايا مبانيها. ومن جهة أخرى هي ليست وحدها هذه المرة؛ «فؤاد» يسير بجواها، نفسًا بنفسٍ، هو من اقترح عليها التجول في الحديقة، تُرى هل يحب صُحبتها؟

لم تكن معتادة على مرافقة صُحبة، تُغزل معها أحاديث وِدّية، رغم ذلك أرادتْ أن تكسر الصمت بصوتها كي لا يملها:

- أظن أن البرنس سيعمل على «تطفيشنا» من القصر قبل أن نعثر على المفتاح.

رانَ بنظراته إليها مستفهمًا؛ وضَّحتْ وهي تشير إلى فستانها الأزرق:

- لم يُبدِّل أيٍ منا ملابسه منذ أن جئنا إلى هنا، باستثناء «درية» هانم بالطبع، الله وحده يعلم من أين تأتي بفستان جديد كل يوم!

باغتها «فؤاد» بسؤال:

- هل القرية مكان لطيف؟ أفكر في زيارتها بعد أن ننتهي من كل ذلك. ارتبكتْ:

- قريتنا؟ لماذا؟

منحها إحدى ابتساماته الساحرة وهو يقول:

- ربما لأنني أحب أن أرى المكان الذي عشتِ فيه من قبل لأفهم أي إنسانة أنتِ، يقولون إن المكان الذي يعيش فيه الإنسان يشارك في تكوين شخصيته وعاداته وطباعه.

اغتمتْ، وازدادتْ الحديقة وَحشة، حثَّها ثانية، فلم تجد مَفرًا من الإجابة:

- قريتنا جميلة.. هادئة، كما يُفترض بالقُرى أن تكون.

سألها ضاحكًا ببشاشة:

- إذن بعد أن ننهي من أمر الوصية سأدعو نفسي نزيلًا في قريتك، وسآكل من يديكِ البط ومحشي ورق الخس باللحمة والمفتَّأة والحنون وفطير بالسمن البلدي، أم أنكِ لا تجيدين صنع الطعام؟

اغتمَّتْ أكثر، أي بط وأي لحم؟ هي لم تتذوق «الزَفَر» لسنوات، منذ أن عافَتْ نفسها لعق العظام المتبقية من غداء العمدة وأهل بيته. انعقد جبينه، يبدو أن صمتها الباهت لم يرقه، هذا هو القسم الأكثر صعوبة عندما تكون برفقة «فؤاد»، اضطرارها إلى المشاركة في حفلة تنكرية تبغضها، اضطرارها إلى وضع مساحيق تجميل. جرَّته إلى زاوية أخرى بعيدة عن حياتها القريبة البعيدة:

- هل أستطيع أن أطلب منكَ شيئًا؟ في الحقيقية أنا أستحي كثيرًا.

استنكَر:

- لمَ الحرج؟ اطلبي ما شئتِ.

استجمعتْ شجاعتها بصعوبة، ليست ممن يثقلون على الآخرين لتلبية احتياجاتهم، لكنها مضطرة، لا يستطيع مساعدتها أحد غيره. تمنَّتْ ألا تبدو أمامه منتهزة للفرص وهي تقول:

- أحتاج إلى مال، مبلغًا بسيطًا.. أقصد.. كبيرًا بعض الشيء، عليَّ دين.. لهذا السائق، هو ليس سائق حقيقة، ربما حارس.. لا أعرف، أنا فقط أريد أن...

توقف «فؤاد» عن السير، نظر إليها وقال مُستهجِنًا:

- «حرة».. أنا لم أفهم شيئًا.

- أنا.. أنا فقط أريد بعض المال.. تسعين قرشًا، واسم الله..

سأردهم إليكَ في أقرب وقت. ثم أكدَّتْ ما بدا لها مهمًا:

- سأرده كما أخذته.. دون ربا، معاذ الله.

أخرج من جيب بنطاله ورقة كبيرة من فئة الجنيه، عارضته لكثرته:

- لكن هذا «يامَا».

دسَّها في يدها، ثم قال:

- لا أريد اعتراضًا، وإن احتجتِ شيئًا آخر لا تترددي في إخباري، نحن في النهاية أبناء خالة.. أليس كذلك؟

أفسدَتْ عبارته الأخيرة سعادتها، كادت أن تهتف بحسرةٍ: لسنا كذلك يا «فؤاد»، ولن نكون أبدًا.

هجم النوم على «فؤاد» وسحبه إلى آخر حدود اليقظة؛ استأذن منها ليذهب إلى غرفته، مُضيفًا:

- غدًا سيكون يومًا شاقًا، عليكِ أيضًا أن تذهبي للنوم.

- سأفعل، ولكن بعد قليل.

لم توَد الانتظار أكثر، يجب أن ترُدَّ الدين لصاحبه. ما إن عبرت الحديقة واقتربتْ من الكوخ حتى ندمتْ على تسرعها، كان عليها الانتظار للصباح؛ تذكَّرَتْ أمر الذئب الذي يتجول حول الكوخ دون غضاضة من صاحبه، ومن يدري، لعله أيضًا يبيت معه فوق فرشته. طرقتْ باب الكوخ مرتين بُعجالة، ولمَّا لم تسمع صوتًا في حينه قررتْ المغادرة، فالصباح رَباح. ما إن استدارتْ حتى أطلقتْ صيحة عالية، بصوت أفزع الطيور النائمة فوق الشجر، ثم هتفت متقطعة الأنفاس:

- أقسم أنك ستقتلني فزعًا يومًا ما، سيتوقف قلبي وأتسطَّح أمامك جثة لا حول لها ولا قوة.

قال «عادل» بصوت اقتبس من الهواء برودته:

- أنتِ التي تظهرين في أماكن وأوقات غير مناسبة.

انقبض صدرها ما إن رأته وسمعتْ صوته، لا تدري لم يحدث معها ذلك، هو ليس مُخيفًا إلى هذه الدرجة، يفوقها طولًا وعرضًا، يملأ بقامته مجال رؤيتها، لكن هذا ليس سببًا كافيًا، ليس دميمًا أيضًا، يقل وسامة

عن «فؤاد»، في الحقيقة لا يُمكن مقارنته بـ«فؤاد»؛ به شيء لا تستطيع تسميته، يتسبب في انقباضة صدرها!

- أنت من يظهر في المكان فجأة من غير «إحِم ولا دَستور»، تتسلل كما لو أنك صياد ينصب فخًا لفريسة.

عادتْ عيناه زرقاوان مرة أخرى، الآن فهمَتْ ما يحدث! إنهما تتلونان حسب وجود الضوء، في الظلام والإضاءة المنخفضة تكونان زرقاوان، أما في الشمس تكتسبان لونًا زمرديًا مشعًا، يا لها من عيون ذئب! يحمل بين يديه بعضًا من أفرع شجر مُقطّعة، ألقى بهم بجوار الكوخ في إهمال، نفّض يديه، ثم قال:

- ومن هي الفريسة؟

إن كان يحاول إخافتها؛ سيرجع خائب الرجاء، هي لا تخشى شيئًا، لا إنسيًا ولا جِنيًا. مدّتْ له ماله قائلة:

- هذا ثمن الحذاء، وأيضًا إكرامية من أجل مساعدتك لي، قلنا إننا فريق واحد.

ظنّتْ أنه سيأخذ المال مع عبارة ساخرة عن التأخير في دفع دينها، لكنه فاجأها بسؤاله:

- من أين حصلتِ على هذا المال؟

لماذا يُصر على إحراجها بهذا الشكل، هل هي مُضطرة لأن تخبره أنها اقترضتْ المال من «فؤاد»؟ حتى وإن أخبرته، حتمًا سيرد بشيء لاذع عن كونها تستغل «فؤاد» وتُخادعه، بينما هي ليست ابنة خالته. احتدّتْ:

- وما شأنك؟ ليس لك عندي إلا مالك، خذه وخلّصني.

تناوله منها، أطلق نظراته من عاليها لسافلها، ثم باغتها:

- ألا تخجلين من عرض جسدكِ في سوق النظرات؟

ارتبكتْ، كيف يفعل ذلك؟ يخل باتزانها، ينقلها من نقطة إلى أخرى بسرعة البرق، يجعل حوارها معه مثل سباق عدو تخرج منه متقطعة الأنفاس:

- أنت قليل الرِّباية.

أسئلته أزعجتها.. نظراته المتشككة أزعجتها.. أنفاسه المسموعة أزعجتها، دارتْ على أعقابها مُغادرة، لكنه أوقفها بقوله:

- ألم يُعلِّمكِ أحد كيف توجِّهين كلمة شُكر لمن قدَّم لكِ يد المساعدة؟

استدارتْ ببطء تواجهه، ما بدا له سؤالاً عاديًا كان سكينًا حادًا يرسم خريطة فوق جرح ملتهب بقلبها، لا تدري اليد التي تمسك بالسكين أن الألم غير محمل، الجروح لا تتكلم، إنها تصرخ فحسب، ولا يملك الجميع مهارة سماع صرخاتها!

لم يُعلِّمها أحد كيف تشكر من قدَّم لها يد المساعدة، ولا كيف تمنح الثقة ولمن تمنحها، ولا كيف تستغني بذراعيها عن ضمة دافئة، ولا أن طرف جلبابها يتشرب العبرات أسرع من ظهر كفها، ولا كيف تُلملِم أحلامها النافقة من الطرقات وتبني لهم ضريحًا في قلبها، ولا أن مصدر الدفء الوحيد لكفيها المُتجمدين شتاءً هو أنفاس حِمارها، لم يُعلِّمها أحد أنها حِمل ثقيل لا يتسع ظهر أحد لحمله.

التجربة وحدها علَّمتها كل ذلك! لماذا حبلَتْ عيناها بغتة بقطرات مالحة؟ ألم تعاهدها على قطع نسلها، كيف تخونَ عهدها؟! تلقَّفت وجنتاها ثلاثة مواليد تَدحرجن فوقها؛ أسرعتْ تُوئدهُن بظهر كفها! انسلَّ الشال عن كتفيها، سقط أرضًا، وكأن عينيها أرادتْ الانتقام منها

لقتل صغارها، فنزعتْ عن جروح ذراعيها سترها. على ضوء مصباح الجاز المُعلَّق على باب الكوخ، لمعتْ الخطوط الطولية والعرضية الداكنة، تتلوّى لترسم خريطة عشوائية، بها قمم ناتئة، وأودية غائرة. أسرعتْ بستر جروحها، تُرى هل رآها؟ هل انكشف سرها؟

بدتْ عينا الذئب جامدتين، لا حياة فيهما ولا روح، طمأنها جموده، جرَّتْ نفسها بعيدًا عنه وعن كوخه. وعندما دخلت غرفتها كانت مفاجأة كبيرة في انتظارها؛ حقيبة ممتلئة بالملابس الراقية، والأغراض الشخصية الغالية، ملابس ذات أكمام، بخامات تصلح للشتاء، منفوشة من الأسفل مثل فستانها الأزرق، وثلاثة أحذية، كلها لها وحدها، ترافقها بطاقة، كُتب فوقها: «**مع أمنياتي بإقامة جيدة في القصر.. البرنس «رستم»**».

مُشبعة بالهواجس طرحَتْ على نفسها سؤالًا: «لماذا يُسهِّل إقامتها في القصر، فيزيد ذلك من فرصها في العثور على المفتاح؟ ما الذي يسعى إليه هذا الرجل؟».

((الأعور))

يدعوه أهل عِزبة «العبيط» بـ «الأعور»؛ تختفي عينه اليُسرى دومًا خلف عصبة سوداء، لا يذكرون كيف ومتى فَقَدَ عينه، لو سألتهم ليقولون إنه عندما وُلِدَ كانت تلك العصبة ملتصقة به التصاق حبله السُّري، وعندما مزَّقَتْ القابلة مشيمته نسيَّتْ أن تنزع عن عينه عصبتها، وحدها «براخا» اليهودية كانت تعرف كيف ومتى! يبغض «الأعور» العزبة ورائحتها، يَعافَ ناسها وحماسهم حين تدُب فيهم أحلام الشبع، لا يذكر الأجداد متى كانت آخر مرة نامت فيها بطونهم بغير قرقرة، لكن «الأعور» يعرف، وكذلك «براخا» اليهودية.

ولأن ذاكرة الأجداد سريعة العَطَب؛ نسوا كيف يكون الشَبَع، ونسجَتْ عنه الجدَّات مواويل وحكايات، يَقُصَّنها على الأطفال عند شَط الترعة ساعة المغربية، عن طفل جميل اسمه شَبَع، كان يسكن البطون في قديم الأزمان، فتكَف عن القرقرة، فَرَّ ذات مساء، ويُقال إنه وقع في أسر أرباب القرصنة. وعندما يتساءل الأطفال متى يعود الشَبَع، تُجيب الجدَّات بحسرة أنه لن يعود، لأنه لم يكن موجودًا من الأساس، فما هو إلا أساطير الحالمِين!

يُقيم «الأعور» في بيوت العزبة.. جميعها! لا يجسر رجل أو امرأة على غلق باب في وجهه، لو أراد أن يُزاحم رجل وامرأته في فراشهما؛ لأفسحا له المكان! دون غضب؛ الغضب ذاته أصبح كلمة ضبابية مثل الشَبَح، لا أحد يذكر شكلها.

في عهد جد «الأعور» -وكان اسمه الأعور الكبير- كان الغضب محسوسًا، له طعم ورائحة، يُمكن القول إن فلانًا ساخط، أو علّانًا راضٍ، كان ذلك في زمن الكُرباج الجميل! يصفع ظهور المتمرِّدين ووجوههم، يشق الجلود؛ تبصُق دماؤها الحارة غضبًا. حينئذ كان الناس ما يزالون يتذكَّرون الشَبَح، بل ويجرؤون على مطالبة الباشا الكبير به.. والد «كاظم باشا البارودي» بجلالة قدره! ومن عنفوان نفوسهم، وشطط آمالهم أنهم كانوا يطالبونه أيضًا بشيء «أنتيكي» اسمه «عدالة»! لو ألقيتَ الكلمة على مسامع أهل العزبة الآن، سيظنون أن المُتحدِّث يقصد «عَبَالة»[1].. وسيأتونه بأسمَن بهائمهم متفاخرين!

وفي عهد والد «الأعور» -وكان اسمه الأعور الأوسط- بدأ الغضب يأخذ شكلًا ضبابيًا، لم يعد ثمة كُرباج، إذ اتخذ الأعور الأوسط من زريبة البر الغربي مكانًا أسماه «عقابخانة»، ألقى فيه الخارجين عن أوامره لأيام وشهور وأسابيع وسنوات، ويُقال إنهم حين ماتوا تحرر الغضب من أجسادهم، وصعد إلى السماء مكونًا قبة ضبابية فوق العزبة، حجبتْ المطر لعشر سنوات.

أما الأعور الصغير -وكان يكره أن يدعوه الناس بالأعور الصغير- فلم يستخدم الكرباج، وأعاد البهائم إلى زريبة البر الغربي، لم يكن بحاجة إليهما، إذ بدأتْ تظهر سُلالات جديدة من أهل العزبة، أكثر قدرة على

(١) بدانة، ضخامة.

التكيف مع القوانين، لا تعرف كيف يكون الغضب، وتجهل معاني كلمات مثل: شبع، وغضب، وعدالة!

كان الأعور الكبير سليم العينين، لكنه يكيل بمكيالين، في بداية حياته حين عمل بتجارة العَلَف بعزبة «العبيط» كان يغش في الميزان، ويبخس الناس أشياءهم، يرى حقه، ويغض طرفه عن حقوق الآخرين؛ فأسموه بالأعور. وكان أول من أدخل الربا إلى عُرف العزبة؛ عندما يضيق الحال بالفلاحين يقرضهم المال بالربا، يعطيهم قرشًا ويأخذه قرشين!

في البداية -عندما كان الناس ما يزالون يعرفون الغضب- كان يثور عليه أكثرهم، ويُطالبون الناس بعدم الاقتراض منه؛ لأن ماله حرام نجس، وكانوا يصيحون في المُقترضين: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾[1].

في تلك الأزمان كانت الحرب ضروس بين الأعور الكبير وهؤلاء الفلاحين الغاضبين، يسبون الأعور في الطريق المؤدي إلى البندر، أو في دُكانه، ويبصقون في وجهه في وسط السوق، عندئذ تعلَّم الأعور الكبير كيف يحمي نفسه، أمسك للمرة الأولى كُرباجًا في يده، لم يكن كُرباجًا عاديًا، بل بروحين، يضرب مرة؛ فيؤلم مرتين، وكأنه يُرابي بضرباته مثلما يُرابي بأمواله!

واستخدم لحمايته فتوّات يتقاضون المال، يُمسك كل واحد منهم بنبوت طويل، وأحيانًا يخفون في ملابسهم أمواس حلاقة، أو أسلحة بيضاء فتاكة. مرت سنوات على هذا الحال، ثم مات الأعور الكبير.

(١) سورة البقرة، الآية ٢٧٦

أصبح ابنه الأعور الأوسط مُرابيًا أحْنكَ من أبيه، لم يستخدم الكُرباج، واستعان بالزريبة الكبيرة في البر الغربي، محولاً إياها إلى «عقابخانة» لحصار الغاضبين، وكان عددهم أقل مما كان الأمر عليه أيام الأعور الكبير، لم يسبوا أو يبصقوا مثل أسلافهم، بل كانوا يخطبون في المساجد، ويُفقِّهون الناس في الكُتَّاب، وعلى المصاطب إلى لعنة المال الحرام التي ستحل فوق رؤوسهم؛ إن لم يتوقفوا عن الاقتراض من الأعور الأوسط. لم يتبعهم إلا القليل، وهؤلاء ألقوا معهم في غياهب زريبة البر الغربي حتى ماتوا.

ثم ظهرتْ كارثة لم تكن في حسبان الفلاحين المُقترضين؛ شحَّ طرح الأراضي، توقف البيع والشراء، وصار الناس يخلطون الحبوب بالتراب، ويُفتّون الخبز في الماء، عزَّ مالهم؛ فرفضوا تسديد ديونهم! لكن الأعور الأوسط كان لهم بالمرصاد، علم أنه بحاجة إلى ظهر يحميه، رداء فاخر يُلقيه فوق جسده فيهابه الجميع؛ فوضع يده في يد صاحب القصر الأسود، سليل العائلات الكبيرة، ابن البشوات.. والد «كاظم باشا البارودي». كان الناس يتعجبون من ثقة الباشا في الأعور الأوسط، استطاع الأعور الأوسط خلال فترة قصيرة، أن يحوز ثقة الباشا، بحنكته وبراعته في استثمار الأموال، أقنع الباشا بترك الحبل له على الغارب، فأدار بنفسه شئون العزبة كما لو كان هو صاحبها، يجمع المال من الفلاحين، ويُنظم حسابات الأرض وبيع المحاصيل.

وعندما قويت شوكته وتأكد من أن الجميع قد فهم مبلغ قوته، اغتصب أراضي الفلاحين، وبيوتهم، ومواشيهم، ومحاصيلهم مقابل ديونهم، ولم يدع لهم سوى النذر اليسير، الذي يكفي لجعل العزبة باقية على قيد الحياة. اكتنز الأعور الأوسط جبالاً من الأموال، يُقال إنه اشترى بها سبائك ذهب وفضة، ويُقال إنه أودعها أحد البنوك الأجنبية، ويُقال

أيضًا إنه ضارَب بها في البورصة فتضخَّمتْ ثروته أكثر، خاصة أنه ورث عن أبيه أموالًا طائلة كذلك، جناها جُلها من إقراض ماله لأهل العزبة بالربا.

مرَّتْ سنوات على هذا الحال، ثم مات الأعور الأوسط. توقَّع الجميع أن الأعور الصغير سيضاعف ثروة أبيه وجده، وأنه أذكى من الاثنين، يُقال إنه داهية، يستطيع تحويل الرمال إلى ذهب. لم يستخدم الكُرباج، وأعاد البهائم إلى الزريبة الغربية، توقع أهل العزبة أن يضع يده بيد «كاظم باشا البارودي» بعدما أصبح الوريث الوحيد للقصر، لكن الأعور الصغير لم يضع يده في يد «كاظم باشا البارودي»، بل وضعها فوقه! الأعور الصغير كان يتحكم في الباشا كما يتحكم أطفال العزبة في عرائسهم القماشية، لا أحد يعرف سر ذلك، كل ما يعرفونه أن خسارة الأعور الصغير لأموال أبيه وجده أصابته بسعار المال، لا أحد يعرف كيف خسر الأموال، يُقال إن سبائك الذهب والفضة أذابَها الغضب الإلهي واختلطتْ بمياه الصرف، ويُقال إن البنوك الأجنبية قد أفلست، ويُقال أيضًا إن أسهم البورصة ارتدَّتْ على أعقابها خاسِئة!

لم يُصب الأعور الصغير بسعار المال فحسب، بل بسعار القوة، يتحكم في كل شيء، لا أحد يجسر على الوقوف أمام أوامره، ولا حتى «كاظم» باشا نفسه! لا يعرفون كيف نجح في ذلك؟! كيف استأنَس سليل العائلات الراقية، وابن البشوات ليجعله لُعبة في يده؟!

بدأ الأمر عندما خطبَ الجمعة الشيخ «شلش» ناظر العزبة، جرؤ على ارتقاء المنبر، والدعاء على «الأعور» و«كاظم باشا» بصوت زلزل أركان العزبة، وكاد يوقظ في نفوس الفلاحين كلمات مثل الغضب، والشبع، والعدالة! عرف الأعور الصغير لحظتها أن رده يجب أن يكون رادعًا،

قاسيًا، ظلاميًا، كما يليق بالظُلم أن يكون، وإلا تجرأ الفلاحون على تحطيم الساقية، والفرار من دوائر الأقدار التي رسمها لهم.

بعد الخطبة بساعة أو يزيد، خرج الأعور من داره مُحاطًا برجاله، وحرس الباشا، وخفر العزبة، توجَّه إلى دار الشيخ «شلش»، هدمها فوق رؤوس أصحابها، وعلى مرأى ومسمع من الجميع اختطف ابنته ذات الثلاثة عشر ربيعًا، سحلها علي طول الطريق إلى «القصر الأسود»، وأعلن أمام الجميع أن الفتاة قد أُهدِيَتْ إلى الباشا. قضى الشيخ «شلش» بقية اليوم يدور في العزبة جاثيًا على يديه وركبتيه، يُقبل أقدام الفلاحين شيوخ وشباب وأطفال، يرجوهم أن يساعدوه على استعادة طفلته المخطوفة من قصر الباشا، وفي اليوم الثاني خَلَت العزبة من الناس؛ غلَّق الفلاحين أبوابهم، وسدوا ثغورهم، ولزموا جحورهم، وفي صبيحة اليوم الثالث وجدوا الشيخ «شلش» ميتًا بأزمة قلبية وسط السوق. لكن أهل العزبة فوجئوا بالأعور يقول:

- تزوج الباشا ابنة الشيخ «شلش» على سنة الله ورسوله!

وعلى إثر ذلك تطلَّقتْ منه زوجته سليلة الحسب والنسب، كان خبًرا مدويًا اهتزتْ له أرجاء العزبة، لماذا خاطر الباشا بخسارة زوجته من أجل الزواج من ابنة الشيخ «شلش»، الفلاحة التي لم يرها في حياته من قبل؟ لماذا لم يأخذها كـ «هدية» وانتهى الأمر؟ لم يعرفوا أن تلك الهزة هي أول درجة في مقياس «الأعور»!

لم يرَ أحد الفتاة مرة أخرى قط، سمعوا أنها أنجبتْ من الباشا بنتًا، وسمعوا أنها حاولت الهرب أكثر من مرة، فقسَّم الباشا الحديقة الكبيرة حول القصر، وحوَّل الجزء الخارجي منها إلى غابة موحشة، وملأها بذئاب شرسة! هيَّج ذلك مُخيلة الفلاحين؛ فنسجوا الأساطير حول

القصر وصاحبه!

وكان المستفيد الأكبر هو الأعور؛ أصبح اسم الباشا هو سلاحه الفتَّاك الذي يواجه به المتمردين من الفلاحين، لم يعد القتل مُقتصرًا على الأسلحة كما كان في الماضي، ولم يعد القهر مقتصرًا على الحبس في الزرائب، تطورَّتْ الأسلحة جنبًا إلى جنب مع مُسببات القهر، ونشأ جيل من الأسلحة غير المادية، قادر على قهر الرجال وسط عوائلهم وأحبائهم! عندما يفشل الأعور في الحصول على أرض أحد الفلاحين يهدده بابنته الصغيرة، أو حفيدته البكر، وسيلة ناجحة في السيطرة على التمرد، ووأد العصيان في مهده. وعلى مدار سنوات لم يخرج سوى ستة فلاحين على أوامر الأعور، لم يتمكنوا من تسديد ديونهم التي تراكمتْ بسبب اقتراضهم بالرِبا.

لا فرق بين من رفض عنادًا أو عن إفلاس، كان للستة رجال العقاب ذاته، اختطف الأعور بنتًا من كل رجل، كل مرة يتم ذلك على مرأى ومسمع من أهل العزبة، دون أن يجرؤ أحدهم على حماية الفتاة أو الدفاع عنها، سبع زيجات أصبح الأعور شاهدًا عليها، لا تزيد كبيرتهم عن الأربعة عشر ربيعًا، انتزِعن من أحضان أمهاتهن، رغم أنوف آبائهن، وتم زفّهن إلى الباشا بالدموع والصرخات، سبع زيجات.. سبع حسرات.. سبع فلاحات أنجَبن البنات، ثم فارَقن الحياة بالطريقة الغامضة ذاتها.. الحرق حيًا!

وبعد وفاتهن اختفى الأعور من العزبة، كأنه ذرة غبار طارت في الهواء، أكلها الغراب ثم طار، لم يره أهل العزبة أو يسمعوا أخباره لأكثر من أربعين سنة! حتى بصقه الغراب وسط العزبة قبل عدة أشهر! وبعد فترة من عودة «الأعور»، سمعوا بخبر موت «كاظم باشا البارودي»!

«محفوظ»

عليه أن يتسلل من القصر دون أن يراه أحد، من السهل الفرار من رادارات أبناء خالاته. انتظر حتى تأكد من أن الجميع في غرفهم، وأحكموا إغلاقها، لعل كل منهم لاه الآن في تجربة ملابسه الجديدة التي أصرَّ على البرنس لشرائها من أجلهم، حتى تكون إقامتهم بالقصر أكثر سهولة. المشكلة الحقيقية كانت الخروج دون أن يلفت انتباه «عادل»، لو رآه لأفسد كل شيء.

لم يحبه قط؛ منذ الصغر كانا زميلين في كُتَّاب شيخ العزبة، «عادل» كان الطفل الذي يُثنَى عليه دائمًا، يفوز بحلوى «كوز العسل» التي يمنحها الشيخ كل أسبوع لأمهر طُلابه، وأجوَدهم حفظًا، وأدوَمهم على صلاة الجماعة في المسجد، أتمَّ «عادل» حفظ القرآن، في حين لم يتمكن «محفوظ» من إتمام جزء تبارك.

أشعل ذلك شرارات الهمة في نفس «محفوظ»؛ بارزه في التعليم الميري، والتحق بجامعة «فؤاد الأول»، صار طالبًا بكلية البوليس التي لا يدخلها إلا أبناء الوجهاء، أو أرباب الوسائط! لم يكن «محفوظ» ابنًا لوجيه، لكنه كان حفيد الباشا! حفيدًا يُنكر الباشا اعترافه به، مُدعيًا أن تشابه اسمه مع اسم الجد في شهادة الميلاد إنما هو محض مصادفة لا أكثر!

ورغم ذلك، عرف «محفوظ» أن كابوس الباشا، الذي يخشاه كثيرًا، ألا يُذكَر اسمه في مجالس النميمة في حفلات القصور، وزوايا نادي الخيل،

لم يكن الباشا ليُخاطر بسمعته ويخسر مكانته في مجتمع البَشويَّة وما فوقها. فاستجاب لـ «محفوظ» مرغمًا، وأصبح واسطته كما أراد، وكانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي يُحرك فيها الباشا إصبعًا من أجل «محفوظ»، ولم يكن «محفوظ» من الغباء لأن يُكرر مساومة الباشا مرة أخرى؛ للصبر حدود.

مشاعر «محفوظ» تجاه أبناء خالاته تجمع بين مزيج غريب من الحب والكراهية، يحب أن يكون واحدًا منهم، ويكره أن يكون مثلهم! لا يرضيه إلا الشعور بالفوقية.. بالأفضلية، وكان معه الحق في الشعور بذلك، إذ أنه في تلك اللحظة يتفوق عليهم في معرفة معلومة في غاية في الأهمية؛ لا يمكن العثور على المفتاح داخل القصر؛ لأنه بحوزة واحد منهم! عليه أن يعرف من يكون، فيفوز بالقصر الذي أقسَمَ أن يعود له مرفوع الرأس! مرَّ كل ذلك في خاطر «محفوظ» وهو يتسلل من البوابة الأمامية، ويتوجه إلى العزبة، حيث بيت «براخا» اليهودية، كم يكره تلك المرأة!

هزَّ رأسه مُرحبًا دون كلمة بعد أن أشارت له بالدخول، قبل أن تُغلق باب دارها نظرتْ يُمنة ويُسرة مُستطلعة الطريق، لا لتتأكد من أن أحدًا من أهل العزبة لم يُشاهد «محفوظ» أثناء دخوله عندها، لا تخاف أحدًا منهم، واحد فقط كانت تخشاه.. ذاك المأفون «عادل بن مبروكة».

خَطَا «محفوظ» صوب غرفة ضيقة زارها مرات عدة، بها ثلاثة مقاعد مُتهالكة، جلس في المقعد المواجه لإطار لصورة كبيرة باهتة، مُعلقة على الجدار، يحتلها الأعور الكبير مُمسكًا بُكرباجه أبي روحين، تُجاورها صورة للأعور الأوسط واقفًا على باب الزريبة الكبيرة في البر الغربي،

تجاورهما صورة الأعور الصغير، الوحيد الذي يتميز عنهما بعُصبة سوداء تخفي عينه اليُسرى، وبنظرة عين يُمنى حادة، كافية لإصابة الرائي بمزيج من النفور والرهبة.

لحظات وسمع «محفوظ» طرقات على الباب، دفع الطارق الباب ودخل الدار، ثم أغلقه خلفه بالمزلاج. نهض «محفوظ» يستقبل الأعور، إن كانت صورته تثير النفوس، فمرأى وجهه على بُعد مترين يُسري بالقشعريرة في جسده، كم يُشبه أمه.. عينها.. أنفها.. ذقنها.. شعرها الأصهب.. حركتها المائلة أثناء السير، نُسخة مُذكَّرة من أمه «براخا» اليهودية!

احتلَّ الأعور المقعد المقابل لـ «محفوظ»، ثم ابتدره:

- ماذا فعلتَ حتى الآن؟

اغتاظ «محفوظ»، أجابه كما أجاب البرنس صباحًا:

- الوقت أمامنا ما يزال...

لم يدعه الأعور يُتم كلامه، أمسكَ بالمقعد الثالث وضربة مرتين في الجدار، حتى سقطت أشلاؤه عند قدميه. ارتعدتْ فرائص «محفوظ»، وقف قائلًا في ارتباك ملحوظ:

- أقصد أنني أحرزتُ تقدمًا، فهمتُ كل واحد منهم، وأعتقد أنه لن يصعب عليَّ التسلل إلى صفوفهم و...

قاطعه الأعور للمرة الثانية، أمسكَ بتلابيبه وجذبه بقوة، حتى لم يبق بين أنفاسهما سوى سنتيمترات قليلة، قال:

- لا تظن أن بإمكانك اللعب معي، تعرف جيدًا ما يحدث لمن يحاول خداع الأعور، لا تختر لنفسك المصير الأسود الذي جلبه جدك الباشا لنفسه عندما فكَّر في اللعب معي.

تسارعت أنفاس «محفوظ» وهو يطبق على كف «الأعور»، يحاول بروية إبعادها عن قميصه:

- سأفعل كل ما تقوله، لا أريد إغضابك، أريد تنفيذ اتفاقنا فحسب.

أحكَم الأعور قبضته، جذبه أكثر حتى اختلطتْ أنفاسهما، جزَّ على أسنانه قائلًا:

- أريد المفتاااح.

مطَّ الكلمة بصوت أجش، كاد «محفوظ» يفقد وعيه عندما لفحته أنفاسه الخبيثة نتنة الرائحة، سارع بقول:

- فتَّشت غرفهم، وجميع أغراضهم، المفتاح ليس مع أي منهم، لعل من يملك المفتاح لم يجلبه معه إلى القصر، لكنني سأعرف من يملكه.. سأعرفه.. بالتأكيد سأعرفه.

ثم استطرد:

- لكن عليك أن تعطيني المزيد من المعلومات عن شكل هذا المفتاح.. حجمه.. ومن أي مادة هو؟

أشار «الأعور» إلى رأسه، أردف جاحظ العينين:

- قد يكون المفتاح هنا.

ظنَّ «محفوظ» أن «هنا» تعني شيئًا آخر غير الرأس، ثم استوعب أخيرًا أنه يقصد الرأس فعلًا، تمتم بحيرة:

- كيف؟

أصبح لصوته فحيح أسرى ذبذبات الخوف في نفس «محفوظ»:

- قد يكون المفتاح في رأس أحدهم، فتِّش رؤوسهم!

أقسَمَ «محفوظ» في نفسه أن سنوات الغياب قد أذهَبَتْ بعقل الأعور، لم يخف عليه ما إن التقاه أول مرة أن به مسًا من جنون. ما يزال يتذكر ذلك وكأنه الأمس، عندما اجتمع «بالأعور» والبرنس في القصر بعد إعلان وفاة الباشا بيومين، وعده الأعور أن القصر سيكون من نصيبه، وصدَّق البرنس على ذلك، كل ما عليه فعله هو التقرب من أبناء خالاته، والتودد إليهم، وجعلهم يصدقون أنه وإياهم في القارب ذاته، وما إن يظهر المفتاح حتى يُسلِّمه إلى الأعور. لا يعلم تحديدًا ماذا سيفيد البرنس «رستم» من ذلك، ولا يهمه أن يعرف، يبدو أنها مسألة شخصية بينه وبين الأعور، لا تعنيه في شيء، و«محفوظ» ليس من النوع الذي يطرح الأسئلة، يبدو أن الغضب حين يزول، تتآكل بعده الرغبة في المعرفة! ولا يعنيه كذلك أنه حفيد إحدى الفلاحات اللاتي تزوجهن الباشا قسرًا! يجب عليه أن يغضب.. أن يثور.. أن ينزع حذاءه ويضرب به «الأعور» فوق رأسه حتى يتوقف تنفتح جمجمته على مصراعيها لافظة تلافيف مخه.

لكنه لا يشعر بالغضب.. ولا رغبة له في أن يثور، عُجِن بنفس الطين الذي عُجن به أهل العزبة، فقد كل معاني الغضب والعدالة والشبع.

تمتم «محفوظ» بانكسار:

- لا أخدعكَ، كيف لي أن أفعل! لن أنسى فضلك عليّ، أعدت لي «حُجَّة» الأرض التي كدتُ أفقدها بسبب ديون أبي لأبيكَ، لن أنسى فضلكَ ما حييتُ.

لم يكن فضلًا في الواقع، لم يفعل «الأعور» ذلك لأجل خاطر «محفوظ»، بل من أجل تطويعه واستخدامه كسلاح ضد الباشا.. «كاظم البارودي»، الذي تسبب في نفيه في غياب السجون والمعتقلات لأكثر من أربعين سنة!

سنوات قضاها تائهًا عن نفسه، منفيًا عن الناس، بغير أوراق رسمية، ولا تُهَم قانونية، اختفَى فِي منفَى تحت الأرض فقط لأن الباشا أمر بذلك!

مهما تقاتل كلبان على فريسة واحد فترة طويلة، في النهاية يجب أن يُسقط أحد الكلبين الآخر.. الآن سقط الباشا، لكن الفريسة هربتْ من يده، وستظل ضائعة حتى قيام الساعة، ما لم يظهر المفتاح!

تنتظر «عادل» ليلة طويلة لا يرافقه فيها سوى الأرق.. ضوء القمر.. والذئب الرمادي. افترش الذئبُ الأرضَ أمام الكوخ، فيما شرع «عادل» بإشعال النيران في فروع الشجر المقطوع، كوَّمهُ في شكل هرمي ببطء، وبإتقان، وكأنه سيتقدم بها إلى جائزة معمارية!

شارد الذهن، ما يزال يذكر الجروح التي تشوِّه ذراعيها، وطريقتها العجول في تغطيتها، وكأنها عورة لا يجوز كشفها. بدت له الجروح حديثة الأثر، حتى أن بعضها وردي فاتح، لم يكوِّن بعدُ قشرة داكنة! ما الشيء الذي تسبب لها في تلك الجروح؟ هل حدث ذلك قبل دخولها القصر أم بعده؟ عندما التقاها في العوامة كانت ترتدي جلبابًا أسود ذا أكمام طويلة يستر جروحها، لربما هاجمها حيوان ما في قريتها.. أو أن...؟

توقف عقله عن استكمال السؤال.. لا يمكن! ليست فتاة غبية إلى هذه الدرجة، لو تعرضتْ للأذى داخل القصر لصرَّحتْ بذلك على الفور، ما كانت لتصمتْ، فتاة بعنفوانها ما كانت لتتستر على فِعل شائن مخافة الفضيحة.. أم أنها قد تصمت؟!

زفر بقوة وهو يُلقي بالفروع الصغيرة داخل شعلة النار، فتُسارع النار في قضم أطرافها، مثلما يتسابق الشك الآن بداخله ليفتك بأطراف

اليقين. لا يتمنى أن يصيبها أي أذى، حتى وإن بغض أكاذيبها وجشعها للثراء، لو تحدث معها وعرض مخاوفه صراحة لن يتلقى منها جوابًا شافيًا، هو على يقين من ذلك. تمتم بضيق:

- يا لها من فتاة عنيدة!

رفع الذئب الرمادي رأسه وكأنه المعنى بالكلام، ربَتَ «عادل» فوق رأسه، قال:

- لا يجب أن أشفق على فتاة مخادعة مثلها، أليس كذلك؟
أومأ الذئب برأسه وكأنه يعي كلمات سيده، ويُصدّق عليها.

ما إن لمح «محفوظ» يتسلق البوابة الأمامية للقصر، يواري وجهه خلف وشاح صوفي مثل لصوص المنازل، حتى هبَّ من مكانه وعاجله:

- كنتُ في انتظارك.

سبَّ «محفوظ» حظه، لقد وقع في يد من لا يرحم! تظاهر بأنه لا يعي خطورة الأمر، قال:

- ليس الآن، الصباح رباح.

أوقفه «عادل» بأن جذب ذراعه، قال بحزم لا يقبل الاعتراض:

- بل الآن.

وقف «محفوظ» أمامه موقف التلميذ المخطئ، وما إن انتبه إلى ذلك حتى ساوره الضيق، من يكون ذاك التافه حتى يخشاه؟ استقامتْ قامته، كتَّف ذراعيه فوق صدره، دون كلمة.

استطرد «عادل» بغضب مكبوت مُشيرًا إليه ثم إلى القصر:

- متى ستنضج؟ أنت تلعب بحيوات خمسة أشخاص بالداخل، وليسوا غرباء، إنهم أبناء خالاتك، أتيتم من صلب جد واحد، ماذا دهاك حتى تُعرضهم للخطر؟ من أجل ماذا؟!

ضرب كف «عادل» فسقطتْ عن ذراعه، هتف:

- وما شأنك بي.. ما شأنك بنا؟ أخطأ الباشا كثيرًا عندما وقف في ظهرك ومنع البرنس من طردك خارج القصر، لكن أتعلم.. هذا القصر سيكون لي في النهاية، ولن أطردك منه فحسب، بس سأطلق النار على رأسك السميك أنت وهذا الحيوان البشع.

قالها «محفوظ» وداخله يرتجف لمرأى الذئب الشرس الذي أخذ يتمسَّح في ساق «عادل»، وكأنه يسأله إن كان بحاجة إلى حمايته، ويرمق «محفوظ» بنظرات مُحذَرة إن أثار غضب وليِّ نعمته. اغتاظ «محفوظ»، كيف استطاع هذا المأفون ترويض ذئب الباشا؟! كيف ينجح دومًا في المهام الصعبة التي لا يجرؤ عليها أحد، ما سر قوته تلك؟

- أنت طفل كما كنت دومًا يا «محفوظ»، تظن أنك في مُبارزة معي، كان من الممكن أن نصير أصدقاء، لكنك اخترت أن تُحول الأمر إلى منافسة قذرة.

- أنا الذي حولته إلى منافسة؟ يا لك من حقير! أنت الذي أردتَ دائمًا أن تُثبت تفوقك عليّ، دائمًا «عادل» هو مضرب المثل في العلم والأخلاق، لكن أتعلم.. أنا الذي فزتُ في النهاية، أصبحت مهندس ري عاطل عن العمل، أما أنا دخلتُ كلية البوليس، التي لا يخطو فيها إلا أرباب الأفضلية.

- أو أرباب الوسائط!

تجمدتْ قسمات «محفوظ»، بينما «عادل» يستطرد:

- لولا سُلطة الباشا لما وقفتَ أمامي الآن متشدقًا حول الأفضلية، لو أنك الأفضل حقًا إذن كن رجلًا حقيقيًا وأعد الحقوق لأصحابها يا «محفوظ».

- أنت مجنون.. عن أي حقوق تتحدث؟

كانت دهشة «محفوظ» حقيقية، لكن غضب «عادل» كذلك كان حقيقيًا. صاح:

- حقوق أهل العزبة التي اغتصبها جدك من قوت عيالهم، دِيَّة من ماتوا بسبب جدك الذي سمح لسلالة الأعور أن تمتص دماءهم.

قال «محفوظ» ببرود هو أقرب للوقاحة:

- لم يضربهم أحد على أيديهم بالخيزرانة ليقترضوا المال بالربا، الخطأ خطأهم.

- لعن الله آكِل الرِّبا، ومُؤْكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ.

يفهم «عادل» جيدًا رغبات «محفوظ» التي تتركز على التحرر من قيود الفقر، والذل، والظلم، إذ عاش في ربوعهم وهو يعرف أن له جَدًا غنيًا، يُنكر نسبه إليه رغم ثبوته في الأوراق الرسمية. ولكي يتحرر «محفوظ» من ثالوث الفقر والذل والظلم سلك طريقًا ملتويًا، أجبره على كسر سلاسل ضميره التي تُقيِّد أطرافه، لو لم يكسرها لما استطاع أن يضع يده بيد «الأعور»، ولما لاحتْ له فرصة تَمَلُّك القصر.

- ارجع عن ذلك يا «محفوظ»، عُد إلى أصلك الطيب.

الحُلم والوِد الذي كسى صوت «عادل» أزعج «محفوظ»، فقال:

- لماذا لا تكون إنسانًا طبيعيًا؟ لماذا تتظاهر دائمًا أنك أفضل؟ لما تُجبر نفسك على أن تكون أفضل؟!

قال «عادل» بجمود:

- أنا لستُ الأفضل.

استطرد «محفوظ» وكأنه لا يسمعه:

- أنت كذلك منذ الصغر، كنت ترى الرجل يزرع أرضه ويكاد يُغشى عليه من التعب، فتُريحه تحت ظل شجرة وتُكمل العمل بلا أجر، تُقابل امرأة مسنة في الطريق تحمل فوق رأسها نصف وزنها، فتُسارع بحمله عنها حتى باب دارها بلا مقابل، حتى القطط الشاردة وكلاب الطرقات كُنتَ تقتسم معهم طعامك، كن بشرًا قليلًا، كُن إنسانًا وتوقف عن التصرف كملاك لا يُخطئ.

- لي أخطائي يا «محفوظ»، أنا بشر مثلك.. ناقص.. عاجز.. أحتاج إلى الآخرين كحاجتهم إليّ.. أحتاج إليك.. كما تحتاجني بالضبط، إذا وضعتَ يدك في يدي سنتغلب على الأعور وأمه رأس الأفعى، ونُعيد الحقوق لأصحابها.

احتدَّ «محفوظ»:

- من أنت؟ من أنت لأحتاج إليك؟

ثم استطرد بصفاقة ملوحًا بيده صوب بوابة القصر:

- هيا اذهب عنا، الباشا الذي يحميك بسبب إنقاذك لحياته لم يعد له وجود.

لاحت بخاطر «عادل» ذِكرى إنقاذ الباشا من الحريق، لا زالت رائحة الرماد عالقة بذاكرته، تنغزها كل فترة لتذكره بتلك الليلة العصيبة، حاول تبديد صورة القصر المحروق عن رأسه. سأل «محفوظ» بغتة:

- هل تعرضتَ إلى «حرة» بالأذى؟

تجعَّد جبين «محفوظ»، أجاب:

- ماذا؟! حتى وإن فعلتُ فما شأنكَ؟ هي ابنة خالتي لا خالتك.

كرر «عادل» سؤاله بنفاد صبر:

- هل آذيتها؟

ألقى «محفوظ» بالقشة التي التهمتها على الفور نيران الغضب:

- لا شأن لك يا ابن «مبروكة»، هيا.. اذهب من هنا.. عُد إلى أمك التي تشققتْ يداها من العمل في الغيط، وحاول مساعدة أباك العاجز كما تفعل دومًا مع العَجَزَة والمحتاجين.

أمسك «عادل» بتلابيبه مرة أخرى، لكن هذه المرة اشتعلت عيناه بغضب مُستعر، أحس به الذئب الرمادي فانتصب شعره، وأطلق عواءً طويلًا، ألقى بالرعب في قلب «محفوظ»:

- أنا لستُ أنت يا «محفوظ» فلا تخلط بيننا، لن أسمح لك بالتطاول على أبي أو أمي، أنا لستُ الحفيد الذي بلغتْ به الوضاعة أن يتعاون مع «الأعور» الذي أذاق جدته الذل وزوَّجها غصبًا من رجل لا ترغب به، بل أنت يا خسيس!

أراد «محفوظ» أن يبث الخوف في قلب «عادل»، صاح بجنون دون أن يأبه لاستيقاظ أبناء خالاته على إثر صوته:

- الأعور سيقتلك، هل تسمعني.. سيقتلك.. أنت وأباك.. وأمك، سيقتل كل من يقف في طريقه.

رفع «عادل» أنفه عاليًا:

- أنا من جيل لم يشهد نكسة العزبة أمام سلالة «الأعور»، لا أخشاه، فما هو إلا جبان خسيس، عظَّمَتهُ أساطيركم حوله، لكنني لا أؤمن بالأساطير!

نَزَعَ «محفوظ» قميصه من يد «عادل» بقسوة، وقبل أن ينصرف التفتَ صوبه ساخرًا:

- هل أقول لك ما هي أكبر أسطورة تؤمن بها؟

ثم أردف هازئًا:

- اسمك!

تجمَّد «عادل» في مكانه، يراقب «محفوظ» وهو يتسلل إلى القصر عبر باب المطبخ. أفسدتْ تلك المشادة مزاج «محفوظ»؛ في غرفته أخذ يلقي بملابسه الجديدة أرضًا، وعندما هدأتْ أعصابه الفائرة قليلًا، لم يستطع منع تساؤل مفزع من أن يطوف داخل عقله: هل «عادل» محق فيما قاله؟ هل كان «الأعور» مخلوقًا ضعيفًا من الأساس؟ إذا كان الأمر كذلك، فأعناق أهل العزبة مُثقلة بأرواح ست فتيات لم يُحركوا طرفًا من أجل حمايتهن، والدفاع عن أعراضهن!

(((اليوم الثاني)))

علِمَ الجميع في الصباح أن كل واحد منهم وجد في غرفته الليلة السابقة حقيبة بها ملابس جديدة، وبطاقة مُزيَّلة بتوقيع البرنس «رستم». أثار ذلك ريبة «حورية»؛ الرجل الذي يأنَف مشاطرتهم الطعام، وجلسات السمر في حجرة الصالون والتراس، ولا يلقي عليهم التحية إذا صادفوه في القصر، يهديهم ملابس راقية.. شيء عجيب!

كان صباحها اليوم مختلفًا؛ زارتها أخيرًا البهجة التي خاصمتها طويلًا، جرَّبتْ الملابس كلها، استغرقَتْ في ذلك ساعة كاملة، حتى استقرَّتْ على تنورة سوداء تغطي ركبتيها، وقميصًا أبيض مغلق الرقبة، تنتهي أكمامه الطويلة باتساع، يلتف حوله شرائط من الدانتيل الأبيض والأسود. عقصَتْ شعرها الغجري عند مؤخرة رأسها، ورفعته إلى الأعلى قليلًا، بدا مظهرها مختلفًا عن «حورية» متمردة الشعر ذات الفستان الأزرق، وبالطبع عن «حورية» الفلاحة ذات الجلباب الطويل، وعصبة الرأس، والطرحة السوداء.

التقتْ بـ «شحاتة» في الممر المؤدي إلى غرفهم، حيَّته ببشاشة زائدة أثارتْ دهشته:

- صباحك سعيد يا سي «شحاتة»، «ياختي عليك»، انظر إلى نفسك، هذه الملابس مُدهشة.

تورَّدتْ وجنتاه المكتنزتان، ثم قال وهو يُمرر أطراف أصابعه فوق بذلته الرمادية برقة مخافة إفسادها:

- وجدتها في غرفتي، هدية من البرنس ابن الأصول، لم أرتد مثل الأفندية من قبل، هل أبدو غريبًا فيها؟

تلك هي المرة الأولى التي يرتدي فيها زي الأفندية، رغم اعتراضه طيلة حياته على التأسي بالطراز الأوروبي في الملبس، إلا أنه لم يستطع منع نفسه من التجربة التي راقتْ له كثيرًا. سارعتْ «حورية» بتبديد مخاوفه:

- كلا، على الإطلاق، تبدو أفنديًا محترمًا.

مال عليها وسألها همسًا:

- مثل «فؤاد» أفندي و«محفوظ» أفندي؟

اتسعتْ ابتسامتها وكأنها تحاور طفلًا صغيرًا:

- مثل «فؤاد» أفندي و«محفوظ» أفندي.

تبدَّل مزاجه فجأة، وضع كفه فوق بطنه وقال:

- عصافير بطني على وشك التهام معدتي، لا ألومها فلم أُطعمها مساءً كما يجب.

تغاضَتْ «حورية» عن تناوله عشاء الأمس ثلاث مرات، وشاركته بحماس:

- أنا أيضًا جائعة، ما رأيك أن نحضِّر معًا طعام الفطور؟

أعجبته الفكرة، صاح بالحماس نفسه وهو يمسح فوق بطنه البارزة:

- والله بنت حلال، هذا الرجل «أنيس» لا يعرف كيف يُعد فطورًا يناسب أولاد البلد، يظننا خواجات فيطعمنا طعامهم الذي لا يليق بمعدتنا المصون.

في المطبخ، خلع «شحاتة» الجاكيت، ربتّ عليه باهتمام قبل أن يضعه فوق المقعد، شمَّرتْ «حورية» عن ساعديها، ثم سألته باسمة:

- هل تحب مهنة الجِزارة يا سي «شحاتة»؟

- أحبها؟ اممم.. ورثتها عن أبي، لا أعرف معنى أن يحب المرء عمله، العمل عمل، لا يُحَب ولا يُكرَه، لكنني أحب الفتونَة، أحب أن أدافع عن حقوق المظلومين.

- ظننتُ الفتوات رجالًا أشرارًا!

- فيهم أشرار بالطبع، يأخذون الفردة[1] من الناس، ولا يدافعون عنهم وقت الخطر، لكنني لستُ منهم، أنا وغيري كثير من الفتوات نستغل قوتنا العفية في نصرة الضعفاء، فيك من يكتم السر؟ أخفي تحت بلاطة بيتي منشورات ضد الاحتلال.. آه والله.

ساعدها في إحضار أحد الصحون من سَندَرة المطبخ المرتفعة؛ لم يكفِ طول قامتها ليوصلها إليه. لم تفهم «حورية» كيف لرجل بجسد «شحاتة» وقلة لياقته أن يكون فتوة قويًا يُدافع عن الضعفاء! ولم يخبرها «شحاتة» أن حاله قد تبدّل منذ سنتين، في اللحظة التي فقأ فيها عين أخيه بجهله واندفاعه، حين استغلَّ ما حباه به الله من قوة لينتصر لنفسه في معركة غير مُتكافئة القوى. الله مالك المُلك أهلكَ «النمرود» الطاغية المُتجبِّر بأن أرسل له ذبابة مكثَتْ في منخاره أربعمائة سنة، عذَّبه بها حتى كان

---

(١) الإتاوات.

يضرب رأسه في المَرازِب[1] من شدة الألم، إلى أن أهلكه الله بهذه الذبابة التي لا حول لها ولا قوة، وحين هاجَم «شحاتة» رجلًا ضعيفًا أعزل؛ نزع الله عنه رداء القوة، أصاب بدنَهُ بداء الكسل، وحرَمَه من نعمة الشَبَع، فصار جسده وهنًا على وهن. سألته:

- كيف هو أخوكَ؟ هل يعمل في الجزارة مثلك؟

تشنَّجتْ قسماته، يُغالب دفقة من المشاعر الحارقة اجتاحتْ صدره. جذب مقعدًا ثم جلس، متناسيًا ما كان يهم بفعله. لاحظتْ «حورية» أن سؤالها حَكَّ جُرحًا ما يزال ينزف. جذبتْ مقعدًا آخر وجلست بهدوء، ثم قالتْ بارتباك:

- سمعتُ أنه.. أقصد أنكَ..

لم تعرف كيف تنهي عبارتها، خافتْ أن تحك جرحه أكثر، فالتزمتْ الصمت، بدده هو قائلًا بشجن:

- وجه أخي مثل البدر، يصغرني بثلاثة أعوام ولكنه مثل ابني، هل تعرفين هذا الشعور؟ أن تكوني مسئولة عن طفل.. يتخذكِ قدوة له.. يسير خلفكِ.. يأكل مثلكِ.. يشرب مثلكِ.. يعمل مثلكِ.. ليس أخي فحسب، إنه ببساطة ابني.

أثار حديثه شجونها كثيرًا، تذكَّرتْ أباها الذي تتعلق حياته بحياتها كتعلق الطفل بأمه. فهِمَتْ مقاله، ورقَّتْ لحاله؛ سألته:

- هل لديكَ أطفال يا سي «شحاتة»، هل أنتَ متزوج من الأساس؟

ملأ البِشْر مُحيَّاه، قال بغِبطة:

(١) مطرقة كبيرة.

- «خميس» اسم الله عليه عمره خمسة أشهر، زوجتي ست بنت أصول، تُساعدني في محل الجزارة، هي التي تنوب عني في العمل الآن، اتصلتُ بها منذ ساعة، ليس لدينا هاتف في البيت، لكن عَم «كاشف» صاحب دُكَّان البقالة على أول الشارع عنده هاتف يتحدث منه كل أبناء الحارة، عندما سمعتُ صوتها الملهوف أوشكتُ على البكاء مثل النسوان.

اهتزَّت نبرة صوته مع عبارته الأخيرة، ثم استطرد شاردًا وكأنه يجري منولوجًا مع نفسه:

- لكنني لا أستطيع الرحيل الآن، عليّ أن أكتم ذلك الشوق في نفسي، أقتله إن لزم الأمر، يجب أن أظل هنا، يجب أن أفوز بالقصر، يجب...

غالَبَ عَبرة تجمعَّتْ داخل عينه مُنذرة بالسقوط، ثم قال بإصرار:

- يجب أن يكون هذا القصر لأخي، سأتخلى عن نصيبي فيه، وأهديه إياه.. له وحده، هذا هو العدل، فقد عينه من أجل حمايتي والدفاع عني، لسنوات طويلة أكلني الذنب وأهلكني، أتعرفين.. أحيانًا أكذب على نفسي، أقول لها إنني أريد هذا القصر من أجلها.. من أجل هنائها.. أو من أجل إغاظة «نحمده» التي لم تقبل بي وتزوجت من أحد الأفندية، أكذب؛ لأنني أعجز عن مواجهة الذنب الذي أحمله بداخلي، الذنب مثل سوس لعين.. ينخر الروح، لا أحد يريد أن يمضي حياته بهذا الألم، عليه أن يزول.

نظر إليها، رأتْ الألم باديًا على مُحيَّاه، هذا الرجل الضخم يخفي في صدره قلبًا كأفئدة الطير، سألها بصوت متحشرج يُغالب البكاء:

- كم تساوي عين أخي؟

طعنها سؤاله قلبها، طافت عيناه فيما حوله، ثم استقرَّت أخيرًا فوق وجهها مرة أخرى:

- هل تساوي قصرًا؟ هل تبيعين إحدى عينيكِ مقابل قصر؟

تساقطتْ عبرات صامتة فوق وجنتيها، مدَّتْ كفها وأراحته فوق كفه، استطرد بابتسامة مُغتصَبَة، وبأمل كبير يملأ فؤاده، يتعلق به مثل تعلُّق الغريق بقشة وسط بحر عاصف:

- يجب أن أفوز بهذا القصر.

سدَّدتْ كلماته طعنة ثانية إلى ضميرها هذه المرة، عليها هي أيضًا أن تفوز بهذا القصر، من أجل حريتها، من أجل أبيها. استقر الألم بقلبها، وصعد غثيان إلى حلقها؛ سعادة أحدهما ستُشيَّد فوق أنقاض الآخر! صاح «شحاتة» بصوت جهوري وهو ينتفض واقفًا، يخفي عبرة هاربة بطرف قميصه، متظاهرًا بالمرح:

- ذاك المغفل «أنيس» يملأ المطبخ برائحة البصل، انظري، لا أستطيع البقاء فيه دقيقتين دون أن تحرق رائحته عينيَّ.

دخل «حسين» المطبخ في الوقت المناسب ليبدد أحاديث ذات شجون، بدا مختلفًا كثيرًا؛ يعلو رأسه طربوش أحمر، ويرتدي قميصًا وبنطلونًا يناسبان نحافة جسده - إذ كان معتادًا على ارتداء الواسع من الثياب، فيبدو مظهره مثيرًا للرثاء- يحمل قطه الذي تبنَّاه بشكل كامل، حتى أنه يُبقيه معه في غرفة نومه، ويبدو أن القط قد نال أيضًا نصيبه من الاهتمام، بدا نظيفًا، جميلًا. بادرته «حورية» محاولة التغلب على تأثُّرها بالحوار الذي دار منذ قليل:

- يصبَّحك بالخير يا سي «حسين»، ما كل هذا التغيير؟

تضاحَك «شحاتة»:

- آخِر «ألاجَة»[1]، نِمس يا «حسين».

ابتسم «حسين» على استحياء وهو يقول:

- أنتما أيضًا تبدوان مثل أبناء الذوات وأصحاب السمو، لم أتخيل أن للقماش قدرة خارقة على تبديل المرء هكذا، عندما نظرتُ إلى نفسي في المرآة بدوتُ وكأنني أرى شخصًا آخر أقابله لأول مرة.

قالت «حورية» واجمة، وقد شردتْ بأفكارها:

- صحيح، الملابس قد تجعلك تبدو شخصًا مختلفًا في عيون الآخرين، لكنها لا تُغير ما بداخلك، أنت وحدك تعرف أن «حسين» الذي بالداخل كما هو.. لم يتغير.

قاطعها «شحاتة» مُستجلبًا المرح:

- هذه الفتاة ستظل تتحدث حتى تشق العصافير طريق بطني ثم تطير، هيا ساعدني أنت يا «حسين».

عاجله «حسين» بمرح:

- وهل ما في بطنك عصافير يا «شحاتة»؟ قُل خرفان.. أفيال.

تضاحَك ثلاثتهم، وتشاركوا في إعداد الفطور. أمضتْ معهما لحظات بديعة في الإنصات إلى نكات «شحاتة» مُقلِّدًا «نجيب الريحاني» و«علي الكسَّار»، وإلى حكايات «حسين» عن المجلات المصورة التي يحبها، والتي كانت مبلغ سعادته، تحدَّث بحماس طفل في السادسة عن مجلة «سندباد»[2] الجديدة التي تصدر كل خميس، وعن بطلها «سندباد»

(١) أناقة.

(٢) صدر أول عدد ٣ يناير ١٩٥٢، بريشة حسين بكار.

المستوحَى من «ألف ليلة وليلة»، وكلبه «نمرود» الذي يرافقه في رحلاته بحثًا عن أبيه شاه بندر التجار المفقود، أدركتْ «حورية» أن «حسين» طفل حُرِمَ من طفولته، يعيش في جسد رجل.

خلال الفترة القليلة التي أمضتها في القصر، ورغم كل شيء، لم تستطع أن تمنع أشعة الدفء من التسلل إلى قلبها، ولا سعادتها بجو العائلة، حتى وإن كانت عائلة مزيفة، اجتمعتْ بهم في ظروف غير طبيعية.

ما أجمل أن يكون للمرء أقارب يشدون عضده، ويحمون ظهره، ويمحون زلَّاته، يحملون الدم نفسه، والهم ذاته!

ما أجمل أن تكون واحدة من ستة أحفاد للباشا، تقول لأحدهم يا «ابن الخالة» ولإحداهن يا «ابنة الخالة»، ولو تمكَّنتْ من أن تُنادي البرنس «رستم» بـ «خالي»، عندها ستكون قد حظيَتْ بقَبَس من الجنة.

اغتمَّتْ بغتة؛ تذكَّرتْ أن كل ذلك سينتهي عندما تنكشف هويتها الحقيقية، سيعلمون أنها أكلَتْ من شجرة الخداع التي ما كان عليها أن تأكل منها؛ سيطردونها من الجنة، ويلقون بها في قاع الجحيم.

في الحديقة، بادرتها «درية» هانم التي تأخرتْ عن الفطور الثلاثي:

- أخيرًا بدَّلتِ فستانك الأزرق.. حمدًا لله.

فسَّرتْ «حورية» بحرج:

- لم يكن معي غيره.

قالت «درية» هانم بحِنكة:

- «مون شيري».. يجب أن تتعلمي ألا تذهبي إلا الحفلات إلا ومعكِ فستانين احتياطيين على الأقل.

ارتفع صوت ضحكات «حورية»، بدا الانزعاج واضحًا على وجه «درية» هانم وهي تستنكر ضحكتها، مخافة إغضابها سارعتْ «حورية» بالتوضيح:

- لا أظن أنني سأحضر أي حفلات أخرى في حياتي كي أتمكن من تطبيق نصيحتكِ.

- لماذا؟

ودَّتْ لو بإمكانها أن تبوح بجواب صريح: «لأنني سأكون في السِّجن أعاقَب على جريمة لم أقصدها، ولعلهما جريمتان، قتل وخداع»، لكن لسانها لا يستطيع أن ينطق بالحقيقة، وكأنه مُقيَّد إلى لجام يتحكم به خوفها، يحركه ليبوح ويصمت كيفما شاء. أنقذها تغيير «درية» هانم للموضوع:

- ما يزال يشغلني سبب زواج جدنا من ست فلاحات؟ والله إنه لرجل مجنون.

- ليس مجنونًا، لقد أراد الوَلَد.

- لكنه رُزق بالولد، أنسيتِ.. البرنس «رستم».

وضَّحتْ «حورية» مقصدها:

- أراد الباشا لأغصان عائلته أن تتمدد وتتفرع وتطرح الثمر، بدلًا من الشجرة العاقرة التي رُزِقَ بها، أراد الوَلَد الذي يجعل اسم عائلته باقية.. أراد ألا يموت!

تؤمن «حورية» أن رغبة الرجال في إنجاب الولد تنبع من رغبتهم في الخلود، يكرهون فكرة أنهم سيموتوا، ستفنى أجسادهم، وينساهم الناس. إصرار الرجل على إنجاب ولد يُخلِّد اسمه هي طريقته الأخيرة في التمسك بالحياة، رغبته في ألا يموت. ولو أمكن للإنسان الوصول إلى طريقة تمنح الخلود لجسده، لقاتَل عليها الناس أجمعين، ولضحَّى في سبيلها بالمال والبنين.

أخرجتْ «درية» هانم أحد سجائرها، لم تعبأ بنظرة «حورية» المستهجنة التي ترمقها بها في كل مرة تراها تُدخن مثل وابور سكة حديد، أشعلتها ثم تساءلت:

- لكن لماذا فلاحات؟ لماذا لم يتزوج من ربَّات حسب ونسب مثل زوجته الأولى؟

وكانت تلك النقطة قد أعجزَتْ عقل «حورية» عن تفسيرها. رفعتْ «درية» هانم يدها لتضغط كتفها؛ تساءَلتْ «حورية» باهتمام أخوي:

- أما زال كتفكِ يؤلمكِ؟

وكأن «حورية» ضغطتْ زِر غضبها، صاحت «درية» هانم بحدة:

- «يُوماتي» نفس الألم، قال كبير الخادم للبرنس إنني بحاجة إلى حكيم، ولم يأتِ به حتى الآن.

- أكيد لأن غرفتكِ «مَلقَف هوا».

لوحَّتْ «درية» هانم بإصبعها مُهددة:

- لن أنتظر أكثر، إن لم يأتوا لي بحكيم سأصعد إلى غرفة البرنس وأعلِّمه كيف يحترم ضيوفه.

مرَّ سؤال على خاطر «حورية» فألقته عليها بجدية:

- لماذا تقولين عنه «البرنس»؟. إنه خالك.

للوهلة الأولى بدا عدم الفهم واضحًا على قسمات «درية» هانم، ثم قالت باستنكار:

- لكنني لم أره أو أعرفه طيلة حياتي.

قالت «حورية» بحماس:

- لكنه خالكِ، مهما كان السبب الذي فرق بينكما المهم أنتما معًا الآن، اذهبي إليه.. تحدثي معه.. عانقيه.. أخبريه كم كنتِ تشتاقين إلى وجوده في حياتك.. أخبريه عن المرات التي احتجته فيها ولم تجديه.. أخبري أبناء خالاتك أيضًا أنكِ تتمنين ألا تفترقون أبدًا.. وحتى لو لم تفوزي بالقصر ستكونين سعيدة لأنهم أصبحوا جزءًا من حياتكِ.

رمقتها «درية» هانم بريبة، كما لو كانت تنظر إلى أحد مجاذيب الحُسين، انتبهتْ «حورية» من فورها إلى أنها تقول ما تشعر به هي! ما يعتمل بداخل صدرها منذ رأتْ حقيبة الملابس في غرفتها بالأمس، من المرات النادرة التي تذوقَّتْ فيها فرحة أن يفعل أحدهم شيئًا طيبًا من أجلها. ما أروَع أن يفعل أحدٌ شيئًا جميلًا من أجلنا دون أن نطلب ذلك!

سألتْ «حورية» رئيس الخدم بمعزل عن أسماع الآخرين:

- قلتَ من قبل إن عدد غرف القصر ثلاثون غرفة، لكن المحامي لم يمنحنا سوى تسعة وعشرين مفتاحًا، يبدو أنه نسى إعطائنا المفتاح رقم ثلاثون.

بوجهه الجامد المتخشب، وبانحناءة مُتأدبة، تشم فيها دومًا رائحة تصنّع وافتعال، أجابها:

- في القصر تسعة وعشرون فقط يا هانم.

احتدتْ:

- لكنك قلت ثلاثون!

- لقد أخطأتُ، معذرة يا «هانم».

رغم أن أمارات وجهه كانت محايدة، إلا أنها لمست كذبه، الكاذب يستطيع بسهولة كشف كذبات الآخرين!

رأى الجميع أن يؤجلوا تفتيش غرفة الباشا، فإخفاء المفتاح فيها احتمال ضعيف، لن يرغب الباشا في تسهيل مهمتهم إلى هذه الدرجة، لكن «حورية» استولى عليها فضولها وأرادتْ دخولها.

ولجتها بهدوء، حتى أنها طرقت الباب قبل فتحه، واصطحبتْ معها بعض الخجل، خامرها شعور بغيض أنها تنتهك خصوصية رجل ليس بجدها، ولا أحد أقربائها، رجل غريب ميت لا يحق لها اقتحام خصوصيته.

غرفته غاية في الفخامة، أكبر غرف القصر وأعظمها، ورغم ذلك شعرتْ أنها باردة جدًا، خالية من الروح، لا تحمل أي لمسات دافئة، أثاث وأغراض منتشرة في أرجاء الغرفة كجثث منزوعة الحياة، تنافي الدفء الذي كان ينبعث من غرفة العمدة، حين تتناثر ملابس الست «حلاوة» وأغراضها فوق الفراش فتختلط بجلباب العمدة ونبُّوته، أو حين ترى

ملابس ابنة العمدة فوق الأرض تجاورها ملابس «مرزوق» استعدادًا لغسلها، كانت تلك المشاهد تُشعرها بحميمية مفقودة؛ لم يكن أبوها يرتدي سوى رداء واحد يرفض خلعه، وحين يَبلَى فوق جسده؛ تسرقه الريح.

فتحت الأدراج مع ذنب كبير في البداية، ثم ذكَّرتْ نفسها أنها في مهمة للبحث عن المفتاح، ولن تفلح إن ظلَّ الشعور بالذنب يراودها، وينغز ضميرها. عثرتْ على أشياء غريبة لا يجمع بينها قاسم مشترك؛ عدد كبير من طوابع البريد التذكارية التي أصدرها البريد المصري احتفالًا بحفر «قناة فاروق» عام ١٩٥١، آلة تصوير كوداك مُجسَّمة ذات أبعاد ثلاثية ملونة، صورة للممثل «محمود المليجي» على ظهرها توقيع مُوجَّه للباشا، بدا لها اختيارًا غريبًا ليكون ممثلًا مُفضلًا لأي أحد، تذاكر سباق الخيل، أعداد مُكدَّسة من صحيفة «الميكروسكوب»، ومن مجلة «الزهور» تعود إلى عام ١٩١٠، وكُتيِّب يشرح أساسيات «عزف القانون»[1]! عثرتْ أيضًا على صور كثيرة لموكب الملك في الاحتفالات والاستقبالات، يحيط به حشد كبير من رجال الياوران[2] والأمراء والكبراء والوزراء، بحثتْ بينهم عن وجه «مخيمر» فلم تجده.

أما أغرب ما عثرتْ عليه «حورية» بين أغراض الباشا، هو خرائط وكتبًا بالعربية والإنجليزية والفرنسية تعود جميعها إلى عصور وأزمان غابرة، خزَّانته وأدراجه ممتلئة بالأوراق والملاحظات، جلست فوق الفراش وأتت بكل ما استطاعتْ حمله منها، صعب عليها في البداية قراءة الخرائط، وفهم الرموز والخطوط التي تمتلئ بها الأوراق، لكن

---

(١) آلة موسيقية وَتَرية.

(٢) مسؤولون عن تنظيم المراسم الرسمية.

الكتب كانت تدور جميعها في الإطار ذاته، آثار ومقابر فرعونية.. خرائط لكنوز عُثِر عليها.. وأخرى لم يُعثَر عليها حتى الآن!

فتحتْ كتابًا وراء كتاب، سقط من أحدها ورقة بدتْ للوهلة الأولى قائمة مشتريات نسيها أحدهم، وعندما حاولتْ فك شفرات الخط الرديئ، تبيَّن لها عبارات مثل: لعنة الفراعنة.. مقبرة مغلقة.. إكسير الخلود.. وكانت الكلمة الأخيرة هي ما استرعى انتباهها بشدة.. إكسير الخلود، ماذا تعني هذه الكلمات؟!

سرقتْ أوراق الباشا من عمرها دقائق وساعات، لم تخرج من الغرفة لتتناول طعام الغداء، ظنوا أنها عثرتْ على المفتاح وتتحاشى ملاقاتهم؛ صعدوا تباعًا إلى الغرفة التي تناثرتْ على فراشها وطاولتها وأريكتها وأرضها الكتب والأوراق.

- لم أعثر على المفتاح، لكن هذه الأوراق جذبتني لقراءتها، تتحدث عن أشياء غريبة، يبدو أن الباشا كان مهتمًا كثيرًا بالأنتيكات.

تَرى «حورية» أن الآثار الفرعونية ما هي إلا أنتيكات ورَّثها صانعوها إلى أبنائهم وأحفادهم حتى وصلتْ إلينا. لا تعرف إن كانوا صدَّقوها أم ظنوا أنها تتحايل عليهم لتخفي معلومات قد توصلهم إلى المفتاح، بقوا معها يقلِّبون في الأوراق، ويبعثرون الأغراض، قلبوا الغرفة رأسًا على عقب، بينما هي جالسة وسط الفراش الكبير، ما إن تُنهي بعينيها ورقة حتى تلتهم الأخرى.

يا له من فضول جشِع ذاك الذي أبقاها في مكانها حتى كادت عقارب الساعة تقترب من منتصف الليل، لم تشعر لا بجوع ولا بعطش، إذ كانت معتادة عليهما. انسلُّوا واحد تلو الآخر من الغرفة عندما تأكدوا أن المفتاح ليس مدسوسًا بين الأثاث، أو في ثنايا الأوراق.. إلا «محفوظ»، ظلَّ معها

يفحص أغراض الباشا بدقة بالغة، وحين رأته يدس ورقة كبيرة من فئة العشرة جنيهات في جيبه خلسة؛ تجاهلَتْ ذلك وغضَّتْ طرفها عنه، لكن حاجزًا نفسيًا قام بينهما بسبب تلك الفعلة. لم يتبادلا أحاديث طويلة، فقط ملحوظة عابرة هنا وهناك، ومع دقّات الساعة مُعلِنة منتصف الليل تثاءبَ قائلًا:

- لا فائدة، أضعتُ وقتي عبثًا، تلك الأوراق لا توصلنا إلى شيء، مجرد اهتمام لعين بعِلم الآثار.

تنهدّتْ بحسرة مُقرَّة هي الأخرى:

- أنتَ على حق.

عادتْ إلى غرفتها، ألقتْ بجسدها المتعب فوق الفراش، ومن بين كل ما قرأته في أوراق الباشا أصبح عقلها أسير كلمتين فحسب: «إكسير الخلود»!

⁂

لم تفكر «براخا» سوى في شيء واحد وهي أن تغلق الباب بحدة في وجه امرأة من أهل العزبة: كم أن هؤلاء النسوة غبيات!

توجَّهتْ إلى خزينتها السرية، أسفل الحصيرة في غرفة المؤن، أزاحتها ثم حفرتْ قليلًا أسفلها باستخدام الشادوف. أخرجتْ كيسًا سميكًا، فتحته، ثم أودعتْ بداخله قرطًا ذهبيًا لأذن واحدة، شيَّعته قائلة:

- اطمئن يا صغيري.. سآتي لك بأخيكَ.. قريبًا جدًا.

خسرتْ المرأة القرط الذي رهنته عندها، ثم أتتها ترجوها أن تصبر عليها في سداد ديونها، يا لها من امرأة حمقاء! ألم تعلم حين اقترضتْ

منها المال أنها لن تستطيع رد الدين بالربا؟ كانت تعلم ذلك، كلهن يعلمن ذلك، لكنهن حمقاوات، تسلَّط عليهن سُلطان الغباء؛ يقترضن الدين الأول، يعجزن عن سداده، فيقترضن ثانية ظنًّا منهن أن الدين الثاني سيسدد الدين الأول، وعندما يفشلن في سداده يقترضن ثالثًا ورابعًا وعاشرًا، إلى أن يغرقن في دوامة من الديون لا تنتهي، ولن تنتهي!

حبال طويلة من الأمل لا تنقطع، ولا تريدها «براخا» أن تنقطع؛ طالما تلك الحبال متينة ومستمرة، ستظل «براخا» تتعلق بها، فتنجو من وحوش الفقر والذل والمهانة.

تعلَم «براخا» أن هؤلاء النسوة يكرهنها، ويتمنين لو تنشق الأرض وتبتلعها إلى غير رُجعة، ورغم ذلك يتعلقن بثوبها وكأنها المُخلِّص الوحيد، ليس تعلُّق الغريق بقشة يعلم أنها ستغرقه أكثر لكنه لا يملك غيرها، بل تعلُّق الحمار بعصا ممتدة وفي نهايتها جزرة شهية، يعدو ويعدو رغم أنه لا سبيل لأن يسد جوعه بتلك الجزرة قط، حتى ولو طاف الأرض كلها ألف مرة! «براخا» لم تكن جزرة شهية، بل عجينة من السم لها لون الجزر ورائحته، حتى وإن وصل إليها الحمار وأكلها.. سيموت مسمومًا!

بخَّتْ بعضًا من سمها في أذن ابنها «الأعور»:

– ذاك المتعوس «محفوظ» لن نستفيد منه شيئًا.

قال بينما يعد ثمرات التمر في غرفة المؤن:

- وماذا تقترحين؟ أهاجم القصر وأنتزع ما أريد من رؤوسهم؟

سارعتْ بالاعتراض وقد غلب جُبنها جشعها:

- هل جننتَ! عن أي هجوم تتحدث؟ كلا بالطبع، لكن يجب أن تُخيف هذا الـ «محفوظ» أكثر.

- وابن الباشا كذلك؟

- كلا، البرنس لا يحتاج إلى إخافة، لقد استوَى تمامًا، لو رفعنا النار أسفله أكثر من ذلك سيحترق.

ثم تسارعتْ أنفاسها وهي تسأل نفسها بصوت مرتفع:

- لكن ماذا إن لم يكن المفتاح لدى أحد منهم؟

ضاقت حدقتاه، وتشنَّجتْ عضلات فمه، تلوح بعلقه ذكرى بعيدة جدًا:

- مستحيل! لقد رأيتُ نظراتها يومها، رأيتُ هذا التصميم على وجهها.

- أتقصد الزوجة الثانية للباشا؟

اعتراه الغضب، وكأن تلك الذكرى الحية بوجدانه تثير عواصف بداخله، رفع يده وتحسس عينه المختفية خلف العصبة السوداء، قال:

- زوجته الملعونة التي أفقدتني عيني، لم تكتف بذلك فسرقَتْ المفتاح ثم فرَّتْ هاربة، تأخرتُ في إيجادها ساعات فحسب، وكانت خلالها قد احتاطتْ لأمرها، أخفَتْ المفتاح مع طفلتها الرضيعة وأودعتهما في مكان آمن، لم أستطع الوصول إليه قط، عندما عثرتُ أخيرًا على زوجته الحقيرة لم أتحمل، جررتُها إلى القصر وأشعلتُ فيها النيران، أخبرتني قبل احتراقها بتشفٍّ أنها أخفت المفتاح وطفلتها في أيد أمينة، وتركت لها خطابًا تشرح فيه كيف تحصل على الكنز وحدها حين تكبر.

انتظرتُ عودتها طيلة هذه السنوات، كنت على ثقة من أنها ستعود في غيابي بعدما ألقى بي الباشا في المنفى، هل تعرفين كم أكلني القهر؟ سنوات وسنوات ينهش القهر روحي وأنا أظن أن ابنتها قد

عادتْ وفازتْ بالغنيمة وحدها!

لكنني عندما عدت وجدتُ كل شيء باقيًا على حاله، لا ابنتها ولا حفيدًا لها قد عاد إلى القصر قط، لم يبق لدي سوى أمل وحيد.. أن يعود أحدهم يومًا للحصول على الكنز، لكنني لم أتحمل نار الانتظار

صدَّقَتْ «براخا» على كلمات ابنها:

- لهذا السبب بحثنا عن أحفاد الباشا وجمعناهم في القصر، بمساعدة البرنس نفسه، ثم جعلناهم يؤمنون بوصية زائفة تركها الباشا لهم، لكن يا حسرة.. لم نستفد شيئًا حتى الآن.

قال بضيق:

- لماذا لم نذهب إلى الأحفاد مباشرة بدلًا من إحضارهم إلى هنا بتلك الطريقة؟

احتدت «براخا»:

- وماذا نقول لهم؟ أعطونا المفتاح الذي ورثه أحدكم عن جدته؟ ساعدونا في الحصول على الكنز؟ لا تكن غبيًا، لم يكن أمامنا حل سوى الاحتيال عليهم للحضور، فيظن من يملك المفتاح أن الطريق خلا أمامه، فيُخرج المفتاح من مخبئه، ويحاول الحصول على الكنز، وعندها...

سحق «الأعور» إحدى التمرات في قبضته، ثم قاطعها قائلًا بحقد شديد:

- وعندها سأنتقم لعيني المفقودة، وأحصل على الكنز.. وحدي.

ضربته أمه في صدره:

- وحدك؟ يا لك من خسيس!

انهال فوق وجهها بصفعة أطاحت بجسدها أرضًا، ثم نهرها:

- ألم أقل لكِ ألا تأكلي أكثر من خمس تمرات في اليوم؟

ترجته ملتاعة:

- كنتُ جائعة.

فلم يزدهُ ذلك إلا غضبًا، أحضر كرباج أبيه ذي الروحين، وانهال فوق جسدها تأديبًا!

(((اليوم الثالث)))

تلحفتْ «حورية» بأنفاس الحنين وخطَّتْ بتؤدة صوب باب غرفته، وقفتْ على أعتابها تُبارز التردد، والخوف، والقلق. كانت أنفاس الحنين دافئة، أذابتْ الجليد على طول دربها، قضمتْ المسافات رويدًا رويدًا، صنعَتْ من شوقها جمرة، أحرقتْ أحزاب التردد، والخوف، والقلق!

فتح البرنس باب غرفته، لم تفُتها ملاحظة وجومًا كسا وجهه، اختارتْ التظاهر بأنها لم ترَ. تنحنحتْ بحرج:

- صباحك.. أأ.. بونجور.

لأنفِه رِفعة أرستقراطية، أبصرتها بعين قلبها، فاختارت ثانية ألا ترَ.

قالت باضطراب:

- لن أعطِّلك كثيرًا يا سي البرنس.

على مضضٍ سمح لها بالدخول، غرفته نظيفة مرتبة لا تُشبه غرفة والده المُعمرة بالأثاث الضخم، والأوراق، والكتب. أثاثها بسيط، وأغراضها قليلة، وكأنه زائر مُقيم لوقتٍ معلوم.

- تفضل باسم الله.

مدَّتْ يدها بفطير شهي الرائحة، أعدته وحدها بالمطبخ من أجل طعام الفطور، ولمَّا لم يبد أي نية لأخذ الصينية من يدها، وضعتها بحرج فوق المكتب، فاندفع مُغاضبًا:

- احذري أن تفسدي الدفتر.

انتزع دفتره من فوق المكتب، وأخفاه خلف ظهره، مثل طفل لا يرغب في إطلاع الآخرين على ألعابه، تعاظَم حرجها الذي غالَبَته قائلة:

- آسفة والله لم أره، أنا.. أردتُكَ فقط أن تفطر شيئًا شهيًا اليوم، لا أظنك أكلتَ فطيرًا منذ زمن، وحتى إن أكلت لا أظنه شهيًا كفطيري، جربه.. سيعجبك.

لانَتْ قسماته قليلًا؛ استبشرتْ خيرًا، وتساءلتْ في نفسها: «هل يُمكن مُصالحة الشروق على القمر؟»، اقتطع البرنس من الفطيرة وغمرها في العسل الأسود، لاكها بلهفة الجائع، سألته بلهفة من يتوق إلى الشبع:

- هل أعجبكَ؟

هزَّ رأسه ولم يزد، لكن ذلك كان كافيًا لتقول بفرحة طاغية:

- بالهناء والشفاء يا.. يا خالي.

كمَن كذب كذبة ثم صدقها، عاشت كذبتها، ليستمر الدفء، لكن البرنس بدده في الحال، ونثر الثلج على دربها:

- إياكِ أن تُناديني بذلك مرة أخرى.. أسمعتِ؟

دنتْ منه، على مُحياها نبتَ الألم، وأزهَر الشوق، وتنفس الحنين:

- لماذا؟ ألم تشتق إلى أبناء أخواتكَ.. ألم تشتقني؟ أتعلم.. أنا اشتقتُك، حتى من قبل أن أعرفكَ، كنتُ أنام فأحلم بعائلة كبيرة تضمني، هل تعرف أنني أغار من الأشجار؟ لا تتعجب، نعم أغار من الأشجار، هل رأيتَ جذورًا بغير ساق؟ أو ساقًا بغير فروع؟ أو فروعًا بغير أوراق؟ كل واحدة منها منفردة لا تُكوِّن شجرة، يجب

أن يجتمعوا لتصير الشجرة، أنا كنتُ ورقة، طيلة عمري كنتُ أبحث عن الأغصان.. والساق.. والجذور، أنتَ ساق هذا القصر يا خالي، فهل تلومني أن التجأتُ وسكنتُ إليكَ؟

هل فتتَّتْ كلماتها بعض من الصخر الجاثم على قلبه؟ هل سيتقرب إليها ويواسيها، فتكبر الكذبة أكثر، وتعيش الوهم أطول؟ ما أجمل الكذب، ما أجمل الوهم! لكن الوهم تبددً، والكذبة فسدتْ، إذ قال بصوت يخلو من العاطفة:

- لا أعرفكِ لأشتاقكِ، لستُ بحاجة إليكِ.. لستُ بحاجة لأي منكم.

ترقرقتْ في عينها حسرة، صحراء جرداء ناشَدَته مُستَسقية:

- لكنني أحتاجكَ.. كلنا نحتاجكَ، لا تتركنا بغير ظهر يحمينا، ألا يقولون إن الخال والِد؟ أنت أب لنا.. أب لي.. كن أبًا لي يا خالي.

هجمتْ رياح الحنين على قلبها، لم تعد أنفاسًا تحنو، بل عاصفة تصفع؛ القرية.. وأباها.. وشجرة تمر حنة.. تتابعتْ الصور على قلبها، تجرحه بحوافها، ما أصعب الحنين، ما أصعب الشوق!

البرنس الذي شرب كؤوس القسوة، وتربَّى بين أيادي الخادمات تاهتْ كلماتها عن قلبه، وضلَّتْ الطريق إلى عقله، فاكتنفه الضيق:

- يكفي هذا.. اخرجي.

خرجتْ تجر أذيال الخيبة، وتحذِّر قلبها: «إياكَ أن تنتظر أُعجوبة!».

على صوت بُكاء السماء في الخارج أخذتها قدماها إلى الشرفة، توقفتْ «حورية» بغتة، هناك على السور يقف «فؤاد» و«درية» هائم يتناجيان تحت

المطر مثل زوج يمام، فطِنَتْ حديث العيون، وإيماءات الرموش، ولغة الجسد، والكلمات النابتة فوق الشفاه، التي نضجَتْ، وتلك التي لم تُثمِر بعدُ، رأتْ فوق وجهيهما شغف الفضول، وفتنة الاشتهاء، وصوت الملهوف إلى الملهوف. تناثرتْ حفنة من الرماد على قلبها؛ نَكَتَهُ بنُكْتة سواء اسمها «حَسَد»، لملَمَتْ خيباتها وأخذَتْ تبحث عن مخبأ تستتر فيه عن الأعين، قادتها قدماها إلى المطبخ، حيث اعتادتْ أن تكون، تشتاق إلى صوت وابور الطحين، وطلمبة الماء، ورائحة خَبيز «الكانون»[1]، وقدور الجبن والعسل، و«حنون» السمن والسُكر.

جلستْ فوق الأرض العارية، تستند بظهرها إلى الجدار؛ تبحث في مطبخ القصر عن «حورية» الآتية من مطبخ العمدة، أين «حورية» القوية التي وضعت نصل سكينها على رقبة «مرزوق» يوم أن غدَرَ بقلبها؟ هل تبدَّلتْ بواحدة أخرى خلال أيام، هشَّة وقابلة للانكسار؟

طبَقتْ بعينيها على عبرات كادت تخر ساجدة في حضرة الألم:

- لن أبكي.. لن أبكي.

كررتْ العهد على نفسها، ثم لفَّتْ ذراعيها حول جسدها، وبأظافر حادة قطَّعتْ الثوب، وشقَّتْ اللحم.

- ماذا تفعلين؟ هل جننتِ؟

انتفضتْ على صوت «عادل»، حارَتْ أي نزيف يجب إخفاؤه أولًا.. الدم أم الدمع؟! شدَّها.. أوقفها.. مدَّ ذراعها وتفحَّصها، ثم عقَّب بكلماتٍ معقود الحزم بنواصيها:

- كيف تفعلين ذلك بنفسكِ؟ وأنا الذي ظننتُ أن أحدًا ما قد آذاكِ!

استعادتْ ذراعها قسرًا، أجابته كما أجابه «محفوظ» بالأمس:

---

(١) فرن بلدي.

- وما شأنكَ؟

لسعة بردٍ أصابت قلبها حين قال متهكمًا:

- صحيح ما شأني بفتاة مُخادعة يملأها الجشع، نهَش الطمع عقلها وقلبها.

لم تدرِ من أين واتتها القوة لدفعه، لعله الغضب.. الغضب ذاته الذي جعلها تدفع العمدة عنها فيصدم رأسه، ويخر ميتًا:

- أنا صائدة ثروات حقيرة فلماذا لا تفشي سري؟ لماذا لا تذهب إلى أحفاد الباشا وتخبرهم من أكون؟ آه.. نسيتُ أنك لا تعرف من أكون، لستُ قريبة العمدة كما أخبرتكَ، بل خادمته، كذبتُ عليكَ، خدعتكَ للمرة الثانية.

تهدَّج صوتها وهي تُشير إلى الباب الداخلي المُفضي إلى القصر:

- هيا.. ماذا تنتظر؟ اذهب وأخبرهم بكل شيء.

استطار غضبه، تُغذيه نظراتها المُتحدية، نيران تلقي بشررها، لم تخفها ولم تهرب. استدار يهم بمفارقتها؛ قبضت على ذراعه وأعادته إلى مواجهة نظراتها المتحدية:

- ما بكَ؟ هل جبُنتَ؟ هل خشيتَ أن تخسر ما وعدتكَ به من تُحف القصر؟ انظر.. إنكَ مثلي تمامًا، مُخادع يملأه الجشع، نهَش الطمع عقله وقلبه.

مسحتْ العبرات، وكتمت الدماء، ثم أردفتْ مُستعيدة بعضًا من قوتها:

- طالما أننا شركاء في الوضاعة فلنتعاون إذن، لم أستفد منكَ شيئًا حتى الآن، أخبرني شيئًا مفيدًا وإلا ألغيتُ اتفاقي معكَ.

تساءل «عادل» في نفسه: «هل يخبرها الحقيقة الكاملة؟»، أجابت نفسه: «كلا، فتاة مثلها لا تستحقها، فتاة مثلها تحتاج إلى تربية!».

- حسنًا سأخبركِ أمرًا مهمًا.

قالت باستعلاء:

- اترك لي قرار ما إذا كان مهمًا أم لا، قل ما عندك فحسب.

ملأ عينيه بوجهها، وكأنه يدرس كل تأثير سيُبديه عندما يلقي بالقنبلة، تمادتْ نظراته أكثر مما انتوَى، شملت وجهها.. شعرها.. كتف متهدلة وكف تُوارِي تحتها جروحًا غائرة. لماذا ينظر إليها هكذا؟ نظراته تسحب الهواء من صدرها، يضيق، ويضيق، فتنسحق ضلوعها، ما هذا الألم؟ لماذا ينقبض صدرها؟

أفاق على صوتها:

- هيا.. أخبرني.

لملم نظراته، أخذ نفسًا عميقًا، ثم نزع فتيل القنبلة:

- لا توجد وصية!

تشنَّجتْ عضلات «شحاتة» ألمًا؛ حمَلَ القليل من الأغراض، أزاح الأثاث ثم أعاده، كل ذلك عبثًا، لا وجود للمفتاح! شيء صغير مثل المفتاح قد يكون في أي مكان، مكانًا صغيرًا فاتهم أن يبحثوا به، تلك الوصية الغبية تُفسد مزاجه، أي نوع من الأجداد هو؟ كيف يترك لأحفاده وصية عسيرة إلى هذا الحد، وصية ظالمة!

تبًا للرائحة! ما زالتْ تزوره في غرفة نومه، تزداد حدتها كلما همَّ بدخولها أو الخروج منها، لم يفلح تنظيف رئيس الخدم للغرفة مرتين متتابعتين في إزالتها، أو التخفيف منها، إن قُدِّر له أن يكون بين يدي الله ويتمنى شيئًا، فسيرجوه أن تحترق الروائح كلها في قاع الجحيم.

تمتم مُشمئزًا:

- هذا ليس قصرًا، بل بكابورت!

لن يستطيع البقاء في الغرفة المنتنة أكثر، عليه أن يبحث عن مصدر تلك الرائحة اللئيمة. فكَّر في البداية، لعلها عفونة في الجدار الملاصق للمطبخ، فتفحصه شبرًا شبرًا دون جدوَى، الجدار نظيف تمامًا، لا ينخره الماء. ثم فكَّر أن تكون الأرض هي مصدر تلك الرائحة، ففحصها شبرًا شبرًا، لكنه خَلُصَ للنتيجة ذاتها، الأرض نظيفة تمامًا، خالية من أي مصدر للعفونة. عندئذ فكَّر في السقف، لم يستطع الاقتراب منه لدرجة لمسه، لكنه وقف على أطول شيء يستطيع الوقوف عليه، وتفحصه عن قرب شبرًا شبرًا، لكنه لم يجد في السقف أكثر مما وجد في الأرض والجدران.

كاد أن يفقد عقله، سيطالب البرنس الآن بمجئ فريق كامل لتنظيف الغرفة، لن يستطيع التحمل أكثر. عانَى من أجل الصعود إلى الطابق الثالث، قابل «أنيس» مُتخشِّب الوجه أثناء نزوله الدَرَج، لم يتبادل معه حرفًا، لا يعرف كيف يمكن لإنسان طبيعي أن يتبادل حديثًا وديًا مع رجل يتصرَّف بآلية طوال الوقت، وكأنه خُلِق ليصير خادمًا، لا لأن يُفكِّر ويشعر! وأخيرًا وصل «شحاتة» إلى باب غرفة البرنس بأنفاس مُهتاجة، طرق الباب وانتظر بعض الوقت، فلمَّا لم يسمع شيئًا طرقه ثانية بقوة، وثالثة بقوة أكبر، ثم فتحه ودخل! كانت الغرفة خالية على عروشها،

وما أثار حيرته أنه حين اقترب من المكتب وجد فوقه فنجانًا من الشاي تتصاعد منه الأبخرة! يعرف أن رئيس الخدم ممنوع عليه دخول الغرفة، إذن فتح البرنس الباب وأخذ الفنجان منه بنفسه ووضعه فوق المكتب، أين هو إذن؟ إن كان قد خرج فكان على «شحاتة» رؤيته إذ أن صعوده إلى الطابق الثالث استغرق ما لا يقل عن عشر دقائق كاملة!

ضربتْ الحيرة رأسه وهو يتوجه إلى باب الغرفة ويغادرها، ثم يغلق الباب خلفه، أشفق على نفسه من النزول فورًا فارتاح على أول درجة من السلم، لم تمر ثلاث دقائق حتى سمع صوت حركة تصدر من غرفة البرنس، التفتَ «شحاتة» يتطلع بريبة إلى الباب المغلق، دنا منه بروية، طرق الباب مرة، فتوقف الصوت! لحظات وانفتح الباب، ومعه انفتح فم «شحاتة» دهشة، كيف عاد البرنس إلى غرفته دون أن يراه؟! أطارتْ الحيرة بعقله أكثر، سأله البرنس محتدًا:

- ماذا تريد؟

تلعثم وهو يجيب:

- لا شيء، فقط.. أقصد.. لا شيء يا جَناب سعادة البرنس.

نسي ما كان قادمًا من أجله، أغلق البرنس الباب بحدة في وجهه؛ تمتم «شحاتة» مُغتاظًا وهو يُحرِّك رأسه يُمنة ويُسرة:

- «بُكرة تِرخَصي يا ملوخية ويدُوروا بيكِ على البيبان».

جرَّ «شحاتة» نفسه إلى غرفته بالطابق الأول، بينما بقي عقله في الطابق الثالث، يحاول العثور على إجابة سؤال واحد؛ كيف خرج البرنس من الغرفة ودخل إليها دون أن يلاحظه؟ لا يوجد سوى تفسير واحد.. تفسير مريب، يوجد ممر سري يربط غرفة البرنس بغرفة أخرى في الطابق نفسه.

لكن إن كان الأمر كذلك فماذا لم يخرج من غرفته ثم يدخل إلى الغرفة الأخرى بمنتهى البساطة؟ بقي سؤاله مُعلقًا في عقله.

«لا توجد وصية»!

لم تستطع «حورية» منع أصداء عبارته من التردد داخل رأسها لساعات، لولا دخول رئيس الخدم في تلك اللحظة، وأمْره بخشونة بمغادرة المطبخ، لاستفاضتْ في سؤاله عن معنى عبارته المجنونة!

لم تشأ الذهاب إلى كوخه في وضح النهار؛ لئلا ينتبه إليها أحد من القصر، فيظنها تتعاون معه، ويفشي أمرها إلى البرنس، أو يراها البرنس نفسه، كان عليها أن تكتم فضولها حتى تنام الشمس، وكان ذلك من الصعوبة بمكان.

أخرجها من دوَّامات التفكير صراخ «درية» هانم الذي شق السكون، اندفع الجميع إلى مصدر الصوت في الحديقة الخلفية، صاحتْ وهي تنشب أظافرها في كتفها:

- لم أعد أحتمل هذا الألم، لماذا لا يأتون لي بحكيم؟

ساعدتها «حورية» على الذهاب إلى غرفها، والاستلقاء فوق الفراش، سمعتْ أطراف الصياح تأتيها من الطابق الثالث؛ يتشاجر «شحاتة» مع البرنس مُطالبًا إياه بإحضار الحكيم، يحاول «محفوظ» تهدئته، بينما يشجِّعه «فؤاد» على ضرب البرنس، أما «حسين» ظلَّ واقفًا في غرفة «درية» هانم، ينظر لها بعين الإشفاق وقد أسقط في يده. قالت له «حورية»:

- اخرج الآن يا «حسين»، دعها تستريح قليلًا.

انسحب في صمت لاعنًا عجزه، تبعته «حورية»، فظنَّتْ «درية» هانم أن الجميع تركها تواجه ألمها بمفردها؛ انهارتْ باكية، تلطخَتْ الأصباغ فوق وجهها مكونة لوحة سيريالية، أفزعتْ «حورية» عندما عادت إلى الغرفة مرة أخرى:

- اهدئي يا «درية»، سيخف الألم الآن.

وكأن كلمة «اهدئي» قد حفَّزتْ عبراتها لتنهمر أكثر.

بعد قليل دخل رئيس الخدم، عندها توقفتْ عن البكاء، وتطلعتْ بشكٍ إلى ما يحمله من أقماع ومشرط وقطن، سلَّمهم لـ «حورية» قائلًا:

- تفضلي يا هانم، إنها نظيفة، لم تُستخدم من قبل، جاءتْ هدية إلى الباشا ولم يشأ استخدامها، هل تأمرين بشيء آخر؟

- إن احتجتُ إلى شيء سأناديكَ.

اعتدلتْ «درية» هانم لتصرخ في وجهه:

- لماذا لم تأت بالحكيم؟

- حكيم الباشا على سفر خارج البلاد يا هانم.

- ألا يوجد في البلد حكيم سوى حكيم الباشا؟

- الباشا لم يكن يثق في أحد غيره.. وكذلك البرنس، سيعود بعد غد على أي حال، وسيأتي إلى هنا بمجرد وصوله «القاهرة» يا هانم.

- وماذا يجب أن أفعل إلى حين حضور الحكيم؟

هدَّأتها «حورية»، وطلبت من رئيس الخدم الانصراف.

جهَّزَتْ «حورية» الأقماع، وطلبتْ من «درية» هانم كشف كتفها موضع الألم، سألتها الأخيرة بدهشة:

- ماذا ستفعلين؟

هزّتْ «حورية» كتفيها وكأن ما تفعله واضحًا:

- حِجامة!

امتثلتْ «درية» هانم وحسرتْ الثوب عن كتفها بتردد، وما إن رأتها تُقرّب المشرط حتى صاحت:

- هل جُننتِ! هل ستُشرّحين جسدي بهذا؟

- ألا تريدين للألمِ أن يختفي؟ إذن اكتمي فمك ودعيني أقوم بعملي، ولا تقلقي.. أنا أُحسِن ذلك.

وفي المعركة الدائرة بداخل «درية» هانم بين الألم والخوف، انتصر الألم. كانت «حورية» ماهرة كما قالتْ، لم تشعر «درية» بترددها في مسك المشرط، ولا في إحداث شقوق طولية متوازية فوق كتفها، بيدٍ ثابتة واثقة، فسألتها بدهشة:

- أين تعلمتِ ذلك؟

- في البلد.

قالت ذلك ولم تزد. لم تخبرها أنها تعلمتْ الحجامة وأتقنتها كي تتميز عن أي خادمة أخرى من الممكن أن يُفكر العمدة في استبدالها بها، علّمتها الحياة أن قيمتها تتمثل فيما تستطيع تقديمه للآخرين من منافع وخدمات. فتح المشرط مسارًا للدماء الفاسدة كي تُغادر جسد «درية» هانم، وعملتْ الأقماع على شفطها وتسهيل خروجها ببطء. فتحت خلوة الفتاتين كذلك مسارًا للكلمات، تفرّعتْ مسارات الحوار بينهما حتى طالتْ الموضة، والأفلام، وأخبار مجلة الكواكب، ومحلات ضاحية الإسماعيلية، وفتوة المطرية، وقضايا التسعيرة، وارتفاع الدولار إلى

خمسة وثلاثين قرشًا، وحكاية «رمضان أبو زيد» الذي باع الترام رقم ٣٠ لقروي ساذج بمائتي جنيه[1]، وسهراتها مع زوجها في كازينو بديعة في ميدان الأوبرا، وأخبار الملكة «نازلي» وابنتيها «فائقة» و«فتحية»، وأخيرًا حادثة حريق القاهرة.

تآكلتْ المسافات بينهما، حتى انتهى مطاف الحديث إلى حياة «درية» هانم البسيطة قبل الزواج، وطموح والدتها الذي يطال السحاب.

- كانت تعيش في غرفة من الخوص عند شاطئ المعمورة، أرملة، تُربي وحدها ثلاث بنات، دلَّالة تلف على البيوت والأسواق لتبيع القماش، ورغم ذلك زوَّجتْ بناتها الثلاث من أغنياء، امرأة قادرة، لا يقف شيء في وجهها، تعدد زبائنها، حتى وصلتْ إلى سيدات الطبقات الأرستقراطية، تقرأ لهم الفنجان وتُبشر بالجاه والولد والمال، والناس عطشَى للأمل.. للسعادة، امرأة ذكية تعرف كيف تُصادق عدوتين وتكسب من ورائهما أموالًا طائلة، تفشي لهذه أسرار تلك وتأخذ من تلك ما يفيد هذه، دخلت نوادي سيدات المجتمع، وجلستْ إلى طاولات لم تتخيل يومًا أن تقف لتُخَدِّم عليها، وكنا نحن الثلاث أخوات جميلات.. نهبل، والجمال يا عزيزتي يفتح جميع الأبواب الموصدة، صارتْ أمي تأخذنا معها إلى النوادي ونمُر على طاولات زبائنها وكأنها تعرضنا ضمن بضاعتها. ألم يُغضبكِ ذلك؟

- بصراحة كنت أغضب في البداية، وأعترض على ذهاب أختيَّ معها، ثم تزوجتْ أختي الكُبرى برجل ثري يكبرها بكثير، وكنت أرى كيف يفرش لها الأرض بالمال، لو تزوجَتْ شابًا في مثل عمرها

(١) نُشِر الخبر في جريدة الأخبار ٣ يناير ١٩٤٨.

لماتت قهرًا، كيف لشاب حديث التخرج أن يعيِّشها عيشة مماثلة؟ إن لم يكن طبعًا ابن بك أو باشا، ثم تزوجَتْ أختي الوسطى برجل يماثله في الثراء، وحينما أتى دوري لم أعترض.. اختفى الغضب!

- وأين أختاكِ الآن؟

- تعيشان خارج البلاد مع زوجيهما وأطفالهما، أما أنا فبعد موت زوجي عُدتُ لأعيش مع أمي في بيت كان قد اشتراه لها هدية زواجنا، بيت صغير لكن يطل على النيل، به تليفون خصوصي.. وسجاد عجمي.. وأثاث آخر «ألاجة».

مرَّتْ كلماتها على عقل «حورية» وقلبها، فهمها علقها واستوعَب أسبابها، أما قلبها فقد طلَّق منطق «درية» هانم طلقة بائنة لا رجعة فيها، كيف تتزوج امرأة برجل من أجل ماله فقط؟ لكن هذا السؤال بالذات صار مشرطًا شقَّ وجدانها، وأخرج ما توارَى فيه من نوايا، سألتْ نفسها: «لماذا إذن كنتِ ترغبين في الزواج من «مرزوق»، هل هو الحب؟ «مرزوق» الضعيف الذي لا يستطيع مجابهة العمدة، ولا تكفي قوته لتحميكِ من بطش أمه، ولسان أخته، هل رأيتِ فيه رجُلكِ حقًا، أم فرصة تنتشلكِ وأباكِ من وحل الفقر؟ هل ما جرحه «مرزوق» بإعراضه عنكِ قلبكِ أَم كبريائكِ؟

- أنا بحاجة إلى هذا القصر.

تجمَّدتْ أصابع «حورية»، استدارتْ «درية» هانم لتواجهها، ثم تردف:

- أمي ترغب في تزويجي مرة أخرى.. بالطريقة ذاتها.

أزاحتْ «حورية» كل الكؤوس عن كتفها، مسحتْ الدماء، ثم جاوَرَتها فوق الفراش، بادرتها:

- يمكنكِ أن ترفضي، أنتِ الآن غنية بعد وفاة زوجكِ، قلتِ إن لديه مناحل عسل في الإسكندرية.

ترقرقتْ عيناها بالعبرات، قالت بمرارة:

- لستُ غنية كما تظنين، كل ما بقى لي من حياتي السابقة مع زوجي هو لقب «هانم» وبعض الملابس والأحذية والقليل من المجوهرات، وضع أهل زوجي أياديهم القذرة على كل شيء لأنني لم أنجب منه.

حلَّ الصمت بينهما، ثم قالتْ «حورية» بحماس:

- يمكنكِ أن تقنعيها، يمكنكِ أن تخبريها أنكِ لن تكوني سعيدة إن لم تختاري رجُلكِ بنفسكِ.

لاحتِ على شفتيها ابتسامة بطعم الحنظل:

- هل جربتِ الشبع بعد جوع؟

حَارَتْ «حورية» في الجواب، فهي لم تُجرب إلا الجوع، استطردتْ «درية» هانم:

- أمي شبعتْ بعد جوع، دعيني أُخبركِ أن مثل هذا النوع من البشر لا يشبعون أبدًا، حتى وإن اتَّخمَتْ بطونهم بالطعام وخزائنهم بالمال، ينسون كيف يكون الشبَع!

ثم أردفتْ وهي تضع كفها فوق كتف «حورية»، تشد عليه بقوة:

- أحتاج إلى هذا القصر، أريد أن أعيش كما يعيش الجميع، أتزوج من يهواه قلبي.. أرتدي ليلة زفافي فستانًا أبيض من تصميم Coco Channel مثل الفستان الذي صُمم خصيصًا لـ «ليلى مراد» العام الماضي، لو فزتُ بهذا القصر ستتركني أمي في حالي وسأحقق كل أحلامي.

استجلَبَتْ بكلماتها تعاطف «حورية»، وشفقتها، لا يجب أن تتزوج امرأة قسرًا، هذا ظلمٌ بيِّن.

- قبل قدومي إلى القصر كنتُ على وشك الموافقة على الزواج من الرجل الذي اختارته أمي لأتخلص من إلحاحها، لكن الآن مستحيل.

ثم اعترفتْ فجأة:

- يُعجبني «فؤاد».

مرَّتْ سحابة سوداء فوق رأس «حورية»، تُمطِرها بؤسًا، بينما رفيقتها تستطرد:

- وأنا أعجبه، لم يخبرني، لكنني أحسستُ، تعرفين أننا نُحسِن إدراك هذه الأمور.

ثم استطردتْ بنبرة يفوح منها عطر الأمل:

- لو فاز أحدنا بالقصر سيقتسمه مع الآخر، أقرَّتْ عيوننا ذلك، دون حاجة لكلام ومواثيق وعهود.

كادتْ تقول لها: «وكنتُ أنا شاهدة، هناك على الشرفة حيث وقَّعتما الاتفاق».

أدركتْ «حورية» أنها كانت على وشك أن ترسم حلمًا آخر فوق السحاب، هنيئًا لـ «درية» هانم، أفاقتها قبل أن ترتكب الخطأ ذاته مرتين، لو كانت الخالة «بهانة» هنا لنهرتها قائلة: «من تكونين أنتِ، ومن يكون «فؤاد»؟. «كل برغوث على قدر دمائه يا بنت الغجرية»».

أمسكتْ ذراعها، جاهدتْ كي لا تخمشه تحت أنظار «درية» هانم التي سألتها بودٍ:

- لماذا تُساعدينني؟ لستُ لطيفة معكِ كثيرًا.

قالت «حورية» بجدية بالغة:

- لأنني إن عمَلتُ خيرًا أجد خيرًا.. وإن عمَلتُ شرًا أجد شرًا، المثل يقول: «اللي تِعمله العَنزة يُقعد في قرونها».

ضحكتْ «درية» هانم لجوابها، وفجأة صرختْ بذعرٍ وهي تنظر إلى انعكاس كتفها في المرآة:

- ماذا فعلتِ بي؟ كتفي.. شوَّهتِ كتفي يا غبية

سارعتْ «حورية» تُطمئنها، وتخبرها أن الآثار الزرقاء الداكنة التي تبدو ككدمات شديدة ستزول خلال أيام.

لكن آثار كدماتها هي لن تزول.

أسدَلَ القصر جفونه قبل منتصف الليل، ثمة قطة تتهادى في الحديقة، ربما تبحث عن فُتات طعام، أو يُزعجها غياب رفيق تتشاجر معه؛ بعض الأرواح تحب المُشاكسة، وتكره العيش في سلام.

الكوخ خالٍ منه ومن ذئبه، تجرَّأتْ «حورية» على الدخول، رأت أغراضًا بسيطة، قليلة، متناثرة هنا وهناك، بترتيب يعرفه صاحبه، ثمة مسماران مُثبَّتان بالجدار يقومان بعمل مشجب، عُلِّق فوقه طربوش، يجاوره عمامة! تعرف «حورية» أن عالم الطرابيش مختلف عن عالم العمامة، وكلاهما بعيد عن عالم الفتوَنة؛ كيف يغرس الرجل -الذي لا تعرف اسمه- قدمه في كل هذه المتناقضات؟

انتبهتْ إلى موقد سبرتو نحاسي في أحد الأركان، فوقه براد شاي به ماء قد أوشك على الغليان، إذن هو لم يبتعد كثيرًا. رأت في أحد الأركان قصيصًا انبثقتْ منه نبتة «أقحوان»، تفتحت زهراتها البيضاء ذات القلب الأصفر، دنتْ منها وهمَّتْ بقطف واحدة، عندئذ حدث ما كان ينبغي لها أن تتوقعه:

- إياكِ أن تقطفي الأزهار.

لم تفزع هذه المرة، اعتادتْ مُستقبلاتها العصبية ظهوره المُفاجئ، بررَّتْ:

- أنا أحبها.

- لماذا تقتليها إذن؟

حارَتْ في سؤاله! بدا منطقيًا إلى درجة أفزعتها؟ إن كانت تُحب الأزهار حقًا، فلمَ تقتلها فقط لتشتمَّها بضع ساعات ثم تلقي بها ذابلة منزوعة الحياة؟! كيف لم تسأل نفسها هذا السؤال من قبل؟ أثقلها الضيق، تكره أن تبدو أمامه في كل مرة كطفلة صغيرة مُخطئة. أطفأ النار، وأعدَّ كوبًا زجاجيًا لصب الشاي، توقف بغتة، ثم سألها:

- هل تشربين الشاي؟

عاودها الحماس، بداية مُبشرة لتعاون مشترك:

- إن لم أزعجكَ يا سي الأفندي.

- تُزعجينني، لكنني تعوَّدتُ إكرام ضيوفي.

اغتاظَتْ كثيرًا:

- هل أنتَ دائمًا صريح إلى درجة الوقاحة؟

ابتعدتْ عنه في تبرُّم دون أن تنتظر جواب سؤالها، تفحَّصتْ أحد أركان الكوخ، رأتْ طاولة موضوع فوقها عدة كتب، قرأت عنوانًا بعد آخر، ثم توقَّفَتْ عند أحدها، علتْ شفتيها ابتسامة فرحة وهي تقول:

- أحب هذا الكتاب.

توقف عن صب الشاي، استرق النظر إلى الكتاب الذي تحمله، سألها بدهشة حقيقية وقد ظنَّ أنها تجهل القراءة والكتابة:

- هل قرأتِه؟

كشفَتْ نبرات صوتها عن فخر كبير انتفشَ به صدرها:

- خمس مرات.

كان كتابًا صغيرًا يضم «الأربعون النووية»[1] مع شرح مُبسَّط لكل حديث. أكمل صب الشاي:

- لا أصدقكِ.

اغتاظتْ أكثر حين عاملها كجاهلة، احتدَّتْ وكأن سنوات تعلُّمها القراءة والكتابة قد ذهبتْ أدراج الرياح:

- لماذا؟ ألأنني فلاحة أتتْ من قرية متواضعة؟

- لأنكِ تُكثرين من الكذب.

وقفتْ أمامه تمد يدها بالكتاب، تتحدَّاه:

- اختبرني إذن، اختر أي حديث وسأقوله غيبًا.

لا تعرف لماذا تُصر على أن تثبتْ له صدقها، وأنها ليست أُمِّية كما ظنَّ. تجاهل يدها الممدودة:

(١) كتاب يجمع أربعين حديثًا نبويًا صحيحًا.

- لا داعي، إن لم يظهر تأثير الكتب على أقوالك وأفعالك فلا فائدة من قراءتها إذن، يمكنك أن تحفظيها غيبًا لكن ذلك لن يكون إلا عبثًا.. مثل حمار يحمل أسفارًا.

هل شبهها للتو بالحمار؟!

هتفتْ به:

- الذوق أيضًا، يُمكن للكتب أن تُعلِّمك كيف تكون أفنديًا محترمًا يُحسن معاملة خلق الله.. «الكلمة الحلوة ترقِّد شعراية الأسد».

أحسَّ أنه تمادَى بالفعل، ولم يستطع منع نفسه من الابتسام لما استخدمته من تعبيرات، استوقفها، يسترضيها دون أن يلين لها كثيرًا:

- معكِ حق.. أعتذر، ليس من عاداتي مهاجمة الآخرين، لكنكِ تُثيرين غيظي في بعض الأحيان.

وضعتْ كفيها في وسطها، واستنكرت:

- الخطأ خطأي إذن؟!

- كلا.. خطأي، اشربي الشاي قبل أن يبرد.

على مضض تناولتْ الكوب، خرج ليجلس فوق صخرة صغيرة أمام الكوخ، وقفتْ مترددة تسترق النظر إليه؛ علَّق ساخرًا:

- اطمئني لن آكلكِ، تناولتُ عشائي منذ قليل.

زفرتْ بحدة، ثم جلستْ على صخرة مماثلة في مواجهته، بدأ في إشعال النار في حطب كان قد جمعه في الصباح. رفعتْ رأسها إلى السماء التي تُنذر بهبوب المطر، الجو بارد، والنار الناتجة عن احتراق الحطب لا تكفي لتدفئتها، في الحقيقة لو احترق حطب الدنيا كله لن يكفي ذلك لتدفئتها. قال بغتة:

- لماذا تفعلين ذلك بنفسكِ؟

لم تفهم ما يرمي إليه إلا عندما تتبعتْ نظراته التي استقرَّتْ فوق ذراعيها، انطلق عواء ذئب قريب، انتفضتْ، لكن ثباته وشربه للشاي دون أن يبدو عليه أدنى شعور بالخوف منحها بعض السكينة، شربتْ عدة رشفات ساخنة من كوبها، ولم تأبه إلى الحرارة التي تحرق لسانها. قالتْ وهي شاردة في ألسنة النار:

- أتعلم.. قبل أن آتي إلى هنا سألتُ نفسي لماذا أطلب مساعدتكَ رغم أنكَ تتعامل معي بسوء في كل مرة.

استرعى حديثها انتباهه، سألها:

- وبماذا أجابَتْ نفسكِ؟

- لأنكَ تؤذيني.

صدمه جوابها، ارتفع حاجباه دهشة، استطردتْ:

- وأنا أحب أن أتعرض للألم؛ لأنني أستحق العقاب.

استجلبتْ بكلماتها تعاطفه، لكن ليس شفقته. أردفتْ:

- لماذا تقترب الفراشات من الضوء فتحترق؟ هل لأنها انجذبتْ إليه؟ هل لأنه جميل؟ كلا.. لأنها ترغب في معاقبة نفسها.

- لماذا تُعاقب الفراشات نفسها؟

- لأنها بلا نفع، تستهلك هواء هذه الدنيا عبثًا.

استحوذ حديثها على كامل انتباهه، قال:

- لا أظن، صحيح أن الفراشات لا تمنحنا العسل الشافي مثل النحل، ولا اللبن واللحم مثل الأغنام، لكنها تُعلِّمنا بشكلها وألوانها كيف

نستمتع بالجَمال، تُعلِّمنا بدورة حياتها معنى الأمل، الدودة التي تتحول إلى شرنقة ثم فراشة جميلة تُخبرنا أننا أيضًا نستطيع أن نُمزق شرنقة المجتمع والتقاليد والظروف، ونطير إلى سماء الحرية.

تنبهّتْ «حورية» إلى انحسار أكمام قميصه عن ذراعيه، أبصرتْ على ضوء النيران آثار حروق واضحة، تقل في أحد ذراعيه وتكثر في الآخر. تتبَّعَ نظراتها؛ على الفور أنزَل الأكمام وأخفى الأثر، لكنها لم تقبل بصد الباب في وجه فضولها:

- ما سبب هذه الحروق؟

ببرود أجاب سؤالها بسؤال:

- وما سبب فضولكِ؟

ألا يستطيع هذا الرجل أن يُجيب على الأسئلة ببساطة؟!

طرحتْ سؤالًا آخر، لكنها لن تسمح له بالتهرب من إجابته:

- ما قصة «لا يوجد وصية!» التي قلتها لي صباحًا؟ لماذا تمزح في أمر خطير كهذا؟

- لا أمزح، بالفعل لا توجد وصية.

لا تستطيع أن تُدير دفة عقلها بعيدًا عن آثار الحرق على ذراعيه، يبدو بهذه الحروق حقيقيًا جدًا، إنسانًا مثلها قابل للألم! قالت باندفاع:

- والمحامي.. والوصية التي قرأها.. والمفتاح.. والفوز بالقصر؟

- كل ذلك مجرد خدعة.

نهضتْ بانزعاج، سكبتْ بعض الشاي على كفها، احترقتْ لكنها لم تأبه لذلك:

- أنت كاذب، تخدعني لسبب لا أعرفه، لا يمكن لما تقوله أن يكون حقيقيًا.

مستحيل!

هل أضاعت كل هذا الوقت عبثًا؟ ألن تستطيع مساومة ابنة العمدة؟ هل سينتهي بها المطاف وحبل المشنقة حول رقبتها؟ ومَن لأبيها إذن؟ ماذا سيفعل من دونها؟

نهض بدوره، قال ببروده المعهود:

- صدقي أو لا تصدقي.. هذا يرجع لكِ.

وضعت الكوب أرضًا بعنف، قالت وهي تلوح بيديها:

- لا أصدقك.. لا أصدقك.

استشاط غضبًا:

- ألهذه الدرجة لا تستطيعين التخلي عن جشعكِ؟

كررتْ وكأنها تهذي:

- أنت كاذب، لا أصدقك.

ولَّتْ منه فرارًا، جاهدتْ كي تطرد كلماته عن عقلها، لكن عقلها الباطن استخدمها بشراسة ضدها، في حلم مفزع، لمشنقة مُعلقة فوق شجرة تمر حنة.. وأهل القرية يلفون الحبل السميك قسرًا حول رقبتها.. تجمهر الجميع لمشاهدة لحظة إعدامها.. يضحكون ويُهللون.. انضم إليهم «درية» هانم و«فؤاد» و«حسين» و«شحاتة» و«محفوظ».. يصرخون

فيها.. يلقونها بالحجارة.. يبصقون في وجهها.. ومن بعيد طارتْ نحوها حمامة بيضاء بعيون زرقاء.. لكن هذه المرة استقر في نفس «حورية» أنها جاءَتْ في سلام!

(((اليوم الرابع)))

استيقظَتْ مُتعكرة المزاج، حتى أنها بالكاد كانت تُجيب على تحية الصباح، حدَّثَتْ نفسها أن عليها أن تبذل جهدًا أكبر في العثور على المفتاح، لن تُصدق هذا الهراء عن عدم وجود وصية.

الطريق إلى المفتاح يبدأ من فهم اهتمامات الباشا، وما كان يشغل عقله قبل وفاته، فلربما يوصلها ذلك إلى سبب تلك المتاهة السخيفة التي أراد وضع أحفاده فيها. عليها الآن أن تولي اهتمامًا أكبر لدراسة تلك الأوراق والخرائط التي وجدتها في غرفته، على الأقل تلك المكتوبة باللغة العربية.

عادتْ مرة أخرى إلى العبارة التي استوقفتها في المرة الأولى.. «إكسير الخلود»، أوراق كثيرة تتحدث عن الخلود بعد الموت، وعن سائل مُقدس يمنح شاربه حياة أبدية لا نهاية لها! ما فهمته كان مجرد نقطة في بحر ما لم يستطع عقلها استيعابه، أغاظها ذلك بشدة، لكنها لن تركَن إلى اليأس.

يبدو أن الباشا كان مهتمًا بالفرار من براثن الموت، أكثر من اهتمامه بالاستعداد لملاقاته! توحي ملحوظاته، التي كتبها بخط رديء بعضها شديد التعقيد، أنه كره الموت كما لم يكره شيئًا من قبل، وأنه كان في بحث دائم عن القوة.. السُلطة.. الجاه.. المُلك، أراد أن يعتلي عرش العالم فيكون الأكثر حظًا وثراءً.

أثار ذلك استهجان «حورية»، لم تفهم وهي مَن عاشت تلك الحياة البسيطة في قريتها، كيف يصل الجشع بالإنسان إلى أن يرغب في امتلاك الدنيا بأسرها، ألا تكفيه نومة هنيئة، ولقمة شهية، وذراع حبيب تحميه من البرد؟ هي يمكنها أن تكتفي بذلك، لكن الباشا لم يكن هي، أراد أن يتحرر من سُلطة الحياة، بأن يمتلك زمامها، يتسلَّط ولا يُتَسلَّط عليه، تحرر تِباعًا من قيود العُرف، العادات، الأخلاق، القانون.. ثم الدين.

أراد حرية كاملة، نفرَ من كل سُلطة فوقية يخضع لها، حتى وإن كانت قُدرة الله نفسه! بسملَتْ «حورية» وحوقلَتْ، اشمئزتْ مما أعدته بفطرتها أفكارًا كُفرية، كيف يتمادى الإنسان في بحثه عن الحرية إلى درجة الرغبة في التحرر من عبوديته لله؟!

قلَّبتْ «حورية» الأوراق، تقرأها بعناية شديدة، حتى وصلتْ إلى معلومات عن وثيقة صينية طاوية[1] تتحدث عن دواء أسطوري يمنح صاحبه حياةً أبدية، وعلى هامش أحد الكتب قرأت معلومة عن إمبراطور صيني -لم تستطع نطق اسمه- مات مسمومًا بجرعات زائدة من «الزئبق»، وصفها له الخيميائيون ضمن مكونات عقار «إكسير الخلود»!

ما هذا العبث؟ إلى أين يوصِّلها ذلك؟!

ما إن وضع «حسين» سماعة الهاتف وانقطع الاتصال، حتى طفق يدور في الصالون حول نفسه، يصنع دوَّامات.. يقضم أظافره.. يتحدث إلى نفسه.. يتخلل شعره بأصابعه.. يشده.. تُنتزَع بعض الشعيرات.. يلقيها أرضًا.. يدور ويدور.. ثم يخرُّ باكيًا، تمامًا كما كان يفعل وهو صغيرًا من

(١) ديانة صينية قديمة.

حسن حظه أن الجميع بالخارج يُعدِّون لحفة شواء في الحديقة، لم يره أحد وهو في هذا الوضع المزري. لم يعد يحتمل سماع الآهات، أضحتْ كل آهة مسمارًا يدق في جسده نعشًا، يا له من ضعيف، ذليل، مَهين، لا يقوَى على وقف الآهات، ووأد الصرخات!

أمه في المستشفى للمرة التي لا يتذكر عددها، تُعاني كسرًا في الذراع والصدر والترقوة، انهال عليها أبوه ضربًا بعصا الغَليّة، تجبَّر عليها كعادته، وجريمتها الشنعاء أن الطعام كان باردًا! يلوم «حسين» أباه لأنه راعي نقضَ عهود الأمانة وأضرَّ برعيته، امتص كل دفء مُحتمل، ولم يُبق بين جدران بيته سوى البرودة، والخوف، الألم، لم يكن الطعام وحده باردًا، بل حياتهم كذلك، لكنه انتبه فحسب إلى ما يملأ شهوة بطنه!

دقيقتان مرَّتا منذ أن انقطع الاتصال بأخته الباكية، مات خلالهما سبعين ألف مرة، كرر بهذيان:

- يجب أن ينتهي هذا.

نظر بحسرة إلى ساعة الرمل الأنتيكية التي تأكل الدقائق والساعات، الزمن ينفَلتُ، ولا أحد يستطيع أن يلجمه، عليه أن يُسرع قبل أن تنتهي الساعة الرملية من فقد كل الرملات. اندفع إلى غرفة الباشا، رغم أنهم بحثوا فيها ثلاث مرات على الأقل حتى الآن، إلا أنه شعر أنها مُبتدأ اللغز ونهايته، ربما لأنها الغرفة الوحيدة التي تحمل أنفاس الباشا، كل غرف القصر باردة بغير شخصية، لكن هذه الغرفة مختلفة؛ عرف من «أنيس» أن الباشا كان يقضي فيها جُل أوقاته، لا يفارقها إلا فيما ندر، لعله خبَّأ المفتاح فيها، بمكان لم ينتبهوا له في الثلاث مرات السابقات. همسَ بحماس:

- نعم، لا بد أنه هنا.

رغم هزال جسده إلا أن رغبته في إيجاد المفتاح دفعتْ في عروقه بقوة لم يعتدها في نفسه، فتَّش السرير، حرَّك الدولاب، رفع الطاولات، أزاح السجاد، نزع المفروشات، وخلع الستائر! ساعة من العمل المتواصل، لم يتخللها سوى عدة ثوان يلتقط فيها أنفاسه اللاهثة، انهال على الوسادة باللكمات:

- لا شيء، لا أثر لهذا المفتاح اللعين.

كاد يُمزق الوسادة لولا أنه تذكر في آخر لحظة الشرط الأهم من الوصية، عدم تخريب أو كسر أو تمزيق أي من مقتنيات القصر. كاد أن يُجن، شدَّ شعره، قضم أظافره، طفق يدور حول نفسه يفكر في الخطوة التالية، عليه أن يعيد البحث في كل الغرف مرة أخرى، أمسكَ بالباب ليفتحه لكنه عانده، فسبَّه، وركله ركلة آلمتْ ساقه، ولم تؤلم الباب.

توقف بغتة، انتبه إلى أمر لم يسترع انتباهه من قبل.. الباب، به شيء غريب! أتى بأحد المقاعد، خلع حذاءه؛ لئلا يُفسد المقعد، وصل إلى الباب من أعلى، نعم به شيء غريب؛ الباب لا ينغلق بالكامل، يظل جزء منه بارزًا إلى الخارج، لا يدخل في الفراغ رغم أنه مغلق تمامًا، تُرى هل يُفضي ذلك إلى شيء؟ تفحَّص كل شبر من الباب المزخرف بأزهار بارزة مطلية بلون ذهبي لامع، لم يجد ذلك الانبعاج إلا في الأعلى، ومن الجهة المواجهة للغرفة من الداخل. صبَّ اهتمامه على هذا الجزء المنبعج، تلمَّس كل جزء من تلك الأزهار، حرَّكها جذبًا، ودفعًا، وسحبًا، و.. لفًّا! فانفتح من الباب باب!

كانت إحدى الأزهار قابلة للدوران في اتجاه عقارب الساعة، ما إن أدارها حتى انفتح من الباب باب صغير لمخبأ مسحور، تسارعتْ أنفاسه، وكاد أن يخر مغشيًا عليه من الفرح، تُرى هل عثر أخيرًا على المفتاح؟!

لم تكن حفلة شواء صاخبة؛ يقوم «أنيس» بشوي الحمام واللحم في الحديقة، ثم يُعبِّيء الأطباق ويرصها فوق الطاولة، كان هذا اقتراح «درية» هانم إذ قالت:

- أليس الجو بديعًا اليوم؟ من باب التغيير دعونا نتناول طعامنا في الخارج.

في الحقيقة لم يكن الجو بديعًا إلا لنصف ساعة فحسب، ثم هجمت الغيوم على السماء في غارة شنعاء، وابتلعتْ الشمس في بطنها؛ مما دفع «محفوظ» للتذمر، إلا أن «فؤاد» عقَّب باسمًا:

- تناول الطعام كل يوم في المكان نفسه يصيب المرء بالضجر، حتى وإن كان الجو غائمًا يبقى التجديد شيء جميل.

لم يهتم «شحاتة» إن كان الجو صافيًا أم غائمًا، يلتهم الطعام بشهية مفتوحة، مُتهمًا البرنس بأنه مضيف بـ «أخلاق فالصو»، لعدم مشاركتهم الطعام، عقله مُشتت عن الأحاديث الدائرة؛ انصبَّ جُل تركيزه على التفكير في مصدر تلك الرائحة الكريهة التي احتلَّتْ غرفته، وسلوك البرنس الغامض.

أما «محفوظ» فكان يتناول طعامه في صمت، دون أن يشارك في الحوار المرِح الدائر بين «درية» هانم و«فؤاد»، لم يظهر المفتاح حتى الآن، وهذا دعاه للتفكير في أن «الأعور» يخدعه، لا يوجد مفتاح من الأساس، واشترك البرنس معه في تلك الحيلة لسبب ما. مهما تكن الخدعة المشتركة بينهما لن يقبل بأن يخرج من هذا المولد بلا حُمُّص؛ سيأخذ القصر رغم أنف الجميع، عليه فحسب أن يُفكر في خطة مُحكمة من أجل إبعاد المدعوق «عادل» عن القصر، أما أبناء خالاته فلن يأخذوا في يده غَلوة، يستطيع أن يُخيفهم بسُلطته، أو أن يُفتش في ماضي كل منهم ويقف على نقطة ضعف

يذله من خلالها، سيدفعهم جميعًا إلى التنازل عن حصصهم في القصر برغبة أو دون رغبة.

أما البرنس فأمره في غاية البساطة، يعرف أنه يخفي الرائحة العفنة لديونه لصالات القمار خلف حفلات يقيمها هنا وهناك بغير حساب، يُحاول من خلالها عقد الصفقات المشبوهة ليستجلب مالًا يكفي لسداد ديونه، إن هددَّه بفضح أمره وتشويه سمعته، لن يتوانَى البرنس عن منح «محفوظ» ما يريد، و«محفوظ» لا يشتهي سوى شيء واحد.. القصر.

حامَتْ الذئاب حول الحد الفاصل بين الحديقة والغابة، يأسرها الدفء ورائحة اللحم، لكنها لا تجرؤ على الدخول إلى الحديقة إلا بأمر كبيرها.. الذئب الرمادي.. وكي يأمن «عادل» مكر الذئب الرمادي أعدَّ له وجبة شهية من اللحم، التهمها بشراسة، وحين شبع وامتلأتْ بطنه عاث في باقي الذئاب عويلًا، مُحذرًا، ومُهدِّدًا ألا يقترب أحدهم من الحديقة، فتقاتلوا على فُتات الطعام التي يلقيها لهم «أنيس» كل ثلاثة أيام. علتْ ابتسامة تهكمية شفتي «عادل» عندما نجحتْ خطته، جرَّب تلك الخطة من قبل وكانت تنجح في كل مرة، كي يأمن شر قطيع الذئاب عليه إطعام كبيرهم!

أكل الجميع حتى شبعوا، تركت «حورية» حمامتها في طبقها دون أن تمسها، وحينما مرَّتْ أمام الكوخ في طريقها إلى القصر، أبصرتْ «عادل» من بين الأشجار يجلس فوق صخرة ويأكل من صحن به خيار وخس وجزر.

تذكَّرتْ نفسها، حين كانت في دوَّار العمدة، منبوذة، تأكل بمعزل عن الجميع، طعامًا لا يسمن ولا يغني من جوع، تزورها روائح الطعام الشهية الذي عملتْ على إعداده بيديها، دون أن تذق منه لقمة واحدة.

عادتْ إلى الطاولة، أخذت الحمامة ولفَّتها في منديل قماشي كبير، ثم صعدتْ إلى غرفتها، وأخفتها في دولابها.

أثناء خروجها من غرفتها اصطدمتْ بـ «حسين» الذي اكتسى وجهه بصنوف الارتباك، سألته:

- هل أنت بخير؟

أجاب باضطراب:

- نعم، نعم.

استرعى انتباهها انبعاجًا أسفل ملابسه:

- ما هذا؟!

تلعثم وهو يُبرر:

- لا شيء.. لا شيء.

ثم ولىَّ هاربًا إلى غرفته، وأغلق الباب بالمزلاج من الداخل! تساءلتْ «حورية» في حيرة: «تُرى هل عثر على المفتاح؟ لكن إن عثر عليه أما كان ينبغي عليه أن يتوجه إلى البرنس ويعطيه له ويخبر الجميع أنه فاز بالقصر؟ لماذا يتصرف مثل اللصوص إذن؟ ما الذي عثر عليه وأخفاه في ملابسه بهذه الطريقة الصبيانية الساذجة؟!».

انتظرَتْ حتى سكبَ الليل ظلامه في أرجاء السماء، ثم خرجتْ من باب المطبخ، وتوجَّهتْ إلى الكوخ. هذه المرة كان الذئب الرمادي حاضرًا، يجاوره صاحبه، يُمرر أصابعه في عنقه، ما إن رأها حتى هبَّ على أربعٍ؛ تقهقرتْ خوفًا، فباردها صاحبه:

- لا تخافي، لن يؤذيك.

قالت والخوف يوشِم قلبها بأصباغه:

- وما أدراكَ أنه لن يؤذيني؟ انظر كيف ينظر لي.

أكَّدَ بثقة، وهو يتفرَّس في أمارات الخوف على وجهها:

- لن يؤذيكِ؛ لأنكِ بجانبي.

دارتْ حول النار المشتعلة، ثم جلستْ على الصخرة الأقرب إليه، دون أن تحييد بعينيها عن الوحش الذي يُبدي لها أنيابه، وكأنه يرسم لها مصيرها إن أتتْ بحركة لا تعجبه.

- لماذا تحب الذئاب؟

أجابها ببساطة:

- لا أحبها.

سألته باستهجان:

- لماذا تروض هذا الذئب إذن؟

- كي أتَّقي شره.

بدا لها جوابه غريبًا؛ لم تستطع استيعاب منطقه. قالت وهي تُعمِل نظرها في أرجاء المكان المخيف:

- لا أفهم لماذا أحاط الباشا قصره بغابة وذئاب؟

- كان يخاف إلى درجة أنه لم يكتف بالكلاب!

- الباشا بجلالة قدره يخاف!

- برأيكِ مَن أكثر إنسان يخاف؟

- الأكثر جُبنًا.

- بل الأكثر ظُلمًا.

توقَّف تفكيرها عند جوابه للحظات، رجل يملك كل هذا المال والجاه لا بد أنه ظلَم البعض في طريقه كخسائر متوقعة، لكن إلى أي حد بلغ ظلمه؟ هذا ما لا تعرفه.

سألته وهي تتخيل تفاصيل الوجه في الصورة الكبيرة المُأطَّرة في الصالون:

- كيف كان الباشا؟

- رجلًا كريهًا.

- هل كرهته؟

- بل أشفقتُ عليه.

لماذا يلوي عنق الحديث؟ هل يتعمد أن تكون إجاباته غير مفهومة؟ تذكَّرتْ ما أتتْ من أجله؛ مدَّتْ يدها بالمنديل القماشي الملفوف، استفسر وهو يتناوله منها بحذر، فأخبرته:

- حمامة مشوية.

ثم سارعتْ بالتوضيح مخافة أن يظن أنها أتته بفائض طعامها:

- سليمة لم آكل منها، أنا لا آكل الحمام.

انعقد ما بين حاجبيه، سألها عن السبب، أجابته ببساطة وهي تهز كتفيها:

- لأنني أحبه.

تذكر حين سألها لمَ تقطف الزهور إن كانت تحبها؛ لاحَتْ على شفتيه شبح ابتسامة، هذه الفتاة ذكية بالتأكيد. شكرها ثم قال:

- إلى ماذا أدين بهذا الكرم الحاتِمي[1]؟

أزعجتها كلماته، أيجب أن يكون هناك سبب وراء ما تقدمه من خير؟ أيراها خبيثة إلى هذه الدرجة؟ كعقاب له لم تجبه. شعر أنه تسبب في إزعاجها؛ نحَى بالحديث مَنحَى آخر، يحاول سبر أغوارها ليفهمها:

- لماذا تحبين الحمام؟ ألأنه طائر وديع؟. جميل؟. ضعيف؟

حارتْ هل تشرح له ما يعتمل في نفسها حقًا أم تمنحه جوابًا بسيطًا دون إطالة، تطلَّعتْ إليه، بدا على أهبة الاستعداد لسماع حديثها وإن طال؛ أخذتْ نفسًا عميقًا ثم قالت:

- في قريتنا جدار باقٍ من جُرن حمام متهدم.

سكون الليل.. هيئته المُنصتة وهدوء الذئب الذي بدا كأنه لا يُفكر في التهامها في تلك اللحظة، شجعوها على أن تستفيض في حديثها:

- لهذا البرج حكاية أليمة يا سي الأفندي، كانت قريتنا مشهورة بكثرة حمامها، وفي نهار صيفي خرجت مجموعة من الضباط الإنجليز لصيد الحمام، يضربون الخراطيش بجوار الأشجار على جانبي الطريق الزراعي، ولكنهم دخلوا القرية ووصلوا للحمام عند أجران الغلال، وتسابقوا لصيد الحمام من الجُرن الخاص بالشيخ مؤذن البلد.

ثم مصمصَتْ شفتيها تقول:

- اتخانقوا الفيران على خميرة الجيران».

(١) حاتم الطائي شاعر عربي جاهلي، قِيل أن أحدًا لم يغلبه في الكَرَم.

واستطردت:

- قُصره، جاء الشيخ يجري ويُحذر الخواجة من ضرب النار كي لا يحترق التبن في جُرنه، لم يفهم الخواجة ما يقول وضرب النار على جن الحمام، فأصاب زوجة الشيخ بخرطوشة، هبَّت النار في التبن، فهجم الشيخ على الضابط ليأخذ بندقيته وهو يصرخ: «الخواجة قتل المرأة وحرق الجُرن».

وعندما جاء الخفراء للنجدة، توهَّم الضباط الإنجليز أنهم جاءوا في شر، فضربوا عليهم خراطيش وقتلوا شيخ الخفر وبعض رجاله، فقبض الخفراء عليهم وحجزوهم في جُرن الحمام المحترق، إلا اثنين من الخواجات، هربا من الخفر، جريا لمسافة طويلة تحت الشمس في عِز القَيَّالة، حتى مات أحدهما. وصل الخواجة الناجي إلى معسكر الإنجليز، فانطلقوا بشراسة يقبضون على أهالي القرية المتجمعين حول جثة الخواجة، وعندما حاول أحد الأهالي الهرب من قبضتهم أمسك الإنجليز به وقتلوه، ضربوه بأسلحتهم حتى أصبحتْ أكبر قطعة من رأسه في حجم القرش تعريفة! وعندها...

قاطعها، وأخذ يسرد بقية الحكاية بنفسه:

- وعندها أخذ الإنجليز يبحثون عن «العدالة» لموت واحد منهم باحتقان في المخ نتيجة ضربة شمس متجاهلين الفلاح الذي قتلوه أشر قتلة، والإصابات التى نتجتْ عن رصاصاتهم الطائشة والمتعمدة، فقبضوا على عشرات الفلاحين واتهموهم بالقتل العمد في مُحاكمة هزلية شهدها الشعب! ولتكتمل فصول المسرحية اختاروا واحدًا من أعظم المحامين المصريين وأكثرهم حنكة

وبراعة، لا لكي يدافع عن الفلاحين بل ليثبت التهمة عليهم!

وفي عُرف المحامي المحترم، كان هذا من صميم عمله، في قناعته الشخصية أنه نصير العدالة وحامي حماها، وقف المحامي العبقري يقنع المحكمة كيف أن هؤلاء الفلاحين الأوباش يستحقون الإعدام؛ لأنهم تسببوا في قتل الضابط الإنجليزي بدفعه إلى الفرار تحت أشعة الشمس الحارقة!

حادثة «دنشواي» البشعة ما هي إلا مسرحية هزلية نعيشها كل يوم وكل ساعة حتى باتت العدالة كلمة مائعة لا يُعرف حدها، ولا السبيل إليها. نتظاهر بأننا نبحث عن العدالة لكننا لا نفعل، نحن نبحث فقط عما يُحقق رغباتنا ويُشبع شهواتنا، لو أردنا حقًا تطبيق العدالة لالتزمنا بالعدالة الإلهية المُطلقة التي لا يحق لأي إنسان أو تشريع التدخل فيها، التدخل في العدالة السماوية يُفسدها ويحيد بها عن غايتها، عدل الأرض نسبي، بينما عدل السماء مُطلَق!

عاودها شعورها في خطب الجمعة، عندما كانت تنصتُ إلى الإمام وهي جالسة مع أبيها، مستندة برأسها إلى الجدار الخلفي لمسجد القرية، القشعريرة ذاتها التي كانت تسري في عروقها فتلْهب حماسها، تجد في نفسها قوة ساحقة، وكأنها يد الله التي ستُطبِّق على الأرض عدله وحكمته. ثم تتسرَّب الحماسة من مسامها شيئًا فشيئًا، عندما تسير في السوق وترى الظلم فلا تقوى على دفعه، تعرف العدل ولا تقوى على فرضه، تتذكَّر وضاعة نسبها، وفقر علمها، وهزال مُلكها، فتعود دماؤها إلى حالتها الساكنة، ويمر بخاطرها مقولة الخالة «بهانة»: «ادُّولُه الجرَّة طمع في الخَروف»!

- الكذب.. الخداع.. الخيانة.. نصرة الظلم.. وسحق الضعيف، كلها طرق يسير فيها البعض في سبيل تحقيق العدالة، لكن العدالة منهم براء.

سكبتْ كلماته على جرحها المتقيِّح ملحًا، كذبتْ.. وخدعتْ.. وخانتْ، ماذا كان بإمكانها أن تفعل غير ذلك؟ أتستسلم ببساطة لمصير أسود؟ ضاق صدرها، وتسارعتْ ضربات قلبها. لمَس الحالة التي أوصلتها إليها كلماته، فاستشعر الندم، وأعاد بالحديث مرة أخرى إلى ما تحبه:

- لم أفهم حتى الآن.. لماذا لا تأكلين الحمام؟

- سمعتُ عن تلك الحادثة للمرة الأولى حين بدأتُ العمل في بيت العمدة، وما آلمني وقتها هو قتل الخواجات للحمام، كنت صغيرة جدًا لأفهم معنى أن يموت إنسان، أحببتُ الحمام الذي تربيه الست «حلاوة» زوجة العمدة، كنت أظن أن الحمام لا يؤكَل ولا يُقتَل، أتحدث إليه كحديث الفتاة إلى صديقتها، أحببتُ لونه.. وصوت هديله، كم تساءَلتُ: «ل هديل الحمام غناء أم بكاء؟».

وعندما رأيتُ الست «حلاوة» تحاول ذبح إحدى الحمامات هجمتُ عليها وعضضتُ كفيها حتى أدميتهما، يومها ضربني العمدة بنبوته حتى كسر لي سنًا وسالت دمائي على الأرض، لكنني كنت سعيدة رغم ذلك، فالست حلاوة عجزَت عن ذبح الحمامة يومها بسبب يديها المصابتين، فأنقذتُ كل حمامات الجُرن وسمحتُ لها بالطيران، منذ ذلك اليوم لا أستطيع أن آكل الحمام.

لم تدرك أنها انجرفتْ في حديثها كثيرًا إلا حينما نام الذئب، ومرَّتْ سحب داكنة في عيني صاحب الذئب، لم تفهم نظراته، هل يشفق عليها أم يهزأ بها؟ كلا الشعورين بغيضين، لا ترغب بأي منهما

انتفضتْ:

- كم الساعة الآن؟

نظر إلى ساعة جلدية قديمة تطوّق معصمه:

- الواحدة صباحًا.

- «يوه» مر الوقت دون أن أشعر.

نهضتْ لتعود إلى غرفتها، راجية ألا يلاحظها أحد، سألته قبل أن تغادر:

- لماذا أشعر أنكَ تُخفي أكثر مما تُظهر؟

أردفتْ بيأس، بينما أشباح النوم تُنازِع وعيها وتجره إلى آخر حدود اليقظة:

- لماذا لا تخبرني بكل ما تعرفه؟

قال بجدية:

- لأن المعرفة لها ثمن، وأنتِ لا تستطيعين دفعه.

- ما أدراكَ؟ أنتَ لا تعرفني.

- أعرفكِ.

- كيف؟

- من كذباتكِ!

عند عودتها إلى القصر فوجئتْ بـ «درية» هانم و«فؤاد» يتسامران في الصالون، ويمضيان الوقت بلُعب الورق على المال! استنكرتْ بشدة وهي تضرب بكفها فوق صدرها:

- «يا ندامة»، حرام عليكم.

ضحكتْ «درية» هانم، وكذلك فعل «فؤاد» الذي برر قائلًا:

- هذا لعب بين صديقين يا «حُرة»، ليس منه ضرر.

- ولكنه قُمار!

سرَى صوتها في الهواء بلا تأثير يُذكَر، يرون اعتراضها مُبالغة لا أكثر، أو ربما تَشدد! قطعا اللعب عندما أدار «حسين» الجرامافون، فانسابت منه مقطوعة قديمة، لم ترق لذوق «درية» هانم الغربي، فقامتْ ووضعتْ إسطوانة أخرى، ثم سحبتْ «فؤاد» بغير تردد، تشاركا الرقص على أنغام الكاليبسو والسامبا، وعندما تعبا أدار «محفوظ» أسطوانة من الأغاني الشبابية؛ عقَّب «شحاتة» ممتعضًا وهو يضرب كفًا بكف:

- صدق «سيد مكاوي» حين سمَّى الأغاني الشبابية لمطربين اليوم بأغاني «الكلينيكس».. يسمع لها المرء مرة فيملَّها وينساها!

فكَّرتْ «حورية» بانزعاج أن الصالون ينقصه زجاجات من البيرة ليتحول إلى كباريه، شعرتْ بغربة شديدة في تلك الأجواء، وهي بنت الريف التي سمعتْ بالكاد عن مُتع أهل البندر دون أن تراها. ضاقتْ بالليلة بأسرها، وكل ما جرى فيها، توجَّهتْ من فورها إلى غرفتها، وأسلَمتْ نفسها لنوم عميق، لم يُخرجها منه إلا صرخات أنثوية أفزعتها!

انتفضتْ من فراشها، خرجتْ من غرفتها تتخبط في «حسين» و«فؤاد» اللذان غادرا غرفهما في اللحظة ذاتها، اندفع ثلاثتهم إلى غرفة «درية»

هانم، اقتحموا بابها، وأضاؤوا نورها. فوجئ ثلاثتهم بها في منتصف الفراش، شعثاء الشعر، دون باروكتها الصفراء، جسدها مُتحرر من «الكورسيه» الذي يشده باستمرار، تنحسر ثياب نومها عن كتفها دون أن تُبالي بها، اندفعتْ «حورية» لتُعدل من ملابسها، بينما «فؤاد» يسألها بجزع عما أصابها.

قالت متقطعة الأنفاس وهي تمسك رقبتها:

- شخص ما حاول خنقي.

أشارتْ إلى وسادة فوق الأرض، ثم أردفتْ بخوف وكأنها ترى حيَّة تسعى:

- بهذه.

انضم «شحاتة» و«محفوظ» إلى الجمع، ضرب الأول كفًا بكف وهو يهتف:

- يا ولي الصابرين يا رب! كنتِ تحلمين يا هانم.

صاحتْ بغضب:

- لم أكن أحلم، كان شخص ما في غرفتي يحاول خنقي بالوسادة.

عقَّب «شحاتة»:

- «عجايب» عليكِ يا ست! جئنا إلى هنا بمجرد أن سمعنا صرخاتك، ولم يكن أحد في الممر، كيف هرب هذا المخلوق الذي حاول خنقكِ إذن؟! هل لبسَ طاقية «الإخفَا» أم نبتَ له جناحان من الريش وطار من النافذة؟

أثار انتباه «حورية» النافذة المفتوحة على مصراعيها، دنتْ منها، نظرتْ إلى الأسفل، فانخلع قلبها! هناك في الحديقة كان صاحب الذئب يقف ناظرًا إلى الشرفة، لاهث الأنفاس، عيناه تلمعان غضبًا، نعم إنه الغضب.. أو.. الانتقام! تشابهتْ نظراته مع نظرات الذئب الرمادي الواقف بجواره، زوجان من العيون يخفيان أكثر مما يُبديان!

هل حاول قتل «درية» هانم؟!

عاد «حسين» إلى غرفته يلعن هيستيريا النسوان التي تجعلهن يتخيَّلن أشياء طائرة، وزاحفة، وأيادي تخنقهن بالوسادة في الظلام! أغلقَ الباب جيدًا بالمزلاج، أزاح الكرسي حتى خزانة الملابس، ثم وقف فوقه وأخذ ما دسَّه فوقها سرًّا. افترش الأرض ورصَّ الزجاجات العشر أمامه، أنابيب زجاجية صغيرة ممتلئة بسائل أحمر لزج! مُلصق على كل واحدة منها تاريخ مختلف، يعود أقدمها إلى أكثر من أربعين عامًا!

منذ أن وجدها في المخبأ المسحور بباب غرفة الباشا وحتى هذه اللحظة لم يتوقف عقله عن التفكير في ماهية تلك الأنابيب، هل كان يُعتِّق الباشا خمرًا؟ وهل يُعتَّق الخمر في أنابيب زجاجية صغيرة، وتُدَسُّ في مخبأ مسحور؟! فتح إحداها فتصاعدت منها رائحة كحول نفَّاذة، مما عززَّ فكرته عن الخمر المُعتَّق، لكن لماذا؟ ما هذا الجنون؟!

لفَّ الزجاجات العشر في قميص له، ثم أعادها بعناية فوق خزانة الملابس، يجب أن يتوصل إلى سر تلك الزجاجات، لعلها الطريق الأقرب إلى المفتاح.

هجم النوم على جفنيه فاستسلم له، لا يدري كم مرَّ عليه من الوقت نائمًا، استيقظ بغتة عندما شعر بوسادة فوق وجهه يضغط شخص ما عليها، عجز عن دفع الوسادة، أو استجداء الشخص الذي يرغب في قتله، عجز حتى عن الصراخ. تصاعد نشيج بكائه، انسابتْ عبرات القهر من عينيه تُبلل الوسادة، ظنَّ أنها النهاية. وبغتة سمع مواء قطه، وشعر بأنه قفز فوق مهاجمه وخمشه بأظافره، إذ سمع آهة توجع تبيَّن من خلالها أنها تصدر عن رجل. قلَّ الضغطُ على الوسادة فتمكنَّ من دفعها بعزم قوته، وبكل رغبة له في البقاء على قيد الحياة دفع عنه مُهاجمه، لم يتمكن من رؤية وجهه بسبب الظلام الدامس، ثم أطلق صرخة مُدوية شقَّتْ سكون الليل.

لم تمر دقيقة حتى انفتح الباب، وأُضيء النور، «حسين» الذي ما يزال يحاول التقاط أنفاسه بصعوبة رأى «فؤاد» يندفع صوبه، وكان أول الواصلين، هتف به:

- ماذا حدث يا «حسين»؟

ثم رأى «درية» هانم تدنو من فراشه، ترمقه بنظرات فزعة، بكى كطفل صغير تركته أمه وحده في الظلام:

- شخص ما حاول خنقي بالوسادة.

صاحتْ «درية» هانم بعصبية:

- هل صدَّقتموني الآن؟

لحظات أخرى ورأى «محفوظ» و«حورية» قد انضموا إلى الجمع، علا وجوههم الخوف والفزع، طفق «حسين» يقول بأنفاس مُتقطعة:

كان سيقتلني، لولا أنني تمكنتُ من دفعه في اللحظة الأخيرة.

رأى «شحاتة» يُقبل على فراشه مُتقطِّع الأنفاس، يلعن السلالم ومن اخترعها. دَنَتْ «حورية» من النافذة المفتوحة على مصراعيها، رأته هناك، برفقة ذئبه، واقفًا في منتصف الحديقة، ينظر إلى نافذة غرفة «حسين»، والغضب يُشعِل في عينيه نارًا تكاد تحرق كل شيء!

قررتْ الفتاتان أن تناما معًا في غرفة واحدة، وكذلك فعل «حسين» و«فؤاد»، أما «محفوظ» فرفض أن يُشاركه أحد غرفته، فاضطر «شحاتة» إلى التوجه إلى غرفته للنوم فيها وحده. ما إن وصل إلى أعتاب غرفته حتى استقبلته الرائحة الكريهة بذراعين مفتوحين، طفق يسُب القصر وساكنيه، والوصية وصاحبها. لم يكن معتادًا على الاستيقاظ في منتصف نومته، واستيقاظه مرتين في ليلة واحدة دفعَ بالنوم إلى الطيران بعيدًا عن أعشاشه المعتادة، ظلَّ يتقلَّب في فراشه لنصف ساعة، ثم...

سمع صوتًا قادمًا من خزانة الملابس، هبَّ واقفًا، فتحها وتفحَّصها بدقة بالغة، لم يعثر على شيء. ظنَّ أن عقله خدعه عقابًا له على حرمانه من النوم، لكن الصوت تسرَّب بين مسامات السكون مرة أخرى، هذه المرة أدرك أنه قادم من الجدار نفسه! بعزم قوته أزاح خزانة الملابس، وكان صغيرًا لا يحتاج إلى جهد كبير، الجدار سليم، لا شيء غير طبيعي، لكن عندما ألصقَ أذنه به وأصاخ السمع، فطن إلى حركات غير طبيعية تصدر عنه، حركات اتجاهها إلى الأعلى. كاد ذلك أن يصيب عقلة بلوثة، خاصة إذا ما أضاف إلى ذلك اختفاء البرنس من غرفته، ثم عودته إليها دون أن يغادرها.

هتف بفرحة من حل مسألة فيزيائية مُستعصية:

- وجدتُها، بغرفة البرنس ممر سرّي يصل بين غرفته والغرفة الواقعة أسفلها في الطابق الثاني، أصبحتُ مُتأكدًا من ذلك الآن.

لم ينتظر حتى يحل الصباح، خرج من غرفته فورًا، ضحَّى بجهده وطاقته في سبيل المعرفة، صعد إلى الطابق الثالث، رسم الاتجاهات في عقله، وحصر الغرف وأماكنها، ففطن إلى شيء بالغ الأهمية، أعاده على نفسه أمام المرآة في غرفته:

- هكذا إذن، غرفة البرنس في الطابق الثالث بها ممر سري يصل بينها وغرفة بالطابق الثاني تقع أسفلها مباشرة، تلك الغرفة فارغة لا يسكنها أحد، أساسًا «أنيس» هو من اختار لنا غرفنا، بالتأكيد لم يُعط أحدنا تلك الغرفة كي ينتقل إليها البرنس وقتما شاء.

ثم سأل انعكاسه في المرآة بجدية، وكأنه ينتظر منه الإجابة:

- لكن لماذا كل هذه اللفَّة الطويلة، لماذا يحتاج إلى ممر سري؟!

قُرب الفجر كانت طاقته الحركية والذهنية قد نفدت بالكامل، فأرجأ السعي وراء هذا اللغز إلى الصباح. نام قرير العين سعيد بما توصل له من معلومات لم يصل إليها غيره، بالتأكيد سيُقربه هذا خطوة من العثور على المفتاح.

(((اليوم الخامس)))

الفتاتان أيضًا كانت لهما حصة كبيرة من الأرق، إحداهما خوفًا من أن تتعرض لمحاولة قتل مرة أخرى، والأخرى ندمًا على اشتراكها في هذا الحفل التنكري من البداية. كل مرة تتحدث فيها إلى الرجل الذي يُروِّض الذئاب، ينغرز خنجر الندم في ضميرها أكثر، كلماته مثل سكاكين تُقطِّع من عزمها على مواصلة تلك الخديعة، حتى محاولاتها في العثور على المفتاح قد باءتْ جميعها بالفشل، الله لا يبارك في عملها الفاسِد المُفسِد.

بعد الفطور انتظرتها مُفاجأة صادمة في غرفتها، كل ملابسها أخرجها أحدهم من الدولاب ومزقها إربًا، بعضها مُلقى على السرير وبعضها أرضًا. رأتْ أحد الفساتين مُعلقًا على النافذة وقد بات أشلاء.

فتَّشَتْ بجزع على أهم قطعة من ملابسها.. فُستانها الأزرق، لم تجده في الغرفة، دنتْ من النافذة تتطلع بلوعة إلى الأسفل، رأته هناك، مع الأوراق والكتب التي أخذتها من غرفة الباشا، جميعها مُلقاة على أرض الحديقة.

نزلتْ الدرج مُسرعة ومنه إلى الخارج، على الأرض العشبية ترقد أشلاؤه المتصلة ببعضها في استسلام، أمسكته وكأنه كائن حي يحتضر، تحسستْ ما به من جروح غير قابلة للشفاء. انفجرتْ باكية وهي تضمه إلى صدرها ضمَّة مُوِّدع، لم يكن مجرد فستانًا أُهدِيَ إليها.. بل حُلمًا..

حُلمًا جميلًا أزرق اللون.. عهدًا قطعته على نفسها أن تكون سعيدة.. وعدًا بلحظة جميلة تنتظرها في المستقبل.. وتعيش من أجلها.

خرج الجميع، التفوا حولها غير مدركين سبب بُكائها الهيستيري، وما إن أدركوا أنها تبكي فستانها حتى اتسعتْ العيون دهشة، وتمتمتْ الشفاه غيظًا: أكل هذا من أجل فُستان؟!

قالتْ كلامًا كثيرًا لم يفهمه أحد، عن بحر أزرق.. ووعد قطعته لسيدة يونانية اسمها «أرامينتا».. وقبر كانت ستصنعه لنفسها في قاع البحر، كل الصعاب التي مرَّتْ بها منذ أن فارقت قريتها.. وكل المشاعر التي اجتاحتها وحبستها في زنزانة صدرها حتى الآن وصلتْ إلى درجة الغليان، لم يعد صدرها يحتمل المزيد من المشاعر المتأجِجَة، ففاضتْ وانسكب الألم الحارق الذي بدا في أعين الجميع غير مُبرَر.

لم يكن تمزُّق الفستان الأزرق سبب انهيارها، بل القشة التي قصمت ظهرها، وأفقدتها كل قدرة تملكها على التحمل والاستمرار، الفستان الأزرق كان الدعامة التي ترتكز عليها، الآن أصبحتْ ورقة خريفية في مهب الريح دون دعامات.

في تلك اللحظة قررتْ مغادرة القصر، آن للحفلة التنكرية الملعونة أن تنتهي!

لن تُصبح ألعوبة في يد الظروف مرة أخرى، عليها أن تستكمل طريقها الأساسي، وتترك تلك التفريعات التي أضاعتْ وقتها، وحادَتْ بها عن هدفها، عليها أن تبحث عن «مخيمر» وتستجديه لمساعدتها، ليس من أجل العمل فحسب، أيضًا من أجل إنقاذها من حبل المشنقة، هو «بك»

قد الدنيا، بصلاته ومعارفه يستطيع إخراجها من القضية مثل الشعرة من العجين. عليها أن تُغادر في وضح النهار؛ كي تتمكن من الخروج إلى الطريق بأمان، فالليل وإن كان ستّارًا، إلا إنه يخفي في جعبته الخوف والشر. أخبرتْ الجميع أنها سترتاح في غرفتها، ونبَّهتْ عليهم ألا يزعجها أحد. قالت لها «درية» هانم:

- لا تقلقي «مون شيري»، لن أسمح لأحد بإزعاجكِ.

لم تعد تملك أغراضًا لجمعها، ولا حتى تلك التي أتتْ بها إلى القصر، لا تملك سوى خُفَّها البالي، والفستان الذي ترتديه في تلك اللحظة.. أسود.. بلون الحداد.

من طرف خفي وقفتْ بجانب النافذة تُراقب ساكِن الكوخ، تتخير اللحظة المناسبة للخروج من القصر دون أن ينتبه لها. لم تكن في حالة تؤهلها لمواجهة الجميع بالحقيقة، أن تقف أمامهم وتقول: «لقد خدعتكم، أنا لستُ ابنة خالتكم، لستُ حفيدة الباشا صاحب القصر».

تبًا له، يُراقب الحديقة بعين صقر لا يكلّ ولا يملّ، لم تواتِها لحظة مناسبة إلا حينما توجَّه إلى الباب الخلفي للمطبخ واختفى بداخله، عندئذ نزلتْ الدرج بحذر شديد، وخطتْ خطوات كبيرة في الحديقة وهي تنظر في كل اتجاه. أخيرًا وصلتْ إلى البوابة، لم تكن مغلقة بمفتاح، فقط مزلاج صغير، فتحته، ثم ولَّتْ هاربة فرار العُصاة من أبواب الجحيم.

- شرَّف أخيرًا، والله بدري!

هكذا هتفتْ «درية» هانم مُتهكمة عندما أخبرها «أنيس» أن حكيم الباشا قد عاد من سفرته، أذِنتْ له بدخول غرفتها، وتركت له كتفها

الذي عليها أن تعترف أنه تحسن كثيرًا منذ أن قامت الفتاة الريفية بعلاجه، حتى الآثار الزرقاء الداكنة طفقتْ تختفي ساعة بعد ساعة.

لم يفعل الحكيم شيئًا كثيرًا، فحصها بعناية، ثم وصف لها دواءً متمنيًا لها الشفاء:

- أرجو أن ترتاحي ولا ترفعي بهذه الذراع شيئًا ثقيلًا، وعندما تتمكنين من زيارتي في المستشفى سأقوم بعمل فحوصات كاملة مع علاج طبيعي وسيعود كتفك قويًا مثل الحصان، اطمئني لا شيء يدعو للقلق.

في الحقيقة كان مرضها هو آخر ما يشغلها في تلك اللحظة. صَرَفَتْ «أنيس» بأن طلبتْ منه إحضار كوب من الماء، فعَلَ على مَضض، بدا وأنه لا يُريد تركها وحدها مع الحكيم. سألته بلهفة ما إن غادَر «أنيس» الغرفة:

- كيف مات الباشا؟ هل كان مريضًا؟

استغرق الحكيم في التفكر للحظات، ثم قال:

- عندما مات الباشا كنتُ في مؤتمر في «جينيف»، أي أنني لم أره لحظة وفاته.

- وقبل سفركَ.. هل كان يشكو من شيء؟ هل قال لكَ شيئًا عن مفتاح القصر؟

كانت دهشته حقيقية إذ قال:

- مفتاح القصر! لم أفهم قصدكِ يا هانم، لكن على كل حال لم يكن الباشا مريضًا.

ثم استدركَ:

- أقصد بالمعنى المفهوم للكلمة.

جاء دورها لتصيبها الدهشة:

- ماذا تقصد؟ وهل كان مريضًا بمعنى آخر غير مفهوم؟

أرجوك أخبرني الحقيقة، هذا مهم جدًا بالنسبة لي.

ثم كسَتْ وجهها بمساحيق الحزن:

- هو جدي الذي لم أره طيلة حياتي، أريد على الأقل أن أفهم ما حلَّ به لحظة وفاته، فيمَ كان يفكر وماذا كان يفعل.

ربَّتَ الحكيم كتفها السليم، قال:

- أفهم جيدًا يا ابنتي، لا أراكِ الله مكروهًا في عزيز، الباشا كما عرفته كان رجلًا منطويًا، منغلق التفكير، تثير اهتماماته أشياءً لا تثير اهتمام الناس عادة.

ثم أردف بعد لحظة تردد:

- رغم أنني حكيمهُ الخاص لسنوات طويلة إلا أنني لم أستطع أن أفهم هذا الرجل، كل ما أعرفه أنه كان رجلًا وحيدًا وحزينًا للغاية.

سابقتْ لهفتها لتقول:

- هل أخبركَ عن وصيته؟

- وصية؟! كلا لم يخبرني عن أي وصية، لكن...

قطع التردد حديثه فحثته برجاء أن يُكمله، فاستطرد:

- اشتدتْ عُزلته خلال السنوات الأخيرة، تقدُّمه في السن أفقده الكثير من سلامة التفكير، لم يعد ذاك الرجل المهيب الصموت الذي

تجتاحني الرهبة وأنا في حضرته كلما آتيتُ لفحصه مرة شهريًا، فُكَّتْ عقدة لسانه وصار يتبادل الحديث معي، لكن حديث غريب غير منطقي، هو أقرب إلى الهذيان.

- عن ماذا؟

- عن ذكرياته.. شبابه.. أحلامه.. لكن أشياء كثيرة لم أكن أفهمها.

- مثل ماذا؟

- حديثه عن الخلود، وعن القارورة المقدسة التي يعمل على إعدادها منذ سنوات طويلة، وحديثه عن...

تردد ثانية، فحثته على الحديث برجاء كالأنين، فأردف قاذفًا بالكلمة من فمه:

- عن الجن.

- الجن؟!

تمتم في استسلام:

- نعم يا ابنتي.. عن الجن، الباشا كان مريضًا بحُب السيطرة، يظن أن بإمكانه السيطرة على الكون بأسره، هو المتحكم والمتصرف في كل شيء ولا يحق لأحد محاسبته أو مراجعته، بإمكانه أن يستحوذ على المال والجاه والعقارات والأراضي والناس.. والجن!

ثم أردف بخجل:

- بصراحة كان يطلب مني أشياء غريبة، مثل ترجمة بعض ما عصى عليه استيعابه في كتب استحضار الجن وكيفية تسخيرهم،

حتى أنه كان ينفق ثروة على شراء تلك الكتب من داخل مصر وخارجها.

ثم أردف:

- وفي السنوات الأخيرة كان يشعر بالخوف من شيء ما، وهذا ما سبَّب له أرقًا مُزمنًا، حاولتُ وضعه في مصحة إلا أن البرنس رفضَ رفضًا قاطعًا من أجل مظهر العائلة أمام الناس، الباشا في السنوات الأخيرة لم يستطع النوم بشكل طبيعي، أحيانًا يبكي مثل الأطفال ويهذي كثيرًا بـ: «إنهم قادمون.. أسمع صرخاتهم ليلًا.. سيقتلونني شرَّ قتلة.. لا تتركني وحدي يا حكيم!».

أصاب حديثه «درية» هانم» في مَقتل، الأمر معقد أكثر مما تصوَّرَتْ. كانت تظن أن الحكيم سيخبرها عما يُساعدها في العثور على المفتاح، إلا أنه بحديثه هذا أضاف إلى لغز المفتاح لغزًا جديدًا.. بل ألغازًا! وقبل أن يدخل «أنيس» إلى الغرفة بلحظات قال لها الحكيم:

- على كل حال لم يكن الباشا في حالة عقلية سليمة، وإن وُجِدَتْ وصية وأردتم الطعن بها فأنا على استعداد كي أشهد أمام القاضي أن الباشا لم يكن في كامل قواه العقلية ليُحرر وصيته.

ها هو يمنحها شيئًا مدهشًا، كانت تثق أنها ستخرج من حديثها معه بفائدة ما، إذن ستحاول العثور على المفتاح، إن وجدته ستفوز بالقصر وحدها، وإن لم تجده ستطعن في الوصية، ستتقاسَم القصر مع أبناء خالاتها، وتأخذ حصتها الشرعية، يا لها من خطة مدهشة!

كان «حسين» ينتظر حكيم الباشا خارج غرفة «درية» هانم، يزرع الممر مجيئًا وذهابًا بتوتر. ما إن خرج الحكيم حتى ظنَّ أن ما به من قلق بدافع خوفه على «درية» هانم، فقال:

- لا تقلق، هي بخير.

عاجله «حسين» وهو يتلفَّت يُمنة ويُسرة:

- حضرة الحكيم، أريد الحديث معكَ.

بكل ترحاب قال الحكيم:

- طبعًا، تحت أمرك، ممَّ تشكو؟

أشار له «حسين» إلى غرفته، وساقه إليها قائلًا:

- من الأفضل أن نفعل ذلك في غرفتي.

فوجئ الحكيم بـ «حسين» الذي أغلق الباب جيدًا بالمزلاج، ينشر أمامه قميصًا به أنابيب صغيرة بها سائل أحمر ويسأله:

- ما هذا يا جَناب الحكيم؟ دماء أم شيء آخر؟

أمسك الحكيم بإحدى الزجاجات، أدارها في يده، نزع سُدادتها، اشتمَّها. ثم قال:

- ليست دماء.

فاح الفضول من كلمات «حسين» وهو يسأله:

- ماذا تكون إذن؟

- أين وجدتها؟

- في.. في غرفة الباشا.. جدِّي.

شددَّ على كلمة «جدي» كي يؤكد أن تنقيبه في أغراض الباشا حق له.

قال الحكيم:

- لا أعرف كل محتويات القنينة، كان الباشا يقوم بخلط بعض المواد ببعضها ويُسميها بالقارورة المقدسة.

كرر «حسين» يستطعم الكلمة:

- القارورة المقدسة! وما تلك التواريخ المكتوبة على كل زجاجة؟

- إنها تاريخ إعداد كل خليط.

ثم صرَّح بيأس:

- بصراحة لا أعرف الغرض منها، كان الباشا يطلب مني إحضار بعض المواد وكنتُ أجلبها له، لكن لم أفهم أبدًا ما غرضه من مزج تلك المواد ببعضها.

صاح «حسين» بدهشة:

- ولم تسأله قط؟

أجاب الحكيم بإباء وهو يتناول حقيبته ويستعد للانصراف:

- لا أسأل عن شيء لا يخصني، لستُ فضوليًا مثل باقي الناس، ولهذا السبب تحديدًا ظللتُ لسنوات طوال الحكيم الخاص بـ «كاظم باشا البارودي»، بعد إذنكَ عندي موعد لا أودُّ أن أتأخر عليه.

دنا من الباب ليفتحه، ثم التفتَ ليقول:

- بالمناسبة.. احذر من التعامل مع تلك الزجاجات، بها مواد سامة.

- مواد سامة!

- جرعات عالية من «الزئبق».

ظلت الكلمة تتردد ﮾ عقل «حسين» وإن كان لا يعرف معناها، لكنها كلمة ساحرة وجاذبة بشكل ما.

«الزئبق»!

كل ما يعرفه عن تلك المادة أنها تأكل الذهب وتفنيه، لماذا أعدَّ الباشا سائلًا يحتوي على كمية كبيرة منها؟ هل أراد أن يُسمِّم أحدًا أم يُذيب ذهبًا؟!

مثل فُتات زُجاج تكسر الضوء، سحقَ اليأس ذرَّات أحلامها، لم تعد ترغب ﮾ شيء غير النجاة. وحش القاهرة امتصَّ دماءها منذ أن وطأتها بأقدامها، مزَّق أحلامها، وهدَم آمالها واحدة تلو الأخرى، حتى أضحَتْ أكبر رغباتها فيها البقاء على قيد الحياة!

دارتْ حول القصر فأصبحتْ داخل عزبة «العبيط»، أرادتْ أن تلتمس من أحد الفلاحين مُساعدة توصِّلها إلى عنوان «مخيمر». تمزَّقتْ الورقة التي دوَّن فوقها عنوانه مع ما تمزق من أغراضها، لكنها حفظتْ عن ظهر قلب عنوان نجاتها. لجأتْ إلى أول رجل صادفته ﮾ عزبة «العبيط»، فلاح بسيط، يربط رأسه بمنديل قماشي إلى الخلف، مُطأطئ الرأس، يسحب جاموسته خلفه. أوقفته تقول:

- يا عَم.. يا عَم، أريد منكَ معروفًا صغيرًا؟

أكمل الرجل سيره كأنه لم يسمعها، ألحَّتْ «حورية»:

- أرجوكَ ساعدني، أريد أن أصل إلى عنوان في القاهرة، وعندما أصل سأعطي السائق أجرته.

ما يزال الرجل ماشيًا، دون أن تند عنه أو عن جاموسته التفاتة واحدة، فاق عنادها كل الحدود:

- تعبتُ من البرد، سرتُ لمسافة كبيرة، خرجتُ من القصر ودرتُ حوله حتى أتيتُ إلى هنا مشيًا.. أرجوك ساعدني.

بغتة انتفض الرجل، لو صعقته كهرباء لما انتفض جسده بتلك الطريقة، انطلق يعدو ساحبًا جاموسته، ولما فشلتْ جاموسته في اللحاق به ترك حبلها على الغارب، وفرَّ وحده! عقدتْ الدهشة لسان «حورية»، تجهل ما أفزع الرجل، ظنته لم يسمعها جيدًا، أو لعله مجنون تلك العزبة، لكن عندما تكرر الأمر مع فلاحة تغسل أوانيها في الترعة، تركتهم بغتة لتفر هاربة، توقفتْ «حورية» بعض الوقت تُراجِع نفسها، ما قالته كلامًا عاديًا ليس به ما يُفَزِع، هل جُنَّ هؤلاء القوم؟!

استرعى انتباهها صوت أشبَه بصيحات حيوان جريح، ثم فطنتْ إلى أنه صوت عويل بشري ممزوج بنهيق حميري! تتبعتْ مصدر الصوت، فإذا بها وسط سوق العزبة، وعلى عكس ما توقَّعته، كانت الناس تفر من مصدر الصوت، لا تُقبِل عليه لنجدة صاحبه الذي يستغيث بهم! هي الوحيدة التي كانت تسير عكس التيار البشري، أبصرَتْ عجوزًا ملقاة فوق كومة من قش الأرز، تنحسر ملابسها عن جسدٍ أنهكته جروح طولية مُتقاطعة، يقف أمامها رجلًا لم تر «حورية» وجهه -إذ كان يوليها ظهره- ينهال فوق المرأة ضربًا بكرباج له روحان، سمعتْ «حورية» طقطقة الكرباج فوق الجسد الهزيل ضِعفًا، جُنَّتْ حين رأت الدماء تنز من جروحها نزًّا.

اندفعتْ تمسك بيد الرجل قبل أن ينهال فوق جسد العجوز بضربة أخرى. تهتف به:

- توقف يا عديم المروءة، ستقتل العجوز.

طفقتْ تصيح في الناس السائرة في الطرقات:

- يا خلق يا ناس.. ساعدوا الخالة العجوز، أنا حفيدة الباشا وآمركَ بترك العجوز.

لا حياة لمن تُنادي، كأنها تُنادي في صُم، بُكم، عُمي، فرُّوا إلى بيوتهم حتى ينتهي صوت العويل، رأت رجلًا يُدلِّل على بضاعته، وامرأة تجلس أمام بيتها تلقم رضيعها حليبها، وآخر يبحث في كومة قش الأرز تحت العجوز عن قرش صاغ سقط منه! وحده حمار هزيل كان يدفع جسد العجوز بخطمه. لطمَ الرجل الذي كان يخفي أحد عينيه بعصبة سوداء وجه «حورية»؛ سقطتْ بجوار العجوز فوق كومة قش الأزرق، فانهال عليها بضربة من كرباجه، وفي الثانية أوقفته يد حازمة، وصوت يأمره:

- اترك الفتاة.

رفعتْ «حورية» رأسها لتجد خالة كبيرة في السن شعرها أبيض طويل، معقود في ضفيرة سميكة فوق ظهرها. توسَّلتْ إليها:

- أنقذينا يا خالة.

لكن الخالة لم تنقذ سوى «حورية»، وتركت العجوز للرجل ذي العين الواحدة، ضربها مرتين ثم سئم ضربها، فبصق فوقها ثم تركها وانصرف، دنا من العجوز المتوجِّعة رجل بدا أنه زوجها أو أحد أقربائها، طرحها على ظهر حماره، ثم ساقه إلى داره دون أن تند عنه لمحة غضب!

بكتْ «حورية» لهول الموقف، وفي الدقائق التالية كانت في دار الخالة ذات الضفيرة البيضاء تشرب ماءها المُحلَّى بالعسل.. دار «براخا» اليهودية.

- علينا أن نفتش غرفة البرنس!

نطقها «شحاتة» بصيغة آمرة، ثم أردف:

- من حقنا دخول كل غرف القصر.

عاد الأمل ليشرق في نفوسهم من جديد، بعد أن كادوا يفقدون آخر خيوطه. أيَّدته «درية» هانم وهي تهبُّ من مكانها:

- صدقتَ يا «شحاتة»، هذا من حقنا كما تنص الوصية، هيا بنا.

اضطربَ «حسين»، وقضم ظافره، كعادته في المواقف الحاسمة:

- ماذا إن رفض؟

أجابه «فؤاد» وهو يرتدي طربوشه ويستعد لمرافقتهم:

- سنجبره على ذلك.

فتساءل ثانية وهو يقضم أظافره:

- هل يجب علينا إيقاظ «حُرة»؟

اعترضتْ «درية» هانم بحزم:

- اتركها تستريح، الفتاة لم تكف عن البكاء لساعات.

صاح بهم «محفوظ»:

- انتظروا، لنخبره أولًا، لنرسل له خبرًا مع «أنيس».

لم يمهل أحدًا نفسه فرصة لسماع اعتراضات «محفوظ»، كانوا بالفعل في طريقهم إلى الطابق الثالث ما إن أنهى جملته، فاضطر مرغمًا إلى مرافقتهم؛ لئلا يثير تخلُّفه عنهم الريبة في نفوسهم. قابلهم البرنس ببرود، لم يعترض حين هجم «شحاتة» على غرفته قائلًا:

- هذه الغرفة يجب تفتيشها، ولا مؤاخذة يا برنس الوصية تحكم.

لم يكن «شحاتة» في هَم العثور على المفتاح، أهمَّه أن يعرف كيف بإمكان البرنس أن يتحرك داخل الجدران؟

لم يكن الدولاب ممرًا للغرفة المجاورة كما رأى في أحد الأفلام، ولم ينفتح الجدار ما إن حرَّك اللوحات يُمنة ويُسرة، حتى البلاط لم يكشف عن سلالم تصل بين غرفته والتي تحتها، كيف إذن؟ كيف؟

سمع «فؤاد» يسأل:

- ما هذا؟

بينما البرنس يُجيب بنفاد صبر:

- مصعد الطعام، لكنه غير مُستخدَم.

اندفع «شحاتة» صوب المصعد الصغير، يكفي لوضع صينية كبيرة فوقه، بارتفاع متر تقريبًا، نقلَ بصره بين المصعد وجسد البرنس قصير القامة، نعم، لمَ لا؟ المصعد يتسع لهذا الجسد النحيل، بالتأكيد يتسع.

- وجدتها!

هتف بها «شحاتة» برعونة، تعلَّقتْ بوجهه العيون المتلهفة ظنًا من أصحابها أنه عثر على المفتاح، فبرر حماسته:

- أوقعتُ مفاتيحي أرضًا فوجدتها.

عادتْ الخيبة إلى العيون، واليأس يدب حثيثًا في النفوس، لا أثر للمفتاح. وحده «شحاتة» ملأه الأمل، عرف كيف يتحرك البرنس داخل الجدران ليلًا، وتأكَّد أيضًا أن اتجاه تحركه للأسفل وليس للغرفة المجاورة كما ظنَّ في البداية، بقى عليه معرفة «لماذا».. لماذا يفعل البرنس ذلك؟ ما السر الذي يخفيه عن الجميع؟

لم تستطع وقف عبراتها، فتحَتْ حادثة الفستان في عينيها مجرى جديدًا للدموع، غير الذي ردمته، وهذا المجرى الجديد غير قابل للردم. قدمَّتْ لها «براخا» كوبًا من الماء المُحلَّى بالعسل كما أخبرتها:

- اشربي هذا يا بنيتي، صار وجهكِ مثل ورقة الخَس الذابلة.

رشفته «حورية» ببطء، وعندما أنهته سألتها:

- ما الذي فعلته هذه العجوز المسكينة؟ ومَن الرجل الذي كان يضربها بالكرباج؟ وكيف لم يساعدها أحد؟

جاورتها «براخا» فوق الأريكة الخشبية:

- دعكِ من هذا الأمر يا ابنتي، لا تشغلي بالكِ.

- أخبريني يا خالة، أكاد أُجن كلما مرَّ على عقلي منظرها وهي مُلقاة فوق الأرض والرجل يضربها دون رحمة، والناس! الناس تستمر في أشغالها، لماذا لم يغضب أحد؟!

تربَّعَتْ «براخا» فوق الأريكة، ثم قالت ببساطة:

- الناس في عزبة «العبيط» لا يغضبون يا ابنتي.

- لا يغضبون! كيف؟

- بمَ يفيد الغضب؟ الغضب من الشيطان، أهل العزبة يعيشون في رضا، يُسلِّمون أمرهم لله، يفعل فيهم بمشيئته ما أراد.

انتفضتْ «حورية» تهتف باستنكار:

- ما هذا الكلام يا خالة! هل أراد الله لهذه العجوز أن تُعذَّب ويتعرَّى جسدها وسط السوق؟!

أفحمتها «براخا» بثقة:

- تقولين إذن إن أمرًا ما قد وقع بغير إرادة الله!

اختل منطق «حورية»، اضطربتْ للحظات. ثم قالت:

- لا شيء يحدث دون إرادته وحكمته.

ابتسمتْ «براخا» بثقة:

- وهذا ما أقوله أيضًا، هذا ما أراده الله، أما الغضب ومحاولة تغيير إرادة الله هو فعل خبيث لا يأتي به الصالحون من أبناء العزبة يا ابنتي.

شعرتْ «حورية» كما لو أن دلوًا من الماء البارد انصبَّ فوق رأسها:

- نحن.. يجب أن ندافع عن الضعيف.. ونضرب على يد الظالم، هذا هو العدل.

عاجلتها «براخا»:

- أراد الرجل الأعور نزع قطعة أرض من أحد الفلاحين هي حق له مقابل ديونه عنده، فعارضتْ العجوز ووقفتْ تُدافع عن أرض زوجها، وقفتْ في وجه الحق والعدل، فنالت جزاءها.

أراد الرجل ذو العصبة السوداء الدفاع عن حقه، والعجوز هي الظالم الذي عارض ذلك، لكن يبقى عدم غضب أهل العزبة للطريقة التي اختارها الرجل لاسترداد حقه غير مبرر، كيف لم تند عن أي منهم حركة واحدة.. نظرة شفقة، كيف غابَتّ عنهم النخوة؟!

تساءَلتْ بحيرة:

- كيف لم يغضب أحد؟

أجابتها «براخا» بحزم:

- الغضب لم يأت على العزبة إلا بالخراب.

- كيف ذلك يا خالة؟

روَتْ «براخا» ظمأها من القُلَّة الموضوعة على حافلة النافذة، ثم استطردت:

- منذ زمن طويل كان هناك رجل يُدعى الشيخ «شلش»، غضب لأن ابنته عصتْ أمره وتزوَّجت من «كاظم» باشا، أبوها الذي كان يرغب في تزويجها من أحد أقاربه مات غيظًا وسط السوق، فتفشَّى الغضب في أهله نارًا تحرق، حرقت فتيات جميلات في عُمر الورد.

كسىَ الوجوم وجه «حورية» وهي تنصت إلى حديثها. أردفتْ:

- مَن هؤلاء الفتيات يا خالة؟

- زوجات الباشا يا بنيتي.

تساءلتْ وهي تتضوَّر حيرة:

- كيف؟ ولماذا؟

أردفتْ «براخا» بصوت مهموم:

- آه يا بُنيتي، لا تُذكِّريني بالماضي الأليم، لا أريد الحديث عن هذا القصر الأسود.

أدركتْ «حورية» سبب هروب الفلاحين، كانوا يفرُّون من ذِكرها للقصر. لمَّا أصرَّتْ على معرفة الحكاية، بدا أن «براخا» استسلمتْ لرغبتها:

- اشتعل الغضب في صدور أهل الشيخ «شلش» بعد موته، خاصة أخيه؛ لأنه أكثر من شعر بالإهانة لرفض ابنة أخيه من الزواج من ابنه وتفضيلها للباشا عليه، وفي ليلة لا يُرى فيها القمر هجم هو وأقرباؤه على القصر وأشعلوا فيه النيران، ماتت الفتاة المسكينة حرقًا يا بُنيتي، ما زلتُ أذكر صوت صراخها وهي تستنجد وسط النيران.

اغتمَّ قلب «حورية»، وثقل صدرها همًا، فيما تستكمل «براخا» حكايتها:

- وكلما تزوَّج الباشا فتاة من العزبة هجم أقرباء الشيخ «شلش» ليلًا وأشعلوا في القصر النيران، سبع فتيات مُتن بالطريقة نفسها، بعد موت الفتاة السابعة امتلأتْ قلوب أهل العزبة غضبًا، لم يكن لديهم دليل يُثبت أن عائلة الشيخ «شلش» هم السبب في تلك الحرائق، فأرادوا القصاص بأنفسهم.

تساءَلَتْ «حورية» بريبة:

- ماذا فعلوا؟

- هجموا على بيوتهم، سحلوهم فوق الأرض حتى مدخل السوق، ثم قتلوهم هناك ضربًا بالنبابيت.

تخيلَّتْ «حورية» المشهد الدموي، فانقبض قلبها فزعًا. رشفتْ «براخا» من القلة ثانية، ثم قالت:

- لم ينج من عائلة الشيخ «شلش» سوى رجل واحد أصبح قعيدًا، تركوه أهل العزبة بعد أن لجأ للبوليس من أجل حمايته، أرأيتِ ماذا يصنع الغضب يا بنيتي؟ الغضب هو لعنة الشيطان لبني الإنسان، من وقع في أسره هلكَ.

حكَّ حديث المرأة ذكرياتها، فلاحتْ لها ذكرى دعوة أقسمتْ ابنة العمدة أن تدعوها عند قبر السيدة: «يمين بالله ما إن أصل لمقام «السيدة زينب» لأنذر لها نذرًا من أجلكِ يا بنت الغجرية، سأطلب منها أن تكون موتتك أبشع موتة لإنسان، سأطلب منها أن تحرقكِ بالنار في يوم نحْس، وسنرى إن كانت قادرة على ذلك أم لا».

رغم ثقتها أن السيدة «زينب» غير قادرة على أذيتها، إلا أنها لم تستطع أن تمنع الرجفة التي اجتاحتْ جوارحها، حمدتْ الله أنها خرجتْ من القصر قبل أن تطالها لعنته، فتموت هي أيضًا بالحرق مثل باقي الفتيات اللاتي احترقن بناره. أرادتْ الانصراف، فاستوقفتها «براخا» تُفضي لها بالسر الأخير:

- أعلم أنكِ إحدى أحفاد الباشا، وأنكِ جئتِ من أجل ميراثكِ، احذري يا ابنتي.. في القصر رجل ملعون من سلالة الشيخ «شلش»، قبل أشهر أراد حرق جدِّكِ حيًّا، لكن جدَّكِ كان رجلًا

قويًا استطاع النجاة من القصر الذي لم يتضرَّر منه إلا غرفتين فحسب، ثم أعاد ترميمهما.

استنطقتها «حورية» بكل ما تملك من رغبة في المعرفة، فوصَفَتْ لها «براخا» الرجل الذي حارَتْ طويلًا في أمره:

- أفندي أسمر، يُروِّض ذئاب الغابة، وممنوع من دخول القصر.

الآن عرِفَتْ «حورية» من أين أتتْ آثار الحروق على ذراعيه!

سارَتْ طويلًا تحت أشعة الشمس المُحتضرة، يحاصرها الجوع والتعب، عمَّا قليل سيحل المساء، ولن ترى وجه الطريق، استراحتْ لنصف ساعة تحت تكعيبة عنب صادفتها على الطريق. كانت تظن أن عالمها الصغير به الكثير من الأشرار، لكن اتضح لها أن للدنيا وجوهًا بشعة لم تعرفها، وأنيابًا حادة لم تَألَفها. انبثق الأمل بداخلها عندما سمعتْ صوت سيارة تقترب، بجنون الملهوف رمتْ نفسها وسط الطريق، تُلوِّح بذراعيها في الهواء، وفي اللحظة التي كادتْ أن تسجد للهِ شكرًا لعثورها على وسيلة نقل، ضاق صدرها، وانطفأتْ روحها.

نزل «عادل» من السيارة ودنَا منها، ثم صاح فيها:

- لماذا غادرتِ القصر؟ وماذا تفعلين في هذا المكان بمفردكِ؟

كان عقلها منشغلًا بما روَته لها الخالة الطيبة عنه وعن عائلته، لا تعرف هل تُصدِّق ما سمعته أم تُكذِّبه، كعادته حصر أكمام القميص عن ذراعيه غير مُبالٍ بالبرد، فتعلَّقتْ نظراتها بآثار الحرق، هل أشعل النيران في الباشا حقًّا؟!

أخرجها من شرودها مُشيرًا بإصبعه إلى السيارة، يقول بلهجة آمرة:

- اركبي.

احتدتْ وهي تشيح بيدها، وتستكمل طريقها إلى المجهول:

- لن أعود إلى هذا القصر.

لم يجد بُدًا من أن يُمسك ذراعها بإحكام، حاولتْ إفلات نفسها دون جدوى، فاحتدتْ بغضب:

- ما شأنكَ بي؟ عُد إلى أسيادكَ من أهل القصر، عُد إلى كوخكَ وذئابكَ، واتركني وشأني.

آلمها وهو يشير بإصبعه إلى السماء:

- ليس لي سيد سواه.

رَنَتْ إليه تحاول البحث في وجهه عن صدق ادعاءات الخالة أو كذبها، لم تر فوق صفحة وجهة غير القوة والحزم، إمَّا أنه خففَّ قبضته، أو أن قوة شمشونية اعترتها بغتة فتمكنتْ من تحرير ذراعها.

كررتْ بحزم:

- لن أعود.

عقد ذراعيه، سألها كي يُعجِّزها:

- وماذا ستفعلين؟ تستكملين السير في الظلام دون معرفة جيدة بالطريق حتى يعثر عليكِ ذئب بشري فنسمع عنكِ في صُحف الغد؟!

- هل هذه هي خطتكِ البديلة عن عودتكِ للقصر؟

لن يقتل أملها الأخير، لن تسمح له:

- سأحصل على مساعدة أحد السائقين ثم أصل إلى وسط البلد.

- ثم؟

- ثم سأعثر على صديق لي هناك، هل ارتحتَ الآن؟

قال بتهكم:

- صديق!

- نعم صديق سيساعدني في الحصول على بيت وعمل، هل لديكَ اعتراض؟

تمتم بشيء لم تسمعه، غلب على ظنها أنه سُباب. ثم هتف:

- هل أنتِ مجنونة؟

تحدَّته عينًا بعين وهي تضع كفَّيها في وسطها:

- كلا، ماذا عنكَ؟

تمتم ثانية، بغيظ أكبر هذه المرة. أخذ نفسًا عميقًا يُغالب به نفسه كي لا يجرّها صوب السيارة:

- اركبي، سأوصلكِ إلى هذا الـ.. الصديق.

- لا أريد.

ندمتْ فور أن نطقتْ بها، فليوصلها إذن ما المشكلة في ذلك؟ بدلًا من أن تضطر إلى السير في الظلام حتى تعثر على سيارة أخرى، ولعل سائقها يكون ذئبًا بشريًا، فيحتل اسمها العناوين الكبيرة لصحف الغد، أو تدهسها شاحنة بفرامل مقطوعة، ومصابيح مُهشَّمة. بسرعة قبل أن يُغيِّر رأيه توجهت صوب السيارة، فتحت بابها وهي تقول بإباء:

- سأركب فقط كي أتخلص من صراخكَ، أصبتني بالصداع.

انطلق بالسياردة دون أن يُحاول تبادل الحديث معها، وكم أراحها ذلك، فبداخلها بركان من الظنون تكفي حممه لحرق كل شيء!

فيلا جميلة هي، حتى وإن غطَّاها الظلام، جعلتها تُدرك كم أن «مخيمر» قد صار غنيًّا، وذا شأنٍ رفيع حقًا، إن كان هذا هو بيته، فكيف هي أراضيه، وشركاته ومصانعه! عليها فقط أن تُذكِّره بالـ «حنون»، وكل شيء سيصير كما تشتهي.

طلب منها مرافقها ألا تُغادر السيارة حتى يسمح لها، استجابتْ لأمره، لا رغبة في إطاعته، بل لأنها خافت من نباح كلب الحراسة الشرس المُسلسَل بجنزير حديدي في بوابة الفيلا. أيقظَ «عادل» حارس الفيلا بهتافه، وقف يتحدث إليه لأكثر من ثلاث دقائق، فاض كيلها، وتغلَّبتْ لهفتها لملاقاة «مخيمر» على خوفها، خرجت من السيارة، تبدَّتْ لها شيئًا فشيئًا ملامح الحارس الذي يتحدث إليه «عادل»، وما إن وقفتْ قِبالتهما تمامًا حتى شهقتْ بلهفة:

- «مخيمر»! أخيرًا عثرتُ عليكَ!

طأطأ برأسه أرضًا، فطنَتْ إلى ما غيَّبه الحماس عن إدراكها في الوهلة الأولى.. ملابسه البالية.. ذقنه النابتة.. شعيراته المُغبَّرة.. أظافر كفِّه المُحنَّاة بالطين.. ملامحه التي كبرت عشرة أعوام منذ آخر لقاء جمعهما. همستْ برجاء.. بتردد.. بإحجام من يخشى ملاقاة الحقيقة العارية:

- «مخيمر».. لماذا ترتدي هذه الملابس؟! أين بذلتكَ التي جئتَ بها إلى قريتنا.. أتذكر؟ يوم أن أعطيتني عنوانكَ، قلتَ لي أن آتي إليكَ متى احتجتُ، «مخيمر».. جئتُك كي تُساعدني، لماذا لا ترفع رأسكَ؟ لماذا لا تنظر في عيني؟!

لطمتها موجة برد، اقشعرَّ جسدها، ورجُف قلبها، لم يرفع «مخيمر» رأسه، ولم يكُف عن التمتمة:

- آسف.. أنا آسف، سامحيني أنا آسف.

نهرته وهي تضحك بجنون:

- ماذا تقصد بآسف؟ «مخيمر» لماذا تعتذر؟ أقول لكَ إنني جئتُكَ أطلب المساعدة، أحتاج إلى عمل في إحدى شركاتكَ أو مصانعكَ.

- آسف.. آسف.

- في مزرعتكَ، أو حتى خادمة في بيتكَ.

- آسف.

صاحتْ به وهي تُمسك بقضبان البوابة الحديدة المغلقة، التي تفصل بينهما وتهزها بعنف:

- «مخيمر».. لماذا تتأسف؟ «مخيمر» أجبني.. لماذا يبدو مظهركَ مثل بوَّاب القصر وليس صاحبه؟!

رفع رأسه المُتطأطئ أخيرًا، إلا إنه ما يزال عاجزًا عن النظر داخل عينيها:

- كنتُ أتباهى بملابس سيدي، كنتُ أحلم أن أصير هو، أردتُ أن أصفع ولو بالكذب كل من رآني «مخيمر» السقَّا حافي القدمين، آسف.. لم أظن أنكِ ستأتين حقًا، لم أظن أنكِ ستبنين أحلامكِ على أوهامي.

انهار عالمها، دُفنتْ تحت أنقاضه، لم تلمه.. لم تصرخ.. لم تبك، فالموتى يكفون عن الأنين.. عن الشعور.. عن الغضب! انتشلها «عادل» من بين الأنقاض، جرَّها حتى السيارة، أجلسها على المقعد وكأنه يُكفِّن ميتًا ويدفنه في القبر، أغلق الباب فظنته باب القبر قد أطبق عليها، ضاق نفسها، أرادتْ الصراخ.. النواح.. اللطم!

عجزت عن الحركة، فالموتى لا يفعلون شيئًا غير الاستسلام للأيادي التي تحملهم.. فاستسلمَتْ! أملَتْ عليه وصيتها مع شهقة الاحتضار الأخيرة:

- أريد العودة إلى قريتي.

انسحق بطنها تحت وطأة ألم رهيب، تحاملتْ على نفسها طوال الطريق دون أن تطلب من مرافقها عونًا. حدَّثتْ نفسها: «اقتربتِ من النهاية يا «حورية»، تعرفين أنكِ ما إن تظهري وسط القرية حتى يسوقوك إلى حبال المشنقة غير آسفين عليكِ، لن تتمنَّعي، لن تصرخي طالبة العفو والرحمة، وإن سألكِ القاضي عن أمنيتكِ الأخيرة ستقولين: «الرحمة لأبي يا سيادة القاضي»؛ علَّه يرأف بحاله، ويُودِعه مُستوصف نظيف، به حُكماء بمعاطف بيضاء يشفونه من الجنون، علَّ في نهايتكِ تكون نجاته. على مشارف قريتها رأت القبر المنبوذ على جانب الطريق،

طلبت منه التوقف، نزلتْ من السيارة ودارتْ حولها، وبعزم قوتها بصقتْ فوق القبر.

أخرجتْ فعلتها مرافقها عن صمته، تتبع موضع بصقتها بعينيه، ثم قال هو يعاود الانطلاق بالسيارة:

- قبر من هذا؟

أجابتْ مُغمضة العينين، تقتل أي فرصة للحديث:

- قبر أمي.

لكنه كان عنيدًا، حدَّثها عن قبح فعلتها، ففتحتْ عينيها، وتكلمتْ بلسان زلق سرقته من أفواه الثرثارين:

- أنتَ لا تعرف شيئًا، تلك المرأة دمَّرتْ حياتي، لو تزوَّج أبي بامرأة غيرها لما وصلنا أنا وهو إلى الحضيض، تلك المرأة امتصَّتْ شباب أبي، أفسدَتْ حاضره ومستقبله، إنها مجرمة، تستحق الموت ألف مرة لا مرة واحدة.

لم يحتد كعادته، بل حاورها بهدوء:

- وهل تظنين أن أباكِ بلا عقل كي يختار امرأة لا تصلح له؟! بالتأكيد رأى أنها امرأة صالحة وإلا لما تزوّجها.

صرختْ متهجمة، تنفث بعضًا من النيران التي ضاق بها صدرها:

- امرأة صالحة! إنها غجرية وضيعة الحال، تطوف بين القرى والنجوع تبيع وتشتري، تخط الرمل وتضرب الودع، لا أصل لها ولا نسب، يوم تبيت وسط الحقول وآخر وسط زريبة.

بهدوء لكن بحزم عارضها:

- هذا لا ينفي كونها امرأة صالحة، ربما ضاق بها الحال فلم تجد وسيلة أخرى كي تعيش بشرفها.

- شرفها؟ حتى هذا مشكوك فيه، غير أن الناس كانت تدعوني بابنة الفجرية في العلن، كانوا يلمزونني سرًّا بأنني ربما أكون ابنة لزانية.

أفلتَ لجام السَخَط؛ صاح بغضب:

- وهل شرف امرأة وسمعتها أمرًا هينًا كي تلوكه الأفواه في قريتكم مع الشاي في ساعة عصاري؟! ألا تعرفين أن قذف امرأة محصّنة من السبع المُوبقات وأنه يحتاج إلى دليل حقيقي؟! كل من طعن في سمعتها فاسق لا تُقبل شهادته، والله لو كنتُ عمدة قريتكم لجلدتُ كل واحد منهم ثمانين جلدة!

ثم استرق النظر إليها مردفًا بغيظ شديد:

- ولجلدتكِ أنتِ مائة.

غلب على ظنها أنه قادر على فعل ذلك.

- في اللحظة التي تفيقين فيها وتعرفين كيف أجرمتِ في حقها ستبكين دمًا لا دمعًا.

انكمشتْ في مقعدها، لم تخفها جملته بقدر ما أفزعتها عبارته التالية لها:

- وتلك اللحظة باتتْ قريبة.. قريبة جدًّا!

في غرفة المكتبة، أمضى «حسين» نهاره وجزءًا كبيرًا من ليله يبحث بدأب في فهارس الكتب، عن فصلٍ يُحيط بالزئبق علمًا. استطاع بصعوبة أن يتهجَّى كلمة «زئبق»، كتبها في ورقة كبيرة أمامه: ذيئبك! وظلَّ لساعات يُمرِّر أصابعه في بطون الكتب وفهارسها يبحث عن شبيه للكلمة، دونَ جدوى! لم يتجرَّأ على طلب المساعدة من أحد أبناء خالاته كي لا يخسر القصر، لو طلب مساعدتهم لخانوه، واستغلوا ما لديه من معلومات يجهلونها، فيفوز أحدهم بالقصر وحده؛ لن يمنحهم هذه الفرصة أبدًا!

في الوقت نفسه كان «شحاتة» مُعتكفًا في غرفته، يجلس أرضًا، تلتصق أذنه بالجدار الذي يفصل غرفته عن المطبخ. الآن استطاع أن يُميِّز الطريق الذي تتبعه تلك الرائحة النتنة، يربط مصعد الطعام بين غرفة البرنس في الطابق الثالث، وغرفة فارغة في الطابق الثاني، والمطبخ في الطابق الأول! أخطأ في البداية حين ظن أن مبعث الرائحة هي غرفته نفسها، بل الفراغ الواقع بين جدار غرفته وجدار المطبخ، أي من مصعد الطعام نفسه! اكتشف ذلك حين فتح مصعد الطعام في المطبخ في غفلة من نظرات «أنيس» المُتربِّصة، عندها اندفعتْ الرائحة البشعة تصفع غدده الشمِّية بعنف! هكذا إذن، ظن في البداية أن الرائحة تفوح من غرفته فتفيض على المطبخ، لكن العكس هو الصحيح، الرائحة تنبعث من أطراف مصعد الطعام في المطبخ وتزاحمه في غرفته، لهذا السبب كان يشعر بقوة الرائحة عند دخوله الغرفة وخروجه منها، فبابَا غرفته والمطبخ متجاوران لا يفصل بينهما سوى مساحة مصعد الطعام بين الجدارين.

وها هو قد ظل لساعات منصتًا إلى الجدار، في انتظار تحرك البرنس نزولًا، فيقبض عليه وهوَ خارج من مصعد الطعام بالمطبخ، عندئذ سيتهمه بمحاولة خنق «درية» هانم «وحسين» بالأمس، إذ نزل عبر مصعد

الطعام إلى الطابق الثاني حيث الغرفة الفارغة، حاول قتلهم، ثم عاد بسرعة إلى الغرفة، ركب المصعد، وصعد إلى غرفته دون أن يراه أحد، خطة مُحكمة للغاية!

ها هو الصوت ينبعث من الجدار، مصعد الطعام في طريقه إلى الأسفل، ينزل ببطء، ببطء شديد، الآن أصبح المصعد مواجهًا تمامًا لأذن «شحاتة». نهض بسرعة وجرى في اتجاه المطبخ، كي يقبض على البرنس بالجرم المشهود، لكن ما إن وصل إلى المطبخ حتى فغر فاه دهشة، وفاضتْ عيناه رهبة، وتساءَل في ريبة:

- كيف حدث ذلك؟!

لم ترغب في أن يراها في الوضع المُذِل الذي ستكون عليه بعد لحظات، عندما يُصيح فيها أهل القرية: «أمسكوا القاتلة»؛ لذلك حين توقفت السيارة عند مخزن الغلال الكبير بقريتها، قالت له:

- لن تتمكن من قيادة السيارة داخل القرية، شكرًا.. على كل شيء، و.. الوداع.

لكنه أَبَى إلا أن يُرافقها حتى تعثر على أبيها، تبًا له ولعناده، انتبهتْ إلى أنها تُماثله في العناد كطنجرة وجدت غطاها! وسط دوامة من الغثيان سارت معه، مسحتْ العرق عن جبينها مرات عدة، فانتبه إلى ذلك، سألها إن كانت مريضة، فقالت كاذبة إنها بخير، امتصَّ التعب كل قدرة بداخلها على المقاومة، تركته يسوقها من مكان لآخر، تدّله بإشارة من يدها إلى الوِجهة الصحيحة. اختل توازنها، كادتْ أن تقع فأمسك بها،

أراحها تحت شجرة كبيرة، ومن ماء الترعة القريبة عبأ كفَّيه، ونَضَحه في وجهها ثلاثًا، كرَّر سؤاله، وكررتْ كذبتها المفضوحة.

استنفَرَتْ بضعفها مروءته؛ أحاطَ كتفيها بذراع قوية، ثابتة؛ أيقظَتْ قلبها من سَكرته، كأنَّ زلزالًا ألمَّ به، أو مدَّ برق السَّماء ألسنته بداخلها؛ ناغَش قلبها وبددً غفوته.

غمرها شعور كالاحتضار، يُصاحبه طنين الأذن.. رجفة القلب.. انسحاق الصدر.. انقباض البطن وبخل الهواء بالأكسجين، لكن هل يرى المُحتضِر في سَكرته فراشات؟ هل يشعر بحمامة مُقيدة في صدره تبغي الفرار؟ هل تُداعِب بمنقارها لحمهُ وأضلعهُ؟ هل يسيل ماء عينيها في أوردته وشرايينه فيصير قلب الإنسان أرقَّ من أفئدة الطير؟ لماذا تشعر أن قلبها خفيف بغتة؟ وأن ذراعيها جناحان بحجم الحُرِّية؟ وأن لسانها بُساط يحمل كلمات لم تذقهن قبلًا إلى شفتيها؟ وأن عينها بئر ماء تشرب منه الفراشات؟

هل ينقبض صدرها حقًا كما ظنَّتْ دومًا، أم أن الحمامة ضاقتْ بمحبسها واشتهَتْ التقلُّب في أحضان السماء؟

صاح أحد الفلاحين:

- يا خلق.. يا ناس.. بنت الغجرية المجرمة عادتْ إلى البلد!

مَشَتْ لملاقاة الموت؛ أتاها هروَلة!

رأتْ «درية» هانم صباحًا وسط أغراض الفتاة الريفية الممزقة فوق أرض الحديقة أوراقًا وكتبًا تخص الباشا، من الواضح أن الفتاة كانت

قد أخذتها خِلسة إلى غرفتها. طرقتْ «درية» باب «فؤاد» عشيَّة تُشاركه ظنونها:

- لا بد أن تلك الفتاة وجدتْ شيئًا مهمًا بين أغراضه.

سألها بحماسة:

- وماذا سنفعل نحن؟

قالت بثقة:

- نبدأ من حيث انتهتْ هي، نعود مرة أخرى أنا وأنت إلى غرفة الباشا، حتمًا سنجد هناك طرف خيط، وفي النهاية هي مجرد فلاحة جاهلة لن تتمكَّن من العثور على أكثر مما بإمكاني أنا وأنتَ الوصول إليه.

أمضيا ساعات وسط أوراق الباشا، ولأن أحدهما كان يتقن الإنجليزية والآخر له باع في الفرنسية؛ تمكنا من كشف ما عجزت الفتاة الريفية عن إدراكه. أدمَنَ الباشا تدوين ملاحظاته على هوامش الكُتب التي يقرأها، غير ملتزم بلغة واحدة، أحيانًا يستخدم لتدوين ملحوظاته عدة لغات في آنٍ واحد، مما كشف عن اضطراب اتسمتْ به شخصية الباشا، خاصة في الآونة الأخيرة كما قال حكيمه. هذا ما تأكدا منه عندما شرعا في قراءة الملحوظات التي خطَّها بيده، إذ اعتاد تدوين تاريخ اليوم بجوار كل ملحوظة يكتبها.

قال «فؤاد» ذاهلًا:

- ما هذا؟! هل حقًا كان جدنا الباشا يهتم بهذه الخرافات؟!

وضَّحتْ «درية» هانم رأيها ببساطة:

- ليست خرافات، سمعتُ عن هذا الأمر من قبل في إحدى جلسات أمي في نادي الهوانم.

تمتم «فؤاد» بشكٍ وهو يُشير إلى كتاب في يده:

- أتقصدين أن هناك طريقة حقيقية لتسخير الجان؟

- بالطبع، كيف يعمل السحرَة إذن؟ يُسخِّرون الجان لخدمتهم في مقابل خدمات يُقدمونها إليهم.

أشار «فؤاد» إلى ما حوله وقال:

- تسخير الجان شيء، وهذا شيء آخر، الباشا لم يرغب في تسخير جن عادي، بل جن استخراج الكنوز مقابل منحه إكسير الخلود.. الزئبق الأحمر الروحاني!

كان الحديث عن «الزئبق الأحمر الروحاني» غير شائع، إذ لم يكن مادة مُستهلكة لجلسات السمر، لكن إحدى زبائن أمها أرملة ثرية جدًا، فشلت كل مغريات الحياة في تسليتها، فعكفتْ على النبش عن مواد جديدة تصلح للتسلية، ولو دفعتْ في سبيل ذلك ثروة.

عندها اهتدتْ الأرملة الثرية إلى حقيقة «الزئبق الأحمر الروحاني»، بمساعدة من أمها التي كانت حلقة وصل بين الهانم وبائع المعلومات! أفصحتْ لـ «فؤاد» عن كل ما تعرفه:

- عرفتُ أن الأثريين الأجانب يسعون للبحث عن «الزئبق الأحمر الروحاني» في المقابر الفرعونية، لا أعرف دقة هذه المعلومة، فكما تعلم التنقيب عن الآثار والعمل به في بلدنا مُقتصر على الإنجليز فحسب.

زمَّ «فؤاد» شفتيه امتعاضًا، فيما أردفتْ «درية» هانم:

- قال بائع المعلومات للأرملة الثرية أن هناك نوعين من الزئبق، أحدهما ذري ويستخدم في التفاعلات النووية، والآخر روحاني، وهو نادر للغاية، الجرام الواحد منه يساوي مئات الآلاف، يُستخرَج من المقابر الفرعونية القيمة، خاصة عند الكهنة والملوك، له قدرة عجيبة على تسخير نوع من الجن بإمكانه استخراج الكنوز المدفونة في باطن الأرض، وأحيانًا يقوم الجن بسرقة الأموال من البنوك ويجلبها لمن يسلِّمه الزئبق الأحمر الروحاني في عملية معقدة اسمها «التنزيل»، لها وقت معين، عادة تكون عند الفجر، مع طلوع الشمس، وأمام البحر.

التزم «فؤاد» الصمت كي يستطيع هضم ما سمعه من معلومات، ثم سأل بحيرة:

- وماذا سيستفيد الجن من هذا الزئبق الروحاني؟

أجابتْ «درية» هانم بمعلوماتها الحاضرة:

- تلك المادة هي إكسير الخلود.

- للإنسان؟

- بل للجان، يتغذَّى عليه ويطيل عمره.

فلمَّا بدا على «فؤاد» الشك، رمته باليقين:

- انظر إلى كل تلك الملاحظات التي دوَّنها الباشا بنفسه، وفكِّر في الوصية الغامضة التي لا يكتبها عاقل، ألا يوحي كل هذا لك بشيء؟

بدا عليه عدم الفهم، فأصابها الغيظ. قالت:

- «فؤاد».. ألم تفهم بعد؟! نحن أضعنا كل الأيام السابقة عبثًا في البحث عن مفتاح معدني قادر على فتح باب القصر.

- عبثًا! ماذا تقصدين؟

- أقصد أننا لا نبحث عن مفتاح القصر، بل مفتاح المقبرة، مقبرة فرعونية في مكان ما، بها تلك المادة النادرة، ضاع مفتاحها بشكل ما.

هنا هتف «فؤاد» بقوة:

- «درية».. هل تسمعين نفسكِ؟ وهل للمقابر الفرعونية مفاتيح؟

قالتْ بهدوء وكأنها تُحاول إفهام طفل صغير مسألة في القِسمة:

- ليس مفتاحًا بالمعنى المفهوم، بل شيئًا ما قادر على فتح المقبرة، أليس لكل مقبرة فرعونية لعنة ما تلحق باللصوص الذين يحاولون فتحها عنوة؟ هذا المفتاح يوقِف عمل تلك اللعنة.

طفق «فؤاد» يزرع الغرفة مجيئًا وذهابًا، يُحاول تقليب كلماتها في رأسه، ثم توقف أخيرًا، وقال:

- تمام يا «درية»، أجيبي عن هذا السؤال.. لماذا لم يشرح الباشا كل هذا في وصيته؟ لماذا تركنا نسير كالعميان طيلة الوقت؟

أجابت ببساطة ألجمته:

- لأنه لا توجد وصية من الأساس!

وقبل أن يسألها، وقفتْ قبالته، واستطردتْ:

- أظن أن كل هذا لعبة من البرنس، أراد إحضارنا إلى هنا لنبحث عن مفتاح المقبرة الفرعونية، بالطبع لم يستطع أن يخبرنا بذلك وإلا أخذنا المقبرة بما فيها لأنفسنا دون أن يدرك أحدنا قيمة الزئبق الروحاني الذي يساوي ثروة فاحشة.

استنزَف «فؤاد» عقله في التفكير، ما تقوله منطقي جدًا، بل أقرب إلى المنطق من فكرة وصية تركها الباشا للبحث عن مفتاح القصر، لكن بقى سؤال واحد يثق أنها لن تعثر له عن جواب مقنع، عقد ذراعيه فوق صدره وألقى به في وجهها:

- سأقتنع بكل ما قلتيه الآن لكن بشرط، أجيبي عن هذا السؤال.. لماذا نحن؟ لماذا لم يجمع البرنس سرًا بعض عُمَّاله أو فلاحين عزبته ويدفع لهم بضعة جنيهات للبحث في كل أرجاء القصر دون أن يضطر إلى إحضارنا إلى هنا ويخاطر بكشف خطته؟

صدق «فؤاد»، كان هذا السؤال أكبر من إدراك «درية» هانم، تركها في حيرة من أمرها، على الأقل الآن.

لا أثر للبرنس في المطبخ!

لم ينفتح باب المصعد من الأساس! اندفع «شحاتة» بجنون صوب المصعد المغلق، فتحه فطالعه فراغ مظلم، أين ذهب البرنس؟! اندفعتْ الرائحة تهجم على غدده الشميّة، لكنه أسرع بربط منديله القماشي فوق أنفه، يثق أن الصوت كان في طريقه إلى أسفل، إلى حيث المطبخ، كيف حدث ذلك إذن؟

- لن أستسلم، لا أكون المعلم «شحاتة» على سِن ورمح إن لم أكشف لعبتكَ يا برنس الغَبرَة.

أتى بمصباح كيروسين يعرف مكانه فوق أحد الرفوف، أشعل فتيله بعود ثقاب، ثم فتح المصعد مرة أخرى وحشر رأسه والمصباح بداخله. نظر أولًا إلى الأعلى، لا أثر للمصعد نفسه عند نهاية أقصى نقطة

يستطيع شعاع الضوء أن يصل إليها. أخرج رأسه، توجه إلى الحمام المقابل وأفرغ ما بمعدته، لم يزعجه ذلك، كلما احتدَّتْ الرائحة أكثر أيقن أنه على الطريق الصحيح. عاد مرة أخرى إلى المصعد، حمل المصباح، وجَّه المصباح إلى الأسفل.. وفوجئَ بما رأى! اصطدم شعاع الضوء بجسد صلب، إنه المصعد نفسه! أخرج رأسه وراح يسأل نفسه بدهشة وهو يدق فوق الأرض بقدميه:

- هل هذا معقول؟! هل يوجد تحت هذه الأرض قبو سري؟!

ضحك بشدة، وأخذ يُلوِّح بذراعه فرحًا في الهواء:

- وجدتُها، المفتاح مُخبأ بالأسفل، في الغرفة رقم ثلاثون التي تحدَّثتْ عنها «حُرة»!

للأسف لا يتسع المصعد لجسده الضخم، يحتاج على الأقل إلى عشرة مصاعد مثله كي يتمكن من حشر جسده فيه، ماذا يفعل إذن؟ جسد «حسين» مناسب، وكذلك «حُرة»، هل يُشارك سر اكتشافه مع أحدهما فيتمكن من الحصول على مساعدته؟ لكن ماذا لو خانه شريكه، واستأثر بالمفتاح والقصر لنفسه؟ أغلق المصعد، جلس فوق أرض المطبخ يستند إلى الجدار، والحيرة تنهش رأسه نهشًا.

- يا خلق.. يا ناس.. بنت الغجرية المجرمة عادتْ إلى البلد!

انتفض قلبها، غامتْ الدنيا أمام عينيها، لولا «عادل» الذي يشُدُّ على كتفيها لسقطتْ في الوحل. على صيحات «حسَّان» الخُضري استيقظتْ القرية النائمة، تجمهر الفلاحون، حاوطها الخفر من كل اتجاه، واندفع كبيرهم إلى دوَّار العمدة، يُعلن عن عودة المجرمة إلى القرية. ظنَّتْ

أنها قادرة على تحمُّل أهوال تلك اللحظة، لكن قوتها تسربتْ منها شيئًا فشيئًا، ما أقسى العيون التي تنهش وجهها وجسدها، والألسنة التي تلوك سيرتها حين رأوها ترتدي ثياب أهل البندر، مع أفندي لا تألفه أرض قريتهم، يمسك بها بجُل قوته!

آلمتها كلمات هي كالطعنات أو أشد قسوة، رفعتْ كفيها وسدَّتْ أذنيها، سهام الكلمات المتراشقة تخترق أذنيها، وتُمزِّق كرامتها وكبرياءها وآدميتها بشفراتٍ حادة.

سمعتْ «عادل» يرد هتافًا بهتاف، وصياحًا بصياح، لكنها لم تفطن إلى ما يقوله، غاب صوته وسط عشرات الأصوات القادمة من الاتجاه المعاكس. لم تهدأ الأصوات إلا حينما أقبلَتْ الست «حلاوة» مع «مرزوق» تجر خلفها عددًا من صويحباتها، ثم اندفعتْ صوب «حورية» تقبض بكف قوية على خصلات شعرها. أيقنتْ «حورية» أن فرصة الموت على يد «عشْماوي» صارت بعيدة المنال، ستدفنها الست «حلاوة» في مكانها حية، كما كانت البنات تُوأد في الجاهلية.

صاحت الست «حلاوة»:

- ولِك عين تأتي إلى هنا يا «مايلة»، كان يجب عليَ أن أقتلكِ منذ أول يومَ سُقتِ فيه الهَبالة على الشَيطَنة.

وقبل أن تتمكن الست «حلاوة» من «سَفخها» كفًا، بينما يدها الأخرى تُجاهد لانتزاع ما تقبض عليه من شُعيراتها، أمسك «عادل» بيد الست «حلاوة» بقوة آلمتها؛ اندفع «مرزوق» على إثرها للزود عن أمه، فعاجله «عادل»:

- ليُبعد أحدكم هذه المرأة وإلا سأبعدها بنفسي.

سحبَ «مرزوق» ذراع أمه، يجذبها بعيدًا عن الأفندي الصفيق الذي تجرَّأ على منعها من ضرب «حورية»، حدد بذلك موقفه من المعركة، فلتمُتْ الفتاة العنيدة التي هجرته، وأسالتْ دماء أبيه العمدة. في عينيه كانت القسوة تنبض، يلومها على ما آل إليه حالهما، كان بإمكانها أن تبقى معه ولا تهجره، أن تقبل بزواجها منه سرًا، إن أحبته حقًا لفعلتْ، حتمًا لفعلتْ، لكنها وبدلًا من العودة باكية ندمًا على هجره، مُطأطأة الرأس تُقبِّل قدمه ليعود إليها، أتتْ برفقة أفندي صفيق يقترب منها.. يلمسها.. يلاصقها أكثر مما سمحتْ له يومًا أن يفعل؛ بلغ غيظه منها أعالي السماء.

هتف بحقد دفين:

- ستلقين عقابكِ يا بنت الغجرية، حتى وإن كان آخر يوم في عمري.

ناداها بـ «بنت الغجرية».. مثلهم!

لم تنظر إليه «حورية» بعتاب؛ العتاب لا يكون إلا بين المُحبين، و«مرزوق» غريب عن قلبها، غريب منذ البداية. أدركَ «عادل» أن الفتاة في مأزق أكبر مما كان يتوقع، فهم من صراخ الفلاحين والخفر وزوجة العمدة أنها قدمتْ على فعل إجرامي كبير، أسالَتْ دماء العمدة هدرًا، كل ما تمنَّاه في تلك اللحظة ألا يكون جُرمها أكبر من ذلك، ألا تكون قد قتلته مثلًا، لو مات العمدة لأصبح الوضع خارج سيطرته. رنا إلى وجهها يبحث فيه عما يُطمئنه، لكن ما رآه أفزعه؛ ندمًا كبيرًا.. خوفًا.. ألمًا.. تطلَّعتْ إليه تقول بانكسار:

- آسفة أنني جررتُكَ إلى هذا، لم أقصد أن أقتله.. أقسم لكَ.

هوَى قلبه، مات إذن!

شدَّدَ على كتفها أكثر، يُحاول إبعادها عن امرأة سعَتْ لضربها، مُجاملة منها للست «حلاوة» في غضبها، فتمزّق كتف فستانها، كيف يستطيع أن ينقذها من هذا المأزق؟ قوته وحده لن تكفي. دفنتْ «حورية» وجهها في صدره، تحميه من حجارة رشقها أحد الأطفال بمباركة أمه، مُجاملة منها هي الأخرى للست «حلاوة». شقَّ الجمع رجل مهيب، أفسحوا له الطريق، احتلَّ منتصف الدائرة مواجهًا الفتاة ورفيقها، طرق بنبوته فوق الأرض، أطلق سُعالًا مرتين، ثم قال موجهًا حديثه إلى «عادل»:

- من أنت يا سيدنا الأفندي؟ ولماذا تحمي الفتاة؟ اتركها.. فهي لنا.

ما إن سمعتْ «حورية» صوت الرجل حتى رفعتْ رأسها.. فغرتْ فاها.. أبكت عينا، وصاحت بجنون، تنغمس كلماتها في ضحك وبكاء:

- العمدة.. أنتَ حي.. أنتَ لم تمت!

التفتتْ تنظر إلى مرافقها وكأن ليس بإمكانه رؤية ما ترى. هتفت:

- لم يمت.. العمدة لم يمت.

تمكَّنتْ أخيرًا من الوقوف وحدها دون دعامة تسندها، هتفت في الناس وفي الست «حلاوة» وفي «مرزوق» وفي أخته:

- العمدة لم يمت.. العمدة لم يمت.

صاحت ابنة العمدة:

- قبر يلمّك، «آبا» العمدة صاغ سليم.

ورفعتْ الست «حلاوة» كفيها للسماء تقول:

- إن شاء الله نعدمكِ أنتِ يا بعيدة.

وفي الحال أمر العمدة أحد الخفر بإحضار الفتاة إلى دوّاره؛ كي يُعاقبها بنفسه على كل قطرة دماء سالتْ من رأسه. أمسك «عادل» بذراعها، خبَّأها خلف ظهره دون أن يتركه، أعلن بحزم قاضٍ يُصدر حُكمًا نافذًا:

- لن أسمح لكَ بلمسها.

تشبَّثتْ «حورية» بقميصه، تتخذ جسده ساترًا، كما كانت تحتمي بظهر الخالة «بهانة» وهي صغيرة، حينما يَهم العمدة بضربها. لكن الساتر هذه المرة أشد صلابة، وأكثر قوة وإقدامًا، لا يحميها خلفه فحسب مثل جدار الصبر، بل يتحدَّى العمدة بقوله: «لن أسمح لكَ بلمسها»، لم يسبق لأحد أن وقف في وجه العمدة من أجلها، لم تُقابل رجلًا في جُرأته، لا يكتفي بقلبه لإنكار القُبح، بل يسعى لتغييره بيديه ولسانه. تشبَّثتْ بقميصه أكثر فأكثر، تسترق من جنبه النظر إلى العمدة الغاضب، و«مرزوق» الحاقد، وابنة العمدة الشامتة، والخفر المُتأهِّبين للانقضاض عليها.

جسارته على المواجهة ألجمَتْ ألسنة الخفر، وشلَّتْ حركتهم، بدا التردد واضحًا عليهم، حتى العمدة نفسه حارَ في أمره، صحيح أنه لا يشبه باشا أو بك، لكنه يبدو أفنديًا محترمًا، ولعل له صلاتٍ قوية ببشوات وبكوات في مصر، أو يكون حاضرًا مع «حورية» من طرف «مخيمر» بك، حارس شخصي لحمايتها، يعرف العمدة أن علاقة «حورية» بـ «مخيمر» طيبة للغاية، هي الوحيدة التي أعطاها عنوانه في مصر ودعاها لزيارته!

أراد «عادل» أن يطرق على الحديد بينما هو جمرة مشتعلة قابلة للتشكيل:

- ألا تعرف من تكون هذه الفتاة؟ إنها حفيدة «كاظم باشا البارودي»، والدتها هي ابنة الباشا شخصيًا.

انزعجتْ «حورية» لتلك الكذبة، خافت أن ينكشف أمرها، لكنها عندما نظرت إلى وجوه الناس حولها، وسمعت همساتهم لاحظت أن كذبته على الأقل أربكتهم. هتف العمدة بعدم تصديق:

- ماذا تقول؟! هذه الفتاة ابنة الغجرية، نعرف أمها جيدًا!

ضحكتْ الست «حلاوة» باستهزاء، ضحكة عالية شاركنها فيها النساء:

- «عشنا وشُفنا» بنت الغجرية حفيدة باشا، إن كان المتحدث مجنونًا فالمستمع عاقلًا يا سيدنا الأفندي.

أخرج «عادل» من جيبه ورقة مطوية، فتحها وقدَّمها إلى العمدة الذي قرأها ذاهلًا، قال «عادل» وهو يُقلِّب عينه في وجوه الجميع، ثم يُنهي بها المطاف فوق وجه «حورية»:

- هذه شهادة ميلاد أم «حُرة شعبان رمضان النعماني»، مُثبتٌ فيها اسم الباشا في خانة الأب!

«النعماني»!

استنفرَتْ حواس «حورية»، والتهبتْ أعصابها، همست له بذهول:

- ماذا تقول؟!

نزلتْ الحقيقة عليها كالصاعقة، إذ تنهد قائلًا:

- كما سمعت يا «حُرة».. أنتِ حفيدة الباشا، ولستِ ابنة العمدة كما ظننت، أنتِ صاحبة الدعوة إلى القصر منذ البداية، كنتُ قادمًا إلى اللوكاندة تلك الليلة لأخذكِ أنتِ!

في القصر حامَتْ علامات الاستفهام كذئب يتربص بفريسته، لا يجرؤ أحد الأحفاد على الاستعانة بالآخر، مخافة الغدر والخيانة، وفي الوقت ذاته لا يستطيع تحقيق تقدم وحده، ماذا سيفعلون إذن؟ بغتة ارتفعتْ عقيرة «فؤاد» بالصياح، وهو يندفع من غرفته:

- من اللص ابن الحرام الذي سرقني؟

أول من خرجتْ من غرفتها على صياحه هي «درية» هانم، التي كانت تستعد لارتداء ملابس النوم بعد سهرتهما المرهقة معًا في غرفة الباشا. اندفع يدق باب غرفة «محفوظ» حتى أقلق نومته. فتح «محفوظ» الباب بوجه ممتعض، فعاجله «فؤاد»:

- هل دخلتَ غرفتي؟ هل سرقتَ أغراضي؟

راحَ «محفوظ» يمسك بتلابيب «فؤاد»:

- ماذا تقول! أنا ضابط في البوليس، من الذي تتهمه بالسرقة يا «بَقْف»؟

خرج غضب «فؤاد» عن السيطرة، اندفع يطرق باب غرفة «شحاتة»، فلما لم يجب فتح الباب بعنف، لم يكن «شحاتة» بغرفته، فأخذ يُفتّش أدراجه ويُلقي ما ببطونها أرضًا. حاولتْ «درية» هانم تهدئته عبثًا، لم يستجب لأي من نصائحها بالتروِّي، اندفع من غرفة «شحاتة» إلى غرفة «حسين» الذي فتح بابه بغير طرقات، إذ أن الضجة كانت كافية لإزعاج قبيلة. سأله «فؤاد» بحدة:

- هل دخلتَ غرفتي؟ هل سرقتَ أحد أغراضي؟

تطلع إليه «حسين» ببلاهة:

- عن أي سرقة تتحد...

لم يُمهله «فؤاد» الفرصة ليتم عبارته، دفعه وهجم على الغرفة يُقلّب فيها كيفما شاء، لم ينجح أي منهم في منعه من ذلك، حتى ركع ونظر تحت الفراش، توقف تمامًا عن الحركة لوهلة، ثم قبض بيده على ما تحته، والتفتَ إلي «حسين» يصيح بوجهه:

- لص ابن حرام، سأسلمكَ إلى البوليس، اقبض عليه يا «محفوظ» سأشتكيه في الكراكون.

ولم يكن الغرض الضائع -أو المسروق- سوى فِيش لُعبة قمار بقيمة خمسمائة جنيه، لم يعثر «فؤاد» تحت الفراش سوى على قطعة واحدة من فئة المائة، وما تزال أربع قطع مفقودة. هتف «حسين» باضطراب وهو يقضم أظافره:

- لم أسرق شيئًا، لا أعرف كيف أتى هذا الشيء إلى هنا، حتى أنني لا ألعب القمار ولم أدخل صالة في حياتي قط.

سدَّد «فؤاد» لكمة مُفاجئة إلى وجهه، لم تكن قوية كفاية إلا أن عامل المفاجأة له قوة حاسمة، ارتطم «حسين» على أثرها بالدولاب ثم سقط أرضًا. هرعتْ «درية» هانم تفحص وجهه وتعينه على النهوض، بينما سارع «محفوظ» بالوقوف أمام «فؤاد» كي لا يلكمه الثانية، ومن لسان «فؤاد» سالت أقذع الشتائم والألفاظ، احتقن لها وجه «حسين» خجلًا، وعندما وصل السباب إلى أعراض أمه وأخواته غلَتْ الدماء في عروقه وهجم على «فؤاد» أوقعه أرضًا.

تعارك الاثنان فوق الأرض، يعلو أحدهما الآخر، مُسددين لكمات إلى كل منطقة تستطيع قبضاتهما الوصول إليها. لم يُفرِّقهما إلا «شحاتة» الذي دخل الغرفة حاملًا نصف فرخة بيد، وباليد الأخرى حمل «حسين» من وسطه، ألقاه فوق الفراش ثم جلس فوقه كي لا ينهض! وبَّختهما

«درية» هانم كمراهقين لم يُحسن أحد تربيتهما، بينما «محفوظ» يكاد يقفز في الهواء طربًا؛ لأن خطته تسير على النحو الأكمل. قال بثقة:

- «حسين» ابن أصول يا «فؤاد» لا يمكن أن يسرقكَ، حتمًا السارق شخص غيره.

كاد «شحاتة» أن يختنق بالطعام وهو يقول:

- من تقصد بـ «غيره» يا سي «محفوظ» أفندي؟

سارع «محفوظ» بتوضيح مقصده:

- لا أقصدكَ، ولا أقصد أيًا منا، أقصد شخصًا من خارج العائلة.

كرر «شحاتة» ببلاهة:

- مِن خارج العائلة!

أكّد «محفوظ» بحماس:

- ألم يتعرَّض «حسين» و«درية» هانم لمحاولة قتل بالأمس؟ ألم تُمزَّق أغراض «حُرة» صباحًا؟ والآن سُرقت أغراض «فؤاد» ووضِعت في غرفة «حسين»، والدور قادم عليّ أنا و«شحاتة»، من له مصلحة في افتعال المشاكل بيننا؟

فشل «حسين» في تحرير نفسه، ولم تفلح توسلاته كذلك في أن تُوقِف «شحاتة» عن اتخاذ جسده مقعدًا له. قال «فؤاد» وهو يحاول السيطرة على غضبه؛ كي يتمكن من التفكير بشكل منطقي:

- البرنس هو المُستفيد، لعلَّه سينال من الحُب جانِبًا إن ساعَد على أن نخسر القصر وتفوز به مصلحة السياحة.

سارع «محفوظ» بدفع الحوار إلى النقطة التي أرادها:

- البرنس أو شخص آخر، معنا في القصر اثنان غيره.

امتعضتْ «درية» هانم تقول باستهجان:

- حتى في هذا الظرف تستمر في الأكل يا «شحاتة»!

حكَّ رأسه قائلًا:

- ما علاقة الأكل بالظروف؟

هنا تذكرتْ «درية» هانم أمرًا، فسارعتْ بالسؤال:

- «شحاتة».. من أين أتيتَ بهذا الطعام؟ هل أعدَّه «أنيس» لكَ؟

قال «شحاتة» بفم ممتلئ بالطعام:

- أطباق طعام الغداء ما زالتْ كما هي في المطبخ، لم يغسلها ذاك المأفون «أنيس»، ولم يُحضِّر طعام العشاء كذلك، بل لم يأت إلى المطبخ منذ الغداء، بحثتُ عنه في غرفته ولم أجد له أي أثر، كأن الأرض انشقَّتْ وابتلعته! فاضطررتُ إلى تناول الطعام باردًا من الثلاجة.

صاحتْ «درية» هانم جزعًا:

- توقف قليلًا عن الأكل، يقول الحكيم إنك كلما ملأت معدتك أصيب عقلك بالغباء.

أجابها بسماجة وهو ينهش قطعة لحم بأسنانه:

- اطمئني يا مارونج لاسيه القصر، كل عضو عندي يعمل بشكل منفصل.

ثم استطرد وقد توقف عن لوك قطعة من صدر الفرخة:

- بالمناسبة.. كيف لم تستيقظ «حُرة» حتى الآن؟ لم أرها منذ بكائها كالمجانين في الصباح.

تبادلوا النظرات في شك، ثم انطلقوا إلى غرفة «حُرة»، لم يجدوا لها أي أثر. بحثوا عنها وعن «أُنيس» في كل غرف القصر، حتى أنهم طرقوا باب البرنس على مضض، فأجابهم ببرود أنه لا يعرف شيئًا لا عن «حُرة» ولا عن رئيس خدمه.

تساءلوا في حيرة كبيرة، والخوف يطرق قلوبهم بمطارق لا تهدأ: «أين ذهب كلاهما إذن؟!».

جلستْ فوق الأريكة الخشبية العارية، لم تتخيل أنها ستفتقدها إلى هذه الدرجة، عشَّتها البسيطة المُسماة دارًا، شعرت أنها أكثر براح من الدنيا بأسرها. تلف كتفيها ببطانية من الخيش تُداري بها ما مُزّقَ من فستانها، كانت قد صنعتها بيديها من أجل مواجهة ليالي الشتاء الباردة. ما زالتْ في صدمة استيعاب الحقيقة الجديدة، هي حفيدة الباشا وليست ابنة العمدة، وأمها الغجرية هي ابنة الباشا، وليست الست «حلاوة»!

حاولتْ الغوص في أعماق نفسها والتفكير، إذا علمتْ تلك الحقيقة في وقت أبكَر، عند دخولها القصر مثلًا هل كان تغير شيء بداخلها؟ لم تستطع أن تُفيد نفسها بإجابة قاطعة، لكن على الأقل لقلَّ شعورها بالذنب، ولما هربت من القصر بعد تمزق فستانها الأزرق، لبقيتْ وكافحتْ من أجل الفوز بالقصر، لا لتساوم به ابنة العمدة من أجل حريتها، بل من أجلها وأبيها. رأى «عادل» دمعاتها تتلألأ كاللؤلؤ في ضوء القمر،

ودَّ لو اقتطفها وصنع منها عقدًا. نطقتْ أخيرًا:

- قلتَ إن الدعوة كانت موجهة لي منذ البداية.

- نعم، كان البرنس على وشك إرسال سائقه الخاص لإحضارك من القرية عندما بلغه أنكِ قدمتِ إلى القاهرة مع العمدة وابنته، فتم توجيه الدعوة لثلاثتكم، وفي العوامة رأيتكِ.

- كيف عرفتَ أنني «حُرة» المقصودة؟

- عندما اصطدمتِ بي وتركتني وانصرفتِ جاء العمدة وسألني لماذا أتحدث إلى خادمته، فعرفتُ أنكِ «حُرة» حفيدة الباشا.

- ولماذا أتيتَ أنتَ لإحضاري إلى القصر؟ لماذا لم يرسل البرنس أحدًا غيرك؟

- لم يرسلني البرنس، أرسل سائقه الخاص، لكن أصابه حادث في الطريق إلى اللوكاندة فاتصل هاتفيًا بالقصر ليبلغ البرنس بالأمر، كنتُ في المطبخ وقتها فتلقَّيتُ المكالمة بنفسي من سماعة المطبخ.

- لكن لماذا أتيتَ؟ لماذا لم تخبر البرنس ليرسل شخصًا آخر؟

عندئذ توقف سيل إجاباته، لم يجد لهذا السؤال جوابًا منطقيًا، منذ أن رآها في العوامة شعر بجاذب خفي يقوده نحوها، لعله الغضب.. أو شيء آخر. سدَّدتْ إليه نظرات لوم، تقول:

- لماذا لم تخبرني أنني «حُرة» المقصودة؟

- لأنكِ لم تكوني مُستعدة بعد.

أغاظتها إجابته، يُعاقبها إذن! على كذبتها، وعلى خداعها لأبناء خالاتها، كيف سوَّلتْ له نفسه أن يُعاقبها؟ من هو كي يُعاقبها؟ وقبل أن ترمي بوجهه كل ذلك استطرد:

- هناك الكثير مما لا تعرفينه يا «حُرة».

أزاحتْ بطانية الخيش عنها، كأنها تقول له إنها تستطيع مجابهته كما تستطيع مجابهة البرد القارس، تحدَّته:

- أخبرني إذن، من حقي أن أعرف كل شيء.

انعقد حاجباه بشدة، وقال بشكٍ أزعجها:

- لا أظن أنكِ جاهزة بعد.

هبَّتْ واقفة، ظل جالسًا، أراحها ذلك، كي لا يُهيمن عليها بطول قامته فتشعر أنها صفر أمام واحد صحيح:

- من أنت لتُقرر ذلك؟ أنت لا تعرفني، لا تعرف ما أنا قادرة عليه وما أنا عاجزة عنه.

سألها سؤالًا بدا بسيطًا جدًا، لكن إجابته ستُحدد له كل شيء:

- ها أنتِ علمتِ أنكِ حفيدة الباشا.. وأحد ورثته، أخبريني الآن.. لو قلتُ لكِ إن هناك ثروة كبيرة في قصر الباشا، لكنها ليست من حقكِ بل من حق أناسٍ آخرين، هل أنتِ مستعدة للتخلي عنها من أجلهم؟

شعرتْ أن السؤال صعب على بساطته، بل صعب جدًا، ترددتْ للحظات قبل أن تقول:

- وما أدراني أنك تقول الحقيقة؟ لعلها ليست من حق هؤلاء الناس.

وقف أمامها، أردف وعلامات الألم على وجهه، كأنه يُعاني من ذكريات لا يحب الخوض فيها:

- بل من حقهم؛ لأنها جُمِعَتْ بدمائهم وعرقهم وقوتهم وقوت عيالهم، هذه الثروة لعنة على كل من يمسَّها؛ لأنها معجونة بدعاوي المظلومين في جوف الليل وعند السجود.. معجونة بأنين الأمهات.. وبشرف البنات.. وبسمة العيال.. هل ستقبلين بهذه الثروة التي يكفلها لكِ القانون رغم علمكِ بكل ذلك؟

كان السؤال اختبارًا حقيقيًا، ليس من السهل التخلي عن ثروة هي في أمس الحاجة إليها، لكن ما يقوله مرعب جدًا.. فظيع جدًا.. ينغز قلبها من الداخل، هل تستطيع وهي التي عاشتْ عمرها تتجرع الظلم، أن تكون اليد التي تظلم الآخرين؟

ثمة ثروة تستطيع أن تُحقق بها أحلامها، وتشفي أباها من الجنون، وتعيش في راحة بال إلى الأبد دون أن تضطر للعمل كخادمة تحت أقدام الآخرين، لكن أيضًا ثمة دعوات للمظلومين! تَعرف أن دعوة المظلوم تُحمَل على الغمام، تصعد إلى السماء كأنها شرارة، ليس بينها وبين الله حجاب، المظلوم لا يهدأ.. والظالم لا يهنأ!

قاطع تفكيرها:

- أرأيتِ، قلتُ إنكِ غير مُستعدة بعد، وكنتُ محقًا.

كانت متعبة إلى درجة أن عملية التفكير في الرد المناسب عليه تبدو مُعقدة جدًا على عقلها. قالت له بصوت مُنهَك:

- يجب أن أذهب للبحث عن أبي.

- أين؟

- لا أعرف، قد يكون في أي مكان.

وقبل أن يخرجا من العشة، فوجئتْ «حورية» بالخالة «بهانة» تدلف إليها، صاحتْ بفرحة طاغية، وأقبلتْ على المرأة تُعانقها، وتُقبِّلها، وتشم فيها رائحة الجبن مختلطة بالحليب والروث، ورغم ذلك بدتْ في أنفها أروع رائحة في الدنيا.. رائحة الحنين!

بادرتها المرأة الباكية وهي تدنيها منها:

- تعالي «في ريحي» أوحشتيني كثيرًا يا بُنيتي، هل هُنت عليكِ طوال هذه المدة لا تسألي عن خالتكِ «بهانة» ولا تخبريها عن مكانكِ فتأتي إليكِ؟

غالبتْ «حورية» تأثُّرها وهي تُقبِّل كفها وتقول:

- اعذريني يا خالة، لو أحكي لكِ ما أصابني لن تغضبي مني.

هزَّتْ المرأة كتفيها، وهي تقول بعتاب:

- «مُخيصم».

مالتْ عليها «حورية» بدلال تحاول إضحاكها قائلة:

- لا «مُصيلح» يا خالتي «بهانة»، حتى لو كنتِ «مُخيصم» فأنا لا يهون عليّ خصامكِ.

لم تستطع الخالة «بهانة» التحكم في فضولها أكثر:

- مُصيلح هذه المرة، لكن قولي لي.. أهل القرية لا سيرة لهم سوى أنكِ حفيدة باشا كبير من مصر.. وأمكِ الغجرية قال «إيه» ابنة باشا!

أومأتْ «حورية» وقالت بمشاعر مُختلطة:

- هذه هي الحقيقة يا خالة.

- لا هذا الكلام لا يصلح معي، احكي لي كل شيء من البداية.

ثم طافتْ عينا الخالة بقسمات «عادل»، تتفرس فيه بفضول:

- ومن يكون سيدنا الأفندي؟

ألجم السؤال لسان «حورية»، إلى الآن لا تعرف اسم مرافقها! تقدَّم بنفسه من المرأة وقال:

- العَواف عليكِ يا خالة، محسوبك «عادل».

- عاشتْ الأسامي يا سيدنا الأفندي، لكن أنت من؟

سارعتْ «حورية» تقول باضطراب:

- سائق جدي الباشا.

لاحَت على شفتي «عادل» بسمة ساخرة، مالَ عليها هامِسًا:

- ما أسرع اعتيادك على وضعك الجديد!

نظرتْ له مُعاتبة، يحلو له دومًا السخرية منها، حتى وهي في هذه الحال! أجاب الخالة:

- أنا لستُ سائقًا، أنا مهندس ري.

اتسعتْ عينا «بهانة» دهشة، ما الذي جمع هذا الأفندي المتعلم بـ «حورية» التي تعرفها. همستْ بجوار أذنها:

- أخبريني بكل شيء يا ابنتي؛ الفضول يأكلني أكلًا.

- أخبريني أنتِ يا خالة.. أين أبي؟ أريد أن أراه، جئتُ إلى هنا فلم أجده، وأين حماري «رهوان»؟ خُذيني إليهما.

فلمَّا طأطأت رأسها، ورأتْ في وجهها حُزنًا، صرختْ وهي تضرب صدرها بكفيها:

- لا تقوليها يا خالة.. لا تقوليها.

وقعتْ أرضًا، لم تحملها قدماها أكثر، أخذت تبكي وتحث التراب فوق رأسها، وقف «عادل» ذاهلًا، أما «بهانة» فأوقفتْ قبضتها المملتئة بالتراب وهي تهتف:

- وهل قلتُ لكِ إنه مات؟ الذي مات هو حمارك «رهوان»، لم يهتم به أحد من بعدكِ، مات على شط الترعة مثلما ماتت أمه وهي تلده.

رغم أن الغم قد أصاب قلبها لموت حمارها، إلا أنها رأتْ أن الله افتدَى أباها بحمارها، فحمدته وشكرت فضله، وهمست لنفسها: «ربنا جابها سلامات». سألت بضعف ورقة خريف امتصَّ منها الصيف رحيق الحياة:

- أين أبي إذن؟

مصمصتْ الخالة شفتيها، ثم قالت بحسرة:

- يا كبدي يمشي في القرية ليل نهار ينادي عليكِ، وعندما يتعب من السير ينام في المكان الذي يجد فيه نفسه، خلف دار.. أو داخل زريبة، في مرة جئنا به من فوق شجرة تمر حنة، أصرَّ أنكِ فوق الشجرة، ومرة أخرى أتينا به من وسط الترعة وقد أوشك على الغرق، أصرَّ أنكِ تحوَّلتِ إلى قوموط يعيش في قاع الترعة، لكن صلاة الفجر لم يتخلَّف عنها قط، يُصليها ثم يجري إلى شجرة تمر حنة يتسلقها ويجلس فوقها يراقب الغيط حتى شروق الشمس، اذهبي إلى الشجرة يا ابنتي، مؤكَّد سيعود إليها ما إن يستيقظ من نومته.

همَّتْ «حورية» بالمغادرة، أوقفتها الخالة، وسحبتها خارج العشة، همستْ وهي ترنو إلى «عادل» بين الحين والآخر:

- والله لا أدعكِ تغادرين حتى تخبريني من هذا الأفندي.

- قال لكِ إنه مهندس ري، وأنا قابلته في قصر جدي.

- هل سيتزوجكِ؟

استطار قلب «حورية»، غزَتْ حمرة الخجل وجنتيها، رنَتْ بدورها إلى «عادل»، ثم قالت باضطراب، تُعدد الأسباب المنطقية التي تنسف هذا التفكير من رأس الخالة:

- ما هذا الكلام! كلا بالطبع، إنه.. إنه.. أفندي محترم.. متعلم.. و.. ومهندس ري.

كررتها وكأنها تُذكِّر نفسها بالفارق الكبير بينهما، اغتمَّتْ لذلك، لماذا لا يكون ابن فلاح بسيط بالكاد تخرَّج من إحدى المدارس الأهلية؟

أفصحتْ الخالة بنبرة العارف:

- لكن نظراته إليكِ كقطة «تِحابي على عيالها».

تضاعَف اضطرابها، همستْ بإصرار، تنفي لنفسها وللخالة:

- تُبالغين يا خالة، لا يوجد شيء من هذا.

- أخبريني كل شيء على الأصول.

لم تقص عليها «حورية» كل شيء، اختصرتْ كثيرًا، ووعدتها بزيارة أخرى تتبادلان فيها الحديث حتى تمل منهما الكلمات، ثم توجهتْ برفقة «عادل» إلى شجرة تمر حنة؛ تنتظر قدوم أبيها.. ببالغ الشوق.

على الرغم من أنهم فقدوا بغياب الفتاة الريفية أحد المنافسين على القصر، إلا إنهم شعروا بقلق حقيقي عليها، أين ذهبتْ في مكان لا تعرفه؟ كيف وضعتْ الوصية خلف ظهرها بلا مبالاة؟

لم يكن لها أي أثر في الحديقة كذلك، عندئذ اقترح «محفوظ»:

- علينا أن نسأل الحارس علّه رأى أحدهما.

تحرك الجميع معًا باتجاه الكوخ، وهناك أصاب «درية» هانم نوبة هلع؛ على باب الكوخ ثمة ذئب رمادي كبير يجلس بأريحية كبيرة، ما إن رآهم حتى اشرأبَّ برأسه، تلمع عيناه الذهبيتان على ضوء القمر بوهج ألقى بالخوف في قلوبهم، طوال الأيام الماضية كانت تسمع صوت الذئاب فترتعد، يُطمئنها كبير الخدم بأن الذئاب لا يمكنها الخروج من الغابة، لكنها الآن تلتقي بأحدهم وجهًا لوجه.

كادوا أن يولوا منه فِرارًا، خاصة أن الكوخ مظلم، والحارس غير موجود، لولا أن ثبَّتهم «محفوظ» الذي لا يقل عنهم رعبًا:

- يجب أن ننظر داخل الكوخ، لعل أحدهما بالداخل.. أو الاثنين معًا.

تنحنح «شحاتة» قائلًا:

- هيا يا «فؤاد».. اذهب أنتَ داخل الكوخ مع «محفوظ»، وأنا سأهتم بالبنات هنا.

احتد «حسين»:

ماذا تقول يا «شحاتة»؟!

لا مؤاخذة يا «حسين»، أقصد سأهتم بالهانم وبـ «حسين».

لم يجد «فؤاد» بُدًّا من التقدم باتجاه الذئب، وبيده فرع شجرة لقاه أرضًا، يهش به على الذئب، فانفجر «شحاتة» ضاحكًا:

- أمَّا يا «فؤاد» أفندي أنتَ ابن نُكتة صحيح.

قال «فؤاد» مغتاظًا:

- تعال وأرني هِمَّتك يا ابن البلد «الجَدَع».

شمَّر «شحاتة» عن ساعديه، هجم على الذئب يأمره بالعودة إلى الغابة، نهض الذئب الرمادي فجأة فتقهقر الجميع إلى الخلف، وتراقصتْ ساقا «شحاتة» فزعًا، تمَّطع الذئب وكأنه يستلذ بالرعب الذي ألقاه في قلوبهم، ثم تمخطر مُبتعدًا عن الكوخ بروية من يملك الوقت كله.

ركل «محفوظ» الباب ركلة قوية أطاحت به، سارع «شحاتة» بالدخول يتقدَّم الجمع وهو يُناكفهم:

- لم يكن الأمر صعبًا يا أفندية.

ثم أطلق بغتة صرخة مدوية، لا تقل حِدة عن الصرخة التي أطلقتها «درية» هانم ما إن رأت الذئب الرمادي، انضم الجميع إليه داخل الكوخ، يستكشفون سبب صرخته، وهنا.. انتفضتْ قلوبهم فزعًا، على ضوء القمر، وفوق أرض الكوخ كان «أنيس» رئيس الخدم مُمدَّدًا، وغارقًا في بركة دم!

وقف «محفوظ» حاجزًا بينه وبينهم، صاح فيهم بنبرة حازمة لا تقبل النقاش، استمدها من دوره كضابط في البوليس:

- لا يقترب أحد منه، هذا مسرح جريمة الآن!

ارتدَّ الجميع خطوة إلى الخلف، يلعنون اليوم الذي خطَتْ فيه أقدامهم داخل هذا القصر الملعون. وحده «محفوظ» كان قلبه يتراقص حماسة بنجاح خطته حتى الآن، ما عليه إلا أن يدفعهم لاستنتاج لا يقبل الشك، أن «عادل» مجرم أثيم، فيلقون به خارج القصر، فالذئب لا يأكل من الغنم إلا الشاردة!

لو استمع إليه «البرنس» منذ البداية لما اضطر إلى رسم تلك الخطة، ولألقى به بنفسه خارج القصر، لكن البرنس جبان ابن جبان؛ يخشى التعرض لـ «عادل» وإثارة غضبه، فيهاجم «عادل» البرنس ويقضي عليه، بإخبار الأحفاد عن الحكايات القديمة المدفونة في ذكريات أهل العزبة عن الذل والدم.. عن لعنة الظلم؛ فيُغادرون القصر واحد بعد آخر، والوقت حرج كثيرًا بالنسبة للبرنس، لا يرغب في إثارة الشبهات حوله؛ حتى يتمكن من الحصول على المفتاح.

لكن «محفوظ» لا صبر له على ذلك، عليه أن يتخلص من «عادل» الذي تثير رؤيته جحافل الغيظ في نفسه، يكرهه بشكل فطري، وكأنه جُبِل على كرهه، يكره ثقته بنفسه.. إباءه.. عزته.. قدرته على ترويض الذئاب. كل ذلك دفع الباشا إلى النظر إليه بانبهار كبير، انبهار أغاظ «محفوظ» كثيرًا، فهو حفيد الباشا والأولى باهتمامه ومشاعره. يعرف أنه يتصرف أحيانًا كطفل كبير، لكن الذنب ليس ذنبه، بل ذنب الباشا الذي حرمه من طفولة يستحقها في ربوع قصره، وسيادة على عزبته.

أفاق على صوت «فؤاد» وهو يقبض بيديه على الفيش الضائع ويقول:

- ابن الأبالسة، الحارس هو الذي سرق الفيش من غرفتي! جيد جدًا، لم يعد الأمر بحاجة إلا إلى دفعة بسيطة.

قال «محفوظ»:

- بالمناسبة لم أرغب في إزعاجكم، لكن هناك ما يجب أن أخبركم به.

تطلعتْ إليه العيون في وجل، فأردف:

- ظهرًا رأيتُ الحارس يغادر القصر بسيارة الباشا بشكل مُريب، أظن أنه يفر من شيء ما.

لامته «درية» هانم بحدة:

- ولماذا لم تخبرنا في وقتها؟

- لم أفكر كثيرًا، ظننته يُحضر بعض الحاجيات وسيعود، لكن من الواضح أنني كنتُ مُخطئًا.

وكان كاذبًا في ذلك، رأى أولًا الفتاة الريفية تُغادر القصر، وبعدها بوقتٍ ليس بالكثير تبعها «عادل» بسيارة الباشا، وقتها قرر أن لُعبة الخنق وتمزيق الثياب يجب أن تنتقل إلى مرحلة أعلى.. مرحلة الضربة القاضية.

سارا بمحاذاة الترعة، في طريقهما إلى الجسر الخشبي، حيث تنام شجرة تمر حنة، يا لها من ليلة غريبة! بدأت بكونها ابنة الغجرية المجرمة، وانتهت بكونها حفيدة للباشا، أصبحتْ «هانم» كما أرادتْ، لكن لماذا لا تشعر بالسعادة إذن؟ براءتها من تُهمة قتل العمدة أسعدتها أكثر من علمها بحقيقة نسبها.

معرفة نسبها للباشا لا يبث الدفء في جسدها، لا يرسم بسمة على وجهها، لم تناده «سِيدي» كما يُنادي أطفال القرية أجدادهم، لم يمسك بيدها الصغيرة ويشتري لها حلوى «نبوت الخفير»، لم يحملها فوق ظهره ويجري بها لتضحك، لم يشتر لها فستانًا تتباهى به بين قريناتها، لم يعطها قرش صاغ عيدية أول يوم العيد، لم يُشاركها صحنًا واحدًا.. ولا حديثًا واحدًا.. ولا عناقًا واحدًا!

معرفتها بأنها حفيدته لا يملأ تلك الفراغات الناقصة من مشاعرها وذكرياتها، هل يملأها المال إذن؟ القصر.. والثروة التي تحدّث عنها «عادل»؟ هل يكفي مال قارون ليملأ تلك الفراغات؟

رانتْ ببصرها إليه، طلبت منه مرتين أن يتركها ويعود إلى مصر، لكنه أصر بحزم على انتظارها، والعودة معها، قالها بنبرة حازمة لا تقبل الاعتراض، تظاهرتْ بالضيق، لكنها لا تنكر أن ذلك أعجبها في قرارة نفسها. قالت لتُبدد الصمت:

- اسمك «عادل» إذن.

- هل لديكِ مانع؟

قالها بهدوء استفزها، انفعلتْ:

- لماذا تسخر مني دائمًا؟

- لا أسخر منكِ.

استكملتْ سيرها، واستدعتْ الصمت ليحلّ بينهما مرة أخرى. يعرف أنه يقسو عليها أحيانًا، لكنه لا يرى طريقة أخرى ليستفزها، يحتاج إلى استفزازها ليُخرج ما بداخلها، حلوه ومُره، يحتاج إليها لتكون في صفه، ليست هي وحدها، بل كل الأحفاد، لكنه لم يتمكن من الاقتراب من أي

منهم كما تقرّب إليها، لم ير في أحدهم ما رآه فيها؛ فـ «درية» هانم امرأة لا تفكر إلا في مصلحتها، يستحيل أن يتخذ منها قوة يشد بها عضده، و«شحاتة» رجل لا يعرف من اللغات إلا قبضة يده وركلة قدمه، يمضي وقته على قهوة «الديوك»، هوايته المفضلة مشاهدة شجار الديوك ومُهارشتها، يتناقش ويحتد ويتسابب مع من يشاركونه تلك الهواية. و«حسين» رجل ضعيف المبدأ؛ هكذا تنتهي المعارك قبل أن تبدأ!

أما «فؤاد» فرغم أنه أكثرهم علمًا وثقافة إلا أنه من نوع يكرهه من «الأفندية»، ذاك النوع الذي تُحَل مشاكله بحفلات التنس المُنعقدة في السفارة، والكتب رخيصة الثمن على الأرصفة، يُساير هذا وذاك، لا يُمانع إن أمضَى بداية سهرته في مَقرأة أو حلقة ذِكر، وآخرها في خمَّارة، أو على قهوة «القزاز» في شارع «الموسكي» يتفرَّج على النساء المحجبات بالبراقع البيضاء والسوداء المخرقة، التي تعلوها قصبات ذهبية لامعة، أو على مقهى «النيل» حيث يجلس غواة اليانصيب، والرهان على السباق، ولُعباء النرد بالرهان عملًا بقاعدة يضعها بعض «الأفندية» لأنفسهم: ساعة لقلبك وساعة لربك!

بعكس «عادل» الذي ينتمي روحًا إلى جيل الأفندية الجُدد، المشاغبين في الثلاثينات، والثائرين في الأربعينات، الذين يتهمون من سبقوهم بالتقليد والتخلف والسلبية، مُتغنِّين بالبيت الشعري: «وما نيل المطالبِ بالتمني، ولكن تُؤخَذُ الدُنيا غِلابًا»[١]، يرون أن منهجهم هو الوحيد القادر على صقل وتهذيب الريف وحواري المدينة الواقعة بين براثن التخلُّف. جميعهم معجونون بحِرص المصاروة، وبعضهم معجون بالفهلوة، لكن «حُرة» يراها مختلفة عنهم، لها رائحة بِكر.. بسيطة.. معجونة بالطين..

(١) من قصيدة للشاعر أحمد شوقي.

والمروج الخضراء.. ورائحة الخبز.. والهواء النقي.. وصوت الديوك ساعة الفجرية.

سذاجتها جعلتها الأقرب إلى الفطرة، لا يحتاج سوى مخاطبة وجدانها لتؤمن بقضيته، حتى أنه يظن أنه نجح في ذلك. ليست فتاة جشعة كما ظنها في البداية، لم ترغب في القصر من أجل المال، بل لتنقذ نفسها من السجن كما أخبرته منذ قليل.

لا يعرف هل السر في جمال قريتها أم هدوئها، لكنه يشعر براحة كبيرة لم يحس بها منذ وقت طويل، أرادتْ منه المغادرة، على أن تلحق به مع أبيها في الصباح، لم يودَّ تركها بغير حماية، مَن يَضمرون سلامة النيِّة مُعرَّضون للأذى أكثر من غيرهم. لكن هل هذا هو السبب الوحيد؟ ألا يُخادع نفسه بوضوح؟ ما ضَرَّه إن كانت الفتاة في صفه أم في صف غيره، ماذا تستطيع أن تفعل على أي حال؟ عليه أن يعترف أنه يُجاهِد كي يصنع لها مكانًا بجواره، مكانًا لا تستطيع هي الاستغناء عنه.

وصلا إلى الجسر الخشبي، لفّت ذراعيها حول شجرة تمر حنة وعانقتها، تحسَّستْ فروعها كمن يشتاق إلى رفيق فارقه منذ وقت طويل. لم تنتبه لنظراته المُتأثِّرة وهو يرنو إليها باهتمام، هذه الفتاة المشاكسة جيَّاشة العاطفة أكثر مما ظن.

جلستْ فوق الجسر.

قال:

- لن أجلس، سأذهب.

اغتمَّتْ على الفور، سيعود إلى مصر إذن، ملَّ رفقتها، ومَن لا يملَّها؟ رفيقة فاشلة، تُكثِر من الصمت، ولا تُتقِن فن الحديث، اعتادتْ الحياة وحيدة، لا تُفضي ما بداخلها إلا إلى جدارٍ أصَم.

رحل على الفور، بخطوات واسعة، راقبته بأعين ذابلة، لم يُكلِّف نفسه سؤالها إن كانت تملك مالًا يكفي لعودتها مع أبيها. في الواقع هي لا تملك مالًا على الإطلاق، وعندما طلبت منه أن يتركها ويرحل قالتها؛ كي يرفض؛ كي تسمع أنه يرغب في انتظارها؛ كي تشعر أنها ليستْ حملًا مُجبرٌ على تحمله.

شعرتْ بالهوان، والضعف، وقلة الحيلة، تسرَّبتْ عبراتها فوق وجنتيها بصمت، دون نحيب، دون ضجيج. برد الليلة قارس، لكن البرد الذي انبعث بداخلها أشرس، تقوقعتْ فوق الجسر، كجنين لم يُفارق مشيمته. ثقُلَ همَّها، هل يتَّسع صدر الكون ليضمَّ رأسها؟

- هل نمتِ؟

لا تعرف كم مضى عليها من الوقت نائمة، ربما نصف ساعة أو يزيد، جلس جوارها دون أن ينتبه لذهولها، لم يفطن إلى فرحتها إلا عندما همستْ بحبور:

- لم ترحل.. لم تعد إلى القصر!

ببساطة قال:

- بالطبع لم أرحل، قلتُ سأنتظركِ.

أراها سبب ذهابه، أحضر قُلَّة ماء فخارية، وطعامًا.

قال:

- أيقظتُ أحد الناس الطيبين وطلبتُ منه طعامًا وماءً مقابل مال، قال إن ما بقى من طعام العشاء ليس بكثير، فاعذريني لم آتِ بأكثر من ذلك.

وكان ما أحضره من جُبن وجرجير ولُفت وفتات خبز أكثر مما اعتادتْ تناوله كوجبة عشاء، ولأنها لم تأكل شيئًا منذ الصباح طفقتْ تلتهم الطعام بسرعة، دون أن تجور على نصيب رفيقها منه. قالت والطعام ملء فمها:

- أحب اللفت المخلل، عندما كنتُ في بيت العمدة كانت الست «حلاوة» تُخبئ البرطمان تحت فراشها بجوار «زلعة المش»، ولا تُخرِج منه إلا بضع وحدات للعمدة على العشاء، اعتدتُ سرقة واحدة قبل تقديم الطعام له.

توقف عن تناول طعامه، سألها بضيق وقد أزعجه حديثها بأريحية عن ذنب كالسرقة:

- ولماذا لم تشترِه بدلًا من سرقته؟

- لأنني كنتُ أعمل مقابل فضلات الطعام لا مقابل المال، لم يكن معي مال للشراء، ومِن جمع قمامة أهل البلد كنتُ أجني مالًا قليلًا من العمدة، وأبي يحب حلاوة «نبوت الخفير» فكنتُ أمنحه المال ليشتريها.

ما وَخَز قلبه أنها كانت تحكي ببساطة شديدة، بساطة من اعتادتْ حياة كتلك حتى لم تعد تثير استياءها. لامَ نفسه أن تحدث بحدة عن سرقتها لقطعة لِفت اشتهتها، دون أن يدرك أسبابها الخفية.

لم تثر بحديثها شفقته، بل شيئًا آخر، شعر في قلبه بضربات كضربات فؤوس الفلاحين للأرض استعدادًا لبذر البذور، أرضًا خصبة قابلة للإنبات، كلما عرفها أكثر نبتتْ البذور بداخله واستطالتْ.

أرضها أيضًا كانت قابلة للإنبات، مُمهدة بالحَب والسماد، وماء غزير تجود به السماء من فوقها، يُنبت الحَب بأرضها شيئًا فشيئًا.

- لا تتحدثي وبفمكِ طعام.

استكمل طعامه دون أن يدرك أثر تلك العبارة البسيطة في نفسها، كانت طفلة مُشاكسة سيئة السلوك؛ لأنها لم تجد أحدًا يُعلِّمها كيف تُحسن التصرف بأدب. افتقدتْ الأب الآمر الناهي، الحريص عليها، القائم بأمرها، ودون أن يُدرك «عادل» أثارَ بأوامره نقطة ضعفها.

شردتْ بعيدًا، غاصت في أعماق نفسها، الآن.. ربما الآن فحسب تفهم نفسها بوضوح أكبر، تفهم لماذا انفضَّتْ عن «مرزوق» سريعًا، وكيف تغلبَتْ على صدمة التخلي بسهولة؛ لأنه لم يستطع أن يمس نقطة ضعفها، لم يكن لها أبًا قبل حبيب، لم تكن بحاجة إلى حبيب رومانسي يُسمعها حلو الكلام، بل كانت تتوق إلى أبٍ تحتمي بجناحيه من قسوة الأيام!

***

نقلا مجلسهما من الجسر إلى أسفل شجرة تمر حنة، جمع «عادل» أعواد الشجر، وما طالته يداه من حطب، أشعل النيران بحك الأحجار ببعضها، لم تكن قد رأته وهو يُشعل النار من قبل، انبهرتْ كيف تولَّدتْ شرارات النار من الحجر! أطالتْ الصمت الذي تتقنه، حتى قطعه هو، دون أن ينظر نحوها:

- أنتِ.. وابن العمدة، هل كان بينكما شيئًا؟

أفزعها سؤاله، ثم فطنتْ إلى أن نظرات «مرزوق» الحاقدة قد أثارتْ انتباهه، أو أنه سمع أحدهم يرميها بهذه التُّهمة عندما التفوا حولها يبغون نهشه، أو أن لديه ما يكفي من الفطنة والحِنكة ليدرك ذلك.

- ظننته رجلًا.

بإمكانها أن تُنكر، بل وتنهره على سوء ظنه، لكنها أرادتْ التحرر من هذا الحِمل، أرادتْ أن تكون هي، بحسناتها وسيئاتها، لا تريد العودة إلى دورها في الحفلة التنكرية، لا تريد أقنعة. استرق النظر إليها، كره أن يكون ابن العمدة قد لمسها ولو بنظرات عينيه، تظاهر بانشغاله بتغذية النيران، فقط كي يخفي شرارة تلسع روحه:

- هل أحببتِه؟

لو سألها قبل خمسة أيام لأجابتْ دون تفكير: «نعم»، فقط أدركَتْ اليوم أن «مرزوق» لم يَفض لقلبها ختمه!

- تَوهَّمتُ.

شعرتْ بتوتره، وبكلماتٍ يحجم عن قولها، وعندما أفلتَ زمام الكلمات انطلق السؤال بحدة:

- هل...؟

سؤال كامل البناء، جملة تامة وإن أنكر ذلك عُلماء العربية، سؤال بديهي بين فتاة «تَوهَّمَتْ»، ومخلوق «ظنَّته رجلًا». جاءتْ إجابتها قاطعة:

- لا.

أحسَّتْ باسترخائه.

وبعد لحظات مدَّ يده بلفافة ورقية:

- خذي هذا.

هل يُكافئها على «لا» القاطعة؟!

فتحتها لتجد جلبابًا طويلًا، أزرق اللون! استطرد بشيء من الخجل وهو يُشير إلى بطانية الخيش فوق كتفها:

- تمزّق ثوبكِ، فكرتُ أنكِ تحتاجينه.

اهتز صوتها وهي تسأله من أين أتى بها، فأخبرها:

- قالت لي زوجة الرجل الذي اشتريتُ منه فائض عشائه إنها تبيع الجلاليب، عرضتْ عليّ بعضهم فاخترتُ هذه.

تفاقَم خجله، قال وكأنه يفشي سِرًّا:

- لاحظتُ أنكِ تُحبين الأزرق.

قلبها يطرق صدرها بجنون، توشك حمامته على كسر القضبان العظمية، ضغطتْ على قفصها بالجلباب الأزرق، تمنعها من الطيران.. نهضتْ.. ابتعدتْ؛ رنَا إليها متسائلًا، سبَحَتْ نظراتها في عينيه على ضوء القمر، لم يعد لونها مخيفًا، أضحى مألوفًا إلى حد خطير يثير فيها عواصف وأعاصير. أعلنتْ بارتباك أنها سترتدي الجلباب وسط أجِمَّة القصب في أرض «الباز».

غابت طويلًا، وعندما عادت رَنَتْ إلى الأزرق فوق جسدها، والأزرق في عينيه كموجات تروح وتغدو؛ هتف قلبها الذي فُضَّ ختمه بفرحة طاغية: «وفَّيتُ بوعد السيدة اليونانية، ارتديتُ الأزرق أمام البحر!».

حملوا مشاعل تتصاعد منها النيران، يستنيرون بها في طريقهم وسط الغابة الموحشة، يسيرون في كُتلة واحدة، كل منهم يحمي للآخَر ظهره؛ بحثًا عن الفتاة الريفية الضائعة. يُحركهم خوف حقيقي عليها، مُتناسين الوصية وقوانينها، والسباق المحموم للفوز بالقصر. ظنوا أنها دخلتْ الغابة لسببٍ ما، وتاهتْ فيها، أو وقعتْ في إحدى المصائد التي ملأ بها الباشا غابته لاصطياد اللصوص!

أو -وهذا الأسوء- هاجمها أحد الذئاب، لعلها تنزف منذ الصباح في مكان ما بالغابة دون أن يدري بأمرها أحد. حمل «محفوظ» طبنجته؛ لردع أي ذئب تُسوّل له نفسه مُهاجمتهم، ثم ساروا لأكثر من ساعة في دوائر مختلفة الأقطار مركزها القصر. لا أثر يدل أن الفتاة مرَّتْ من هذا المكان، عادوا إلى القصر خائبين، يكتِّفهم خوف كبير. ألقى «محفوظ» بآخر حجر ليُحدِث المزيد من الدوامات المُقلقة:

- أخشى أن يكون الحارس المجرم قد فعل لها شيئًا.

ازدادتْ القلوب خوفًا على خوف، قلة الحيلة أصابتهم جميعًا بالقهر، لم يجدوا سوى حل واحد، بادرَ به «فؤاد»:

- يجب أن يتدخل البوليس في ذلك، لدينا جريمة قتل، وجريمة أخرى على وشك الحدوث.

سارع «محفوظ» بأمرهم بالتزام أماكنهم حتى يذهب ويعود بقوة بوليس من أجل معاينة مسرح الجريمة، وإبلاغ الكمائن على الطريق بمواصفات الفتاة والحارس المجرم. طمأنتهم «درية» هانم وهي تفتح علبة السجائر الثانية خلال ساعات قليلة:

- لا تقلقوا، لن نسمح للبرنس بالحصول على القصر، سنطعن في الوصية، بإمكاننا ذلك.

نالت الفكرة استحسان الجميع، هتف «شحاتة»:

- عفارِم عليكِ، نعم، نطعن في الوصية، تسلم أفكاركِ النيرة يا بنت خالتي.

ثم قال لـ «محفوظ»:

- اذهب أنتَ يا حضرة الضابط على بركة الله.

ثم استطرد بغيظ شديد:

- والله لو وقع ذاك الحارس ابن الأبالسة في يدي لأصنع منه قُرص عِجَّة يكفي لإشباع حارة.

رفضوا الذهاب إلى غرفهم للنوم، فضَّلوا النوم في مكان واحد، جمعوا الأغطية في غرفة الصالون، أزاحوا المقاعد وفرشوها أرضًا. غدًا هو اليوم الأخير حسب شروط الوصية، شعر الجميع لأسباب مختلفة أن هذا اليوم لن يمر على خير!

(((اليوم السادس)))

غجريـــــــــة وخدتنـــــــــي في العشـق حبسـتني

وفي لحظة وسابتني سحرتني ويا ريتني أموت وأنشال

يـــــا حـــــــرة يا ضنايـــــــا يا بـدر في سمايـــــا

م الفقـر كـدا كفايـة مـا أنـا معايـا دهـب خلخـال.

أشرقتْ الشمس تُغازل الأرض بنورها. رأته قادمًا من بعيد، يسير على غير هدى، يترنَّح كالسُّكارَى، أسكره ألم الفراق حتى فقد اتزانه أثناء السير، يجر خلفه شوالًا من الخيش بمؤخرته ثقب بحجم القمر، كلما جمع فيه ما يلفتُ نظره من أشياء غريبة فارقته سريعًا، كما فارقه الأهل والأصحاب والأحباب، هروَلتْ إليه تناديه بالكلمة التي اشتاقتْ طعمها: «آبا».

لم يصدق عينيه، ظن أنهما تُخادعانه، ولمَّا تأكد من أنها حقيقة ماثلة أمامه كالبدر في جلباب أزرق؛ هروَل إليها بدوره، بصوت بحَّهُ البكاء: «حُرة». لم يشعر بمسمار وطأه بقدمه العارية، لم ينغزه الألم، ولم يحس بالدماء الدافئة تسيل عنه، الشعور الوحيد الذي راوده أنه ميت يعود إلى الحياة بمعجزة ربانية.

عانقها كمُعجزة تحققتْ، بدفء.. ولهفة.. وفرحة.. وشدة.. وحنين.. واشتياق.. أضاق عليها خناق ذراعيه، ودَّ لو شقَّ عن صدره وخبأها بداخله؛ يمنعها من مفارقته مرة أخرى.

سكبَتْ فوق كتفه كل العبرات التي حبستها من قبل، حطَّمَتْ قضبان زنزانتها وعاتبتها: «أظننت أن بإمكانك قتلي.. خنقي.. وأدي!؟ نحن الدمعات قطرات ماكرة، كلما حُبِسنا كَسرنا القضبان وعُدنا بعنادٍ أكبر، وشدةٍ أعظم».

لم تفض الكلمات عناقهما، لم يكونا بحاجة إليها؛ رُبَّ ضمَّة خيرٌ من ألفِ كلمة!

منحهما «عادل» كل الوقت الذي يحتاجانه لغسل حسرة الفراق على قلبيهما، والتنعُّم بلحظات اللقاء، ثم أقبل عليهما يُعاون الرجل المسكين على السير عندما لاحظ عرجه. أشارَتْ الشمس إلى مواضع الدماء على الأرض، هتفت «حورية» بلوعة:

- آبا.. أنتَ تنزف!

أجلساه تحت شجرة تمر حنة، بحث «عادل» عن قماش نظيف فلم يجد، فأخبرها أنه سيُحضره من السيارة، وكان بينه والسيارة مسافة كبيرة، قطعها سيرًا ذهابًا وإيابًا، ثم عاد بحقيبة إسعافات أولية يُبقيها الباشا في سيارته باستمرار.

عاوَن الرجل المسكين على السير حتى الترعة، ثم جثا على ركبتيه يغسل له قدمه المصابة، تحرَّجتْ «حورية» من فعلته، أرادتْ أن تكفه مؤنة

هذا العمل لكنه لم يأبه لاعتراضها، أنهَى مُهمته، ثم عاونه مرة أخرى على الجلوس تحت الشجرة، وضمَّد له جُرح قدمه.

أخذ أبوها يُراقبه بانتباه شديد، يُحاول تذكُّر من يكون، وهل يجب عليه الخوف منه أم الاطمئنان إليه. ربَتتْ «حورية» كتفه، قبَّلتْ رأسه، ثم قالت:

- إنه أفندي «جَدَع»، لا تخف منه.

منحها «عادل» بسمة رضا عن وصفها إياه بـ «جَدَع». قالت لتواري ارتباكها:

- يحتاج إلى الاغتسال، لا يُمكن أن نصحبه إلى القصر هكذا.

وكان هذا نفس ما فكَّر به «عادل»، تفوح من الرجل رائحة كريهة للغاية، جسده بحاجة إلى الدعك بحجرٍ حتى تزول منه الرائحة، فضلًا عن القَشَف.

قال ببساطة:

- لا مشكلة، الرجل الطيب الذي اشتريتُ منه الطعام سأمنحه مالًا مُقابل أن يسمح لنا باستخدام حمَّامه.

ابتسمتْ تقول بتلقائية تفوح بالانبهار:

- لديكَ لكل مشكلة حل، معكَ تختفي المُشكلات بمجرد ذِكرها، أنتَ تجعل الحياة أكثر سهولة.

ضحك قلبه:

- لستُ رجلًا خارقًا.

- لو كنتُ مكانكَ لما فكرتُ في هذا الحل، ولكان الحل الأقرب إلى عقلي أن أحممه في ماء الترعة.

- في هذا البرد؟ أنتِ مجنونة!

جاء دور قلبها ليضحك. لو أنها لا تعود إلى القصر، ولا إلى المجهول الذي ينتظرها هناك، لو تبقى هنا.. في قريتها.. مع أبيها.. ومعه.

أفاقتْ نفسها، وأخذَتْ تُسبِّح بكلمات الخالة «بهانة»: «كل برغوث على قدر دمه يا بنت الغجرية».

ثم توقفتْ بغتة عن التسبيح، لم تعد ابنة الغجرية، بل حفيدة الباشا، ألا يغير ذلك شيئًا؟ حاورتها نفسها بتهكُّم: «أي شيء يُغيِّره ذلك؟ ما زلتِ ابنة المجنون الجاهلة، لم تجلسي في كُتَّاب، ولم ترتدي مريول المدرسة، أما هو أفندي مهندس للري، أليس هذا ما نَصبتِ المحاكم لأمك بسببه؟! ألم تُعلقي حبال المشنقة حول ذِكراها لأنها أفسدتْ حياة أبيكِ؟!

ألم تلوميها لأنها لم تأخذ ما يليق بها، وتطلَّعتْ إلى السماء تخطف إحدى نجومها؟!

لماذا تفعلين الآن الشيء ذاته؟!

لماذا تمدِّين قلبكِ لسرقة إحدى النجمات؟!

كُفِّي أذى قلبكِ عنه، وانظري إلى الأرض، هذا مقامكِ يا ابنة أمكِ!

لاحظَ ضيقها المُفاجئ، بعد أن كانت في أوج بهجتها وحماستها، ما الذي حدث فجأة وبدَّل مزاجها على هذا النحو؟ لو سألها لَما أجابته بصدقٍ، ما تزال غير واثقة به بالقدر الكافي، علَّها تشعر نحوه بالامتنان..

الامتنان فحسب، لا أكثر من ذلك، رغم أنه في لحظة ما شعر أنهما على خطوط الطول، ودوائر العرض نفسها، التقيا عند نقطة واحدة لا تتفرَّع الطُرق عندها.. أيكون واهمًا؟

أصرَّتْ على أن تُحمِّم أباها بنفسها، رفضَتْ أن يتكشَّف عليه وهو الغريب عنه بينما ابنته حاضرة، لاحظَ كيف تُرفق بأبيها، وتُحسن إليه، وتحنو عليه. اشترى له جلبابًا جديدًا، خرج الرجل من الحمام وكأنه شخص آخر غير الذي دخله؛ نظَّفته، وهذَّبَتْ شعره، وقصَّتْ أظافره، اهتمتْ به كطفل صغير ينبذه الجميع، حتى اختلط عليه آبنته هي أم أمه؟ قشرتها صلبة، تخفي ما بداخلها من ضعف، وهزال، وآلام.. مثله تمامًا، كم ذاقَتْ من صنوف الحياة حتى أضحَتْ قشرتها قاسية غير قابلة للكسر! قسوة الحياة وأدرانها تُغيِّر خصائص اللُب لا القشرة فحسب، رغم ذلك ما زالتْ محتفظة بخصال فطرية عذبة، والأروع أنها لا تُدرك الجمال الكامن فيها، هكذا هو الجمال دومًا لو أدركَه صاحبه لتبدَّد بالعجب. يبدو أن صراعها مع أفكارها قد أفرزَ شيئًا ما، ها هي تدنو منه لتبوح به، انتظر بصبرٍ أن تُبارده بالحديث، قالت بجديتها التي تُميِّزها:

- أريد أن أخبركَ بقراري.

لم يفهم أي قرار كانت تُصارع عقلها من أجله.

قالتْ بالجدية ذاتها، وإن شابَها كثير من الوِد:

- سأساعدكَ على رد المَظالم إلى أهلها.

اقتحمته!

سددتْ ضربة مُباشرة إلى حصنه، اقتحمتْ صفوف معتقداته ومبادئه وأحلامه، ونَصبَتْ نفسها جُنديًا في حِزبه، رفعتْ رايته في معركة الحياة، ولن تقبَل إلا بنصره.

رأتْ في زُرقة عينيه ماء! ماء مالح يحرقهما، يتجمع ببطء حتى شكَّل موجة عالية، ظنَّتْ لفرط فرحته أنه أحد هؤلاء المظلومين، وفرح لأن حقوقه ستُرَدُّ مع غيره. سألته صراحة، فمنحها جوابًا غامضًا أثار خيالاتها:

- لا، أنا مثلكِ تمامًا.. سأتخلَّى من أجلهم!

ثم تهدَّج صوته وهو يُفصِح عن بعض مما واراه بداخله:

- ذاك اليوم عند الكوخ، عندما سقط الشال عن كتفيكِ سمعتُ صوت جروحكِ، قلتُ لنفسي إنسانة مجروحة بهذا الشكل حتمًا ستسمع آلام الآخرين.

أربَكَ نبضها، واستجلَبَ حنانها، خفق قلبها الذي فُضَّ ختمه بشكل مختلف عن خفقاته وقت أن كان مختومًا، لم تعد الحمامة قانعة بالبقاء داخله، كُسِر القفص ولا سبيل لإقناعها أن قضبان الأسْر أجمل.

جثا فوق ركبتيه يُلبس أباها خفًا اشتراه من أجله، ليحمي به قدمه المجروحة، لاح بخاطره «قانون مكافحة الحُفاة» الذي فعَّله «حسين سري باشا» بجمع التبرعات من أجل صناعة «شباشب» مُدعمة للفلاحين!

في حين أن مناطق تجمُّع الثروة والنُخبة بالقاهرة توصَف كقطعة من «باريس» في جمالها وفخامتها، مجتمع أوروبي صغير لا يجتازه إلا القليل من المصريين، يتحدثون الفرنسية ويرتدون ثيابًا باهظة الأثمان، مناطق شرهة يُغذِّيها بؤس الفقراء، في الوقت ذاته يعيش الفلاح بعيدًا عن «البنادر» في فقر مدقع، يتخبَّط بين سندان البطالة ومطرقة الأمية، إلى درجة احتياجه إلى مشروع قومي لمكافحة «الحُفاة» كي يتمكن من الحصول على «الشبشب» بسعر مُخفَّض!

تعرف «حورية» كره أبيها للمداسات، لكن ويا للغرابة ترك «عادل» يُلبسه الخُف راضيًا. وفجأة تجمَّدتْ يد «عادل» عند قدم الرجل، فطنت «حورية» إلى موضع نظره، فقالت بخجل كبير:

- إنه خُلخال أمي، يرتديه دائمًا، لم أستطع قطّ إقناعه بخلعه.

تحسس «عادل» الخلخال مبهورًا.. مشدوهًا، بينما أنفاسه تتسارع بشدة، حاول أن يخلع عن الرجل الخلخال فأبَى. تطلَّع إلى «حورية» يُعلن لها عن المفاجأة التي حبسَتْ أنفاسها:

- المفتاح.. هذا هو المفتاح!

أقبَلَتْ «حورية» تجثو فوق ركبتيها، تتحسس الخلخال بدورها، مبهورة، تتسارع طرقات قلبها على أبواب صدرها. تسأله مشدوهة:

- كيف عرفتَ أنه المفتاح؟!

تجاهل سؤالها، سألها بقلق وكأنما يخشى رسوبها في الاختبار الحقيقي:

- ما زلتِ عند رأيكِ، أليس كذلك؟ لن تقبلي ما ليس لكِ، لن تتراجعي.

أكَّدَتْ له دون ذرة شك تخامرها:

- لن أتراجع.

- حمدًا لله، سأخبركِ كل شيء إذن بعد عودتنا إلى القاهرة، صار من حقكِ أن تعرفي.

مسَّتها نظراته برقة، سارعتْ بالابتعاد عن أنظاره خجلًا، أخبرته أنها تحتاج إلى إحضار شيء من دارها. وفي الدار ارتدتْ «قمطتها» تلجم بها شعرها الغجري، ولفَّتْ طرحتها السوداء فوق رأسها، عادتْ بنفس الهيئة التي فارقتْ بها القرية، إلا من جلباب حريري بلون البحر.

فاجأته هيئتها، اتسعتْ ابتسامته:

- أستظهرين بهذا الشكل أمام أبناء خالاتكِ؟

قالتْ ما كان ينبغي عليها أن تفهمه منذ وقتٍ طويل:

- أنا حُرَّة!

من قلبها هتفت بها.. أنا حُرة.. أنا حُرة.. أنا حُرة، لن أسمح لأحد أن يسلبني اسمي.. حياتي.. هويتي!

رَنَا إليها بفرحة فلاح عثر للتو على أرض خصبة صالحة لبذر بذوره فيها، ولم يبق سوى أن يعلن ملكيته لهذه الأرض.

تحت بسمات الشمس البادية برقة من خلف شُرفات السُحُب كانت رحلة عودتهم، بعد أن أمضوا نصف النهار في القرية نومًا؛ لإزالة تعب ليلة مُضنية. هي وأبوها في دار «بهانة»، وهو عشتها.

على مشارف القرية طلبت منه التوقف، استرقتْ النظر إلى أبيها النائم في المقعد الخلفي، ثم توجَّهتْ صوب القبر المهجور.

جثَتْ على ركبتيها تتحسَّس التُراب وتتعرف عليه.. لونه.. ملمسه.. ترفع حفنة منه وتتشممها، ثم تُعيدها فوق الأرض، لا يحق لها أن تُنقص منه شيئًا. تلجلج لسانها وتخبَّط كيانها، رعشات خفيفة تجتاح جسدها، وتطوف بعينيها غمامة ثقيلة، ضاقتْ بحملها فانهمر المطر.

هل تقول «آسفة»؟

لا يكفي الأسف.

هل تشرح أخطاءها.. أعذارها؟

لا يكفي الكلام.

هل تبكي دمعًا.. دمًا؟

لا يكفي البكاء!

نادمة؟

وماذا يُفيد ذلك؟

هل يغسل الندم بصقاتها فوق القبر؟ هل يمحو سُبابها وخوضها في سيرتها مع من خاضوا؟ أيكون حُجة على جهلها بما مرَّتْ به أمها الغجرية في حياتها، بعد أن احترقتْ أمها يوم ولادتها، ونبذها أبوها الباشا؟ تُرى هل تربَّتْ في شارع.. في ملجأ؟ هل تبنَّتها امرأة قاسية أم تُركَتْ وحدها بين كلاب الطرقات تُقاسمهم الدفء، وتُقاتلهم على فُتات الطعام؟

هل أحبَّها أحد قبل أبيها؟ هل عطَفَ عليها غيره؟ أم كان طوق النجاة الأول والأخير؟ لهذا أحبته بهذا القدر وبقيت في قريته رغم الأذى، تصدَّقتْ لهم بعِرضها، قابلتْ الإساءة بالعفو، والقسوة بالصفح، إن كانت قد رأتْ في حياتها معه جنة، فكيف كانت نارها إذن؟

لم يقترب منها «عادل» رغم بكائها الهيستيري، يجب أن يتخلَّص كتفها من هذا العبء المحموم، ويتطهَّر قلبها من هذا الألم المسموم.

الصباح في القصر كان باهتًا، بالكاد تبادلوا الحديث معًا، تمتلئ قلوبهم غمًا فاض على كل شيء، القصر نفسه بدا كئيبًا، حتى تساءل كل منهم في داخله: «كيف رآه من قبل عظيمًا مُبهجًا؟!».

لا يعرف البيت حق المعرفة إلا أصحابه، هذا القصر لا يُورِّث إلا الهَم في القلوب. البيوت لها روح أصحابها، تختلط لبناتها بأنفاسهم فتحمل بعضًا من صفاتهم، هذا القصر ملعون، لبناته من هَم وملاسه من شؤم، ماذا فعل الباشا في حياته حتى يُخلِّف من ورائه قصرًا كالقبور؟!

أتت عربة إسعاف لحمل جثة رئيس الخدم، يتبعها معاونان لـ «محفوظ» في نقطة العزبة يقومون بما يقوم به البوليس عادة في مثل تلك الحوادث. لم يشعر أي منهم برغبة في متابعة خطوات عملهم فلزموا القصر، مما سهَّل على «محفوظ» عمله الذي لم يكن عملًا من الأساس، منح معاونيه «دخَّانهم» وانصرفا، بعد أن تظاهرا بأنهما يقوما بعمل بوليس حقيقي.

فالجثة التي ظنها الجميع جثة كانت حية تُرزَق، مُلطَّخة بدماء من المكياج! أليستْ الحياة في القاهرة حفلة تنكرية كبيرة؟!

لم يبق عليه سوى انتظار المتعوس «عادل»، سيتخلص منه، ويُمهِّد الطريق أمام الأعور يفعل بهم ما شاء، المهم أن يبر بوعده ويمنحه القصر.

إن لم يحدث ذلك.. سيحرق القصر!

«ظننته رجلًا».

هذا ما قالته عن ابن العمدة.

رسَى الدفء في قلبه مثل وتَد، تتراقص حوله مشاعر وليدة، عُمرها ساعات أو أيام، حَبلتْ بها أحلامه لسنوات عديدة، عن جميلة ليستْ كغيرها من الصبايا، لا تؤمن أن المُباح في الحُب كالمُباح في الحربِ، الحب شرفٌ كما الحرية، لا يفوز بهما إلا أشراف الرجال.

ولأنه فارس نبيل قاوَم رغبته في مس يدها، رغم أنها لا تبعد عنه إلا بضعة سنتيمترات، أناملها في مُتناول يده في دستور المسافات، وبعيدة كنجمة في دستور النُبلاء، وعندما استرق النظرات إلى وجهها النائم في سكينة بالمقعد المجاور بالسيارة؛ شعر أنه لص يتعدَّى على أرض لم يدعه إليها صاحبها.

توقفتْ السيارة بغتة، بعد أن أصدرَتْ صوتًا مزعجًا كان كافيًا لإيقاظها، على عكس أبيها الذي ظلَّ يغط في نوم عميق. فحص «عادل» موتور السيارة، رافقته «حُرة» تمد له يد المساعدة، رأته يُحاول إعادة تلك الكتل المعدنية إلى العمل مرة أخرى، عمل يناسبه تمامًا، وكأنه خُلِق لإصلاح الأعطال، وترميم التوالِف، وجبر الكسور.

رأته يتجنَّب مُلامسة جزء معدني ساخن، فعاودتها رغبتها القديمة، عندما كانت تُقرِّب يدها من الزيت المغلي، أو تجرح إصبعها بالسكين ثم تجري وترتمي في أحضان أبيها، لم تفلح جهودها في مقاومة تلك الرغبة، فلامسَتْ بأصابعها الجزء الساخن، ثم أبعدتها على الفور بعد أن تأوَّهَتْ بشدة.

أمسكَ بأصابعها يفحص موضع الحرق، يُسرع إلى الصندوق الخلفي للسيارة، يحضر قارورة مياه، يسكب نصفها فوق أصابعها. «عادل» الذي صبَّ تركيزه على التخفيف من آلامها بالماء والنفخ، لم ينتبه إلى بريق الفرح في عينيها المُتعطِّشتين للحنان، المتضوِّرتين جوعًا إلى الاهتمام، والدفء، والاحتواء. لم ينتبه إلى قسمات وجهها التي ترسم للمرة الأولى لوحة سريالية للشَبَع، صبغتْ وجنتيها بنَضارة حاولتْ سترها بأطراف طرحتها السوداء.

قَطفتْ عيناه ثمرة تُفاح من حديقة وجنتها اليُمنى، فيما كانت أثمار الحديقة اليُسرى، والجسر الوردي الواصل بينهما مُخبَّأين وراء الحُجُب، أزعجَ ذلك روح البُستاني بداخله، لكن الفارس النبيل ارتضَى أن يُمنَع من دخول أرضٍ لم يفتحها بعد.

- أتعرفين.. الخجل عُملة نادرة تُضيِّعه أغلب فتيات اليوم ظنًا منهن أنه وصمَة جهل، لا تتغيري أبدًا.. اتفقنا؟

حازَتْ على أكثر من الاهتمام الذي اشتهته، ميَّزها على فتيات البندَر، قال: «عُملة نادرة»، شيء ثمين.. غالٍ.. نفيس، لكن العبوس غزا وجهها بغتة، هل هوايته جمع العُملات النادرة مثلما يهوى البعض جمع الطوابع القديمة؟

ما يزال يرى في عينيها أطياف خوف، لم تمنحه كامل ثقتها، لا يلومها؛ «الثقة» كنز مُخبأ في مغارة الصدر، لا يكفي أن يُنادي «افتح يا سمسم» فتنفتح، لبوابتها مفتاح ثمين من مادة نادرة اسمها «الصدق»، وهو لم يُصارحها بكل شيء بعد.

الليلة.. سيُولِج المفتاح في القِفل، ستنفتح أمامه أبواب المغارة، وستكون «ثقتها» أكبر غَنائِمه.

انطلَقَتْ السيارة تلتهم طريق العودة، ليُسري عنها أخذ يُحدِّثها عن ذكرياته في المدرسة؛ حصص الفلاحة، والرسم، والأشغال، والهدايات، عن لعبه مع زملائه، وأكلهم من شجرة التوت الأبيض طيب المذاق، ومسابقاتهم في الإمساك بأكبر قدر من حشرة «فرقع لوز» و«فرس النبي» الأخضر.

عندما ودَّعتْ الشمسُ السماءَ بآخر كفوفها، أوقفَ «عادل» السيارة خارج عزبة «العبيط»، لم يود دخول العزبة بسيارة الباشا كي لا يلفتْ الأنظار لـ «حُرة» وأبيها.

بادرته تقول بارتباك:

- هل أنت واثق أن أبيكَ وأمكَ لن يُضايقهم وجود أبي بدارهم؟ أنتَ ترى حاله، لا أظن أن أحدًا سيتحمله غيري.

أكَّدَ بثقة:

- لا تقلقي، سيعرف أبي كيف يتفاهم معه، ولن تُمانع أمي من استضافته اليوم، اليوم بالذات يجب ألا يكون أبيكِ في القصر، لا نعلم ما قد يحدث، ولا نريد له أن يكون وسط هذا الجو المشحون.

أخافتها كلماته قليلًا، تعلم أنه ينوي التحدث مع أبناء خالاتها اليوم، وأن الحديث معهم لن يكن سهلًا على الإطلاق، لا تظن أن أبناء خالاتها سيبادرون مثلها بالتخلي عن جزء من ميراثهم، لا إثبات سوى كلماته على أنه من حق أناس آخرين. يملكان الآن المفتاح الذي سيفتح باب الثروة، رغم ذلك ما تزال تجهل طبيعة هذه الثروة.

لن تتركه يُحارب وحده في تلك المعركة، على الأقل ليكن سعيها في إنصاف هؤلاء المظلومين تكفيرًا عن ظلمٍ بغيض أوقعته بأقرب الناس إليها.

همستْ، وفي عينيها تترقرق عبرات الندم: «من أجلكِ يا أمي».

سمحة الوجه، بشوشة الطلّة كانت أمه، عانقتْ ابنها بشوقٍ كبير، أطال الغياب أكثر من قدرة أشواقها على الاحتمال، واستقبلتها بترحاب مَن تعرفها منذ الأزَل، لمجرد أن قال لها «عادل»:

- «حُرة».. واحدة من أحفاد الباشا، أبوها سيكون ضيفنا اليوم.

عانقتها، بعفوية وحنان فلاحة ريفية، صدرها يتسع لكل الأبناء الذين لم تحملهم بطنها. ذكَّرتها رائحتها بالخالة «بهانة»؛ تركتْ لذراعيها حُرية ضمها، وجمع شتاتها.

لكن ما رأته بالداخل صدمها، ونزل على عقلها كالصاعقة، أبوه رجل قعيد لا تستقيم له قامة. لاحت بخاطرها كلمات الخالة «براخا» التي قابلتها في العزبة بالأمس قبل سفرها، حين أخبرتها أن عائلة الشيخ «شلش» سعتْ لانتقام من نار، وأن الناجي الوحيد من بطش أهل العزبة بهم رجل قعيد، علَّم ابنه الوحيد فنون الانتقام!

رغم أنها لم تصدق الخالة في حينها، وتناست كل ما قالته ورمت به خلف ظهرها، إلا أن كلماتها عادتْ تتبدَّى أمامها بوضوح ما إن رأتْ أباه القعيد جالسًا وسط الفراش، لا يقوى على قضاء حاجته دون مساعدة زوجته أو ابنه.

احتارتْ هل تشفق عليه أم تغضب منه، أيكون ما حدث له عقابًا على ظلم أنزله على غيره؟ أتكون الآن في بيت جبَّار ظالم خسفَ الله بقوته الأرض جزاء طُغيانه؛ «لا يُعذِّب بالنار إلا رب النار»؟!

تَداعَتْ ذكرياتها عن آثار الحرق على ساعدي «عادل»، والحريق الذي نجا منه الباشا. لعبتْ كلمات الخالة بعقلها وكأن كل حرف شيطان ينفث سمومه، ظنتها كاذبة في كلامها كله لذلك رمته خلف ظهرها، خاصة

عندما رأت كيف يتعامل «عادل» معها ومع أبيها، لكن الآن اختلف الأمر، أبوه قعيد بالفعل، لم تكذب الخالة في ذلك.

عليها أن تقطع الشك باليقين وتعرف الحقيقة كاملة، يكفيه غموض وأسرار، إما أن يكون واضحًا معها أو ستتراجع عن مساعدته. استدعته خارج الدار، ثم سألته دون مواراة:

- ما سبب الحرق على ذراعيكَ؟

صدمه سؤالها، لم يفهم سبب إثارتها لهذا الأمر في هذا الوقت بالذات، حاول المراوغة لكنها كانت له بالمرصاد، لم تقبل إلا جوابًا واضحًا صريحًا، وكي تُسهِّل عليه مهمته؛ سألته وهي تتمنى أن يُجيب بـ «لا» قاطعة، كما أجابتْ هي من قبل:

- هل حرقتَ القصر؟

اضطربَ كثيرًا، وتعكَّر صفو السطح الأزرق، طافتْ فوقه أشباحٌ باهتة، لا تعرف إن كان مصدرها عينيه أم روحه. انقبض قلبها، كررَّتْ السؤال:

- هل أشعلتَ النار في القصر؟ أجبني يا «عادل».

لم يجد بُدًّا من الإجابة، عليه أن يكون صادقًا حتى وإن كشف لها عن سوءة فعلته الشائنة، أطرق يقول بندم:

- نعم، قبل عدة أشهر أشعلتُ النار في القصر!

نزل اعترافه على قلبها كالصاعقة، إذن كل ما قالته الخالة صحيح، عائلة الشيخ «شلش» لم تتوقف عن الانتقام، ولن تتوقف، هل كانت هي الأخرى إحدى أدواته للانتقام؟ ما الذي يُحاول إحراقه هذه المرة.. القصر؟ أم أحفاد الباشا؟

نادته أمه ليرافقها من أجل إحضار بعض الحطب، قال بعُجالة وهو يُفارقها ويختفي في الظلام:

- سنتحدث في كل شيء.

لم تكن بحاجة للحديث، بل بحاجة للصراخ.

سارتْ على غير هُدى، لا يستجمع عقلها فكرة، ولا تَدري قدمها وجهة. فجأة انفتح باب الدار التي مرَّتْ بها، فوجئت بالخالة التي قابلتها بالأمس تحتفي برؤيتها وتدعوها للدخول. في الداخل أسقَتها مرة أخرى ماء مُحلَّى بالعسل، ومثلما انفجرتْ في البكاء بصحن دارها بالأمس، كررتْ فِعلتها اليوم، لكن هذه المرة سَكبَتْ دموع الخذلان.

تعلَّقتْ بشفتي الخالة، كأنها آخر طوق للنجاة:

- أستحلفك بالله أخبريني الحقيقة.. هل «عادل» رجل ملاوَع كما أخبرتني؟ كان شهمًا جدًا معي، يُراعيني ويهتم بأمري، لم يؤذني، ولن يؤذيني.

فطنتْ «براخا» إلى أنها أوقَعَتْ في شباكها حَمَلًا ساذجًا، ستصطاد به آخر أفراد عائلة الشيخ «شلش»، وعندها ستصير العزبة أرضًا ترتع فيها كما اشتهَتْ، لن يجد الناس من يُبصِّرهم بالحقيقة، ويزيل عنهم حُجُب الجهل، لن يأمرهم أحد بمعروف اجتنبوه، ولن ينهاهم عن منكر فعلوه، ستصير عزبة «العبيط» حُرة من قيود «الحرام» البالية!

ستستعيد أمجاد عائلة «الأعور»، ستقرض الناس الأموال بالرِّبا جهرًا في البيوت والأسواق، ستقتنص أموالهم، ومصاغهم، ودورهم، وزرائبهم، ومواشيهم، وأرضهم وزرعهم!

بكرباج ورثه زوجها، وبالقوة الجسدية لابنها المُختل ستصير سيدة عزبة «العبيط» الآمرة الناهية فيها. لم يفطن أحد إلى ذكائها وفطنتها حين جعلتْ ابنها سيدًا في قومه، جسدًا بغير عقل تُحركه مثل عروس من الخيش، لم يفهموا أبدًا أن الشر يكبر في رحم النساء، يَلِدنهُ مَطلَع كل اشتهاء، وهي امرأة اشتهتْ الدنيا منذ أن تفتحَّتْ زهرة شبابها، كانت وسواسًا رجيمًا في أذن زوجها، دفعته لأن يقتفي أثر أبيه ويكون سيدًا على عزبة «العبيط».

لكن العبيط زوجها أضاعَ عليها كل ما اكتنزه من مال، وكان يجب عليها استعادة أيام المجد، حتى لو ضحَّتْ في سبيل ذلك بابنها نفسه!

عاودت «حُرة» آلام الأمس، تُقطِّع بطنها مثل سكاكين حادة، تحسستْ «براخا» بطنها المتوجعة، وهي تقول:

- يا ابنتي خشيتُ إخبارِك بالأمس، تعبك هذا مكشوف أمره، وأنا امرأة وُلِدَ كل أبناء العزبة على يدي، بأَحشائكِ جنين عمره أيام، الستر سترك يا رب!

انتفضتْ «حُرة» تُنكر وتستنكر، تسب المرأة وتلعنها، أوقفتها «براخا» وسألتها بحزم:

- ألم يُطعمكِ أو يُسقيكِ شيئًا؟ ألم ينفرد بكِ؟ ألم تسقط رأسكِ وتنامي فجأة؟

استعادتْ «حُرة» ذكريات ليلتها الأولى في القصر، حين أوصلها «عادل» بسيارة الباشا وطلبت منه شربة ماء، ثم نامتْ بعدها، أتكون في تلك الشربة «أبو النوم» كما تقول الخالة؟

- هل.. أنا.. حامل؟

خرج سؤالها مرتعشًا، بكلمات متفرقة، لا تقوى على أن تستجمع شتاتها لتنظمها في جملة واحدة.

السؤال نفسه هزَّها، شتتها، وكأنه يصدر عن فتاة أخرى غيرها، لكن لا مجال للخطأ، الصوت صوتها، والسؤال سؤالها.

تجمعتْ لهفة عينيها ورجاؤها لتتعلق بشفاه العجوز الخبيرة التي تقف قبالتها في دارها الحقيرة، بالية الأثاث، نفَّاذة الرائحة. تكاسلتْ نظرات العجوز فوق وجهها، عاجلتها الفتاة بلهفة المُلتاع:

- في عرضكِ أخبريني الحقيقة.

رفعتْ العجوز عينيها صوب البومة الواقفة عند فتحة النافذة، تنهم بصوت يجمِّد الدماء في العروق، وقالت بصوتٍ كسيح:

- أنتِ الفتاة الثامنة التي تحبَل تحت سقف هذا القصر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ظلَّت العجوز تحوقل وتذكر الله بصوت حاد تُبارز به نُهام البومة. استدارتْ الفتاة وغادرتْ دار العجوز مُضطربة الخُطى، مُخدرة الحواس.

وقفتْ دامعة العينين بين أشجار تطل عليها بفضول من كل حدبٍ وصوب، يا لها من ليلة حالكة السواد لا تكاد تتبين موضع خطواتها! وبغتة أخذت تبكي بصوت يبارز صوت البومة والعجوز، آهات ملتاعة تصحبها وهي تجري بين الأشجار بسرعة بالغة، يصدمها جذع، ويخمش جسدها فرع، وتعرقل قدمها الأحجار، تقع ثم تقف وتستمر في العدْو والبكاء حتى سقطتْ من ارتفاع شاهق في حفرة عميقة تفترشها الصخور، فاقدة الوعي أو الحياة، ظلَّتْ هناك تنزف جراحها ببطء دمًا دافئًا.

((الزمن))

حفَّتْ أوراق شجرة «الكافور» بشجن، تمسح بأطراف أوراقها على فرعها الوليد، تمتمتْ:

- فتاة مسكينة، مثل ورقة شجر انقطعتْ عن الغصن الذي منه نشأتْ، واختلطتْ بطين الأرض وأحجارها.

استفزَّتْ كلماتها شجرة «الخشخاش» فصاحت:

- بل فتاة غبية، تُصدِّق كذبات الآخرين بسذاجة.

دافعتْ شجرة «الصفصاف» عن الفتاة قائلة:

- ليستْ غبية يا شجرة «الخشخاش»، بل حالمة.. مثلي، تظن أن الأرض كلها مكان يصلح للعيش، أتتذكرن حين مللتُ من الغابة وأردتُ من الريح أن تقتلعني وتُعيد زرعي في حديقة القصر؟ يومها حاولَتْ الريح كثيرًا، لكنها فشلت في تحقيق أمنيتي، لم أكن أعلم وقتها أن قربي من القصر سيكون وبالًا عليّ، ظننتُ الحديقة جنة، مكانًا يحلو فيه العيش ويصفو فيه الود، الآن بعد أن علمتُ حكاية القصر وصاحبه لا أرغب أبدًا في مغادرة الغابة والدنو من الحديقة ولو لثانية واحدة.

تمايَلَتْ فروعها يُمنة مع الرياح، استرقتْ النظر أثناء ميلها إلى الفتاة النائمة وسط الحفرة، ثم أردفَتْ وهي تستوي:

- الفتاة كانت ترى الدنيا بعين حالمة، برأيي أن هذا هو الفارق بينها وبين أهل العزبة الذين لا يغضبون.

استنكرتْ شجرة «الخشخاش» حديثها، أما نبتة «الأقحوان» الحكيمة فهمتْ مُرادها، فقالت:

- ما تقوله شجرة «الصفصاف» صحيح، هذا رأيي أيضًا، الفتاة ما زال بإمكانها أن ترسم بريشة الأمل أحلامًا فوق السحاب، الحلم يجعل دماء بني الإنسان حارة، تُشعِل قلبه وتجعله بوصلة مجنونة تذهب في جميع اتجاهات المشاعر والأحاسيس، أهل العزبة توقفوا عن الأحلام؛ لذلك بَرَدَتْ دماؤهم.. وسكنَتْ قلوبهم، ليس سكون المطمئِن، بل سكون الأموات!

صاح الزمن بفرحة طاغية:

- تحرَّكتْ الفتاة، لم تمت!

سألَتْ جميع الأشجار الرياحَ أن تجذب رؤوسها بقوة؛ كي تُمكنهنَّ من رؤية الفتاة التي شرعتْ في التحرك داخل الحفرة. طال مكوثها جالسة، تحاول تذكُّر كيف ومتى ولماذا جاءتْ إلى هذا المكان، ذكَّرتها جروحها الدامية بجريها في الغابة وسقوطها في حفرة عميقة، بعد أن حدَّثتها «براخا» بحديث شؤم. انفجرتْ في البكاء، ترفع رأسها إلى السماء، تُناشد ملك الأرض والسماء أن يكن عونًا لها في محنتها الشديدة.

تحامَلَتْ للنهوض على قدميها، لم تأبه لجروحها النازفة، فجروح قلبها كانت أشد نزفًا، ولا سبيل لمداوات كل جروحها. حاولتْ الخروج من الحفرة.. مرة.. وثانية.. حتى نجحتْ في الثالثة. طفقتْ تتخبَّط في سيرها، تصطدم بفروع الأشجار التي تُحاول لمس جروحها، والتربيت على كتفها.

قال فرع شجرة «الكافور» الوليد لأمه، وأوراقه تتلمَّس السبيل لأوراقها

- كل هذا حدث لأن تلك المُعلَّقة بالعرش غاضبة، أليس كذلك يا أمي؟

- نعم يا صغيري، صاحب القصر رجل ملعون؛ لأنه قطَّعها شر تقطيع، فقطعه الله مثلما قطَّعها، شتتَ أوصاله، وأفقده بركة عمره وصحته ورزقه من مال وبنين.

تمكنَّتْ بعض أوراق فرع الشجرة الوليد من احتضان أوراق خضراء كبيرة تزخر بها فروع أخواته الكبار، قال بوداعة الأشجار:

- لن أفعل ذلك يا أمي، لن أكون مثل صاحب القصر، لن أقطع تلك المعلَّقة بالعرش أبدًا.

ثم سأل بفضول، همسًا؛ كي لا تكتشف باقي الأشجار جهله:

- تلك المُعلَّقة بالعرش ما اسمها يا أمي؟

وقفتْ سحابة كبيرة فوق شجرة «الكافور» وطفقتْ تُسقيها من مائها قطرة فقطرة، وكأنها تدرك أنها عطشَى إلى المياه من أجل فرعها الوليد، رشفتْ بضع قطرات ثم قالت:

- اسمها «صِلة الرحم» يا بُني، مَن قطعها هلكَ!

زحف الظلام على روحها، خبا ضوء القمر في عينيها؛ سارت تتخبط.. تجرح نفسها.. تتألم.. وتتعلَّم!

لا أحد يستحق ثقتها، لا أحد يستحق قلبها، ودَّتْ لو تصير مثل الأمواج، لا تتألَّم مهما تكسَّرتْ فوق الصخور، تتشتتْ، لكنها تعود وتُلملم أشلاءها، تغدو موجة أكبر، تُنضِجها الضربات ولا تُميتها.

وصلتْ إلى حديقة القصر الموحشة كثيرًا هذه الليلة، لم تُفرِّقها عن الغابة إلا بالكوخ الذي يتوسطهما، ألا لعنة الله على الكوخ وصاحبه.

رأتْ «درية» هانم التي كانت تتجوَّل في الحديقة، تُقبل صوبها بلهفة:

- «حُرة».. أين كنتِ؟ من فعل بكِ ذلك؟

ألقتْ «حرة» بنفسها بين ذراعيها، أجابت كل أسئلتها بالبكاء فحسب. على إثر هتاف «درية» هانم خرج الجميع من القصر، استقبلوها بمزيج من اللهفة والفزع، بُكاؤها وحال ملابسها يؤكدان على ما غلبَ على ظنونهم منذ الأمس، سألها «فؤاد» بلهفة:

- هل فعل لكِ الحارس شيئًا؟ أخبريني يا «حُرة»؟ هل آذاكِ؟

بكاؤها الهيستيري كان جوابًا كافيًا لتغلي الدماء في عروقهم، أخبرها «حسين» بوجه يتفجَّر منه الغضب:

- ذهب «محفوظ» مع قوة من البوليس للبحث عنه، إنه مجرم.. قاتل، قتل رئيس الخدم، كنا نبحث عنكِ في كل مكان، لن أتركه يفلتُ من يدي، سأقتله.. أقسم أن أقتلَه، لكن قبل أن أقتله سـ «أسكعه» كفًا يصيبه بالصمم.

أخذ كل منهم يواسيها بما جادَتْ به قريحته من الكلمات، يأكلهم الفضول لمعرفة إلى أي مدَى تمادَى معها ذاك الحارس الأثيم. وبغتة أقبَل «عادل» صوبهم، دخل عبر بوابة القصر الأمامية وكأنه يتحداهم جميعًا؛ اندفع الثلاثة رجال صوبه يكيلون له الركلات واللكمات، ويُمطرونه بوابل من السُباب واللعنات.

أخفَتْ وجهها في صدر «درية» هانم، لم تنظر ولو لمرة واحدة، تبًا لقلبها، لمَ يتألم لصرخاته، وينسحق لآهاته؟! سمعته من بين توجعاته

يهتف باسمها.. مرة.. واثنين.. وثلاث.. كم هو حقير! يجرؤ على مسّ حروف اسمها بشفتيه.

صاح بهم بصوت مزَّقه الألم:

- هل علَّموكم ذلك في الجندية.. تستقوون على رجل أعزل؟

لم يعيروا كلماته أدنى اهتمام، سحبوه ثلاثتهم حتى المطبخ عبر الباب الخلفي للقصر، أجلسوه فوق أحد المقاعد الخشبية، وكتَّفوه بالحبال، بصق «شحاتة» في وجهه وهو يُخبره أن «محفوظ» خرج للبحث عنه، وما إن يعود حتى يُلقي القبض عليه، وأن مؤامرته الحقيرة قد انكشفت.

بصق الدماء من فمه أرضًا، وجهه ينضح ألمًا، قال مُتقطِّع الأنفاس:

- لم تكن مؤامرة.

لكمه «حسين» بقوة أطاحتْ به وبالمقعد أرضًا، أفرغ في لكمته كل غضبة حبسها بداخله، كل مرة ودَّ لو عجَن فيها عظام أبيه بعد ضربه لأمه، كل مرة لم يتمكن فيها من الدفاع عن إحدى أخواته، احتشد كل غضبه في لكمته، كل قهره، كل حسرته. عدَّل «فؤاد» من وضع المقعد وقال بغضب:

- بل مؤامرة، لقد فهمنا كل شيء، تظاهرتَ أنكَ تُحاول قتل «درية» هانم في غرفتها، وكذلك فعلتَ مع «حسين» في غرفته، مزَّقتَ ملابس «حُرة»، وسرقتني، ثم وضعتَ بعض ما سرقتَ في غرفة «حسين» كي أتهمه، كل ما فعلته كان لعبة حقيرة كي نُغادر القصر؛ فتفوز به وحدك.

أكمل «حسين» وقد أخذه الحماس إذ تجمَّعتْ خيوط الحكاية كلها في رأسه:

- ما يقوله «فؤاد» صحيح، لقد شعرتُ بيديكِ ترتخيان على الوسادة التي وضعتها فوق وجهي، لم تُرد قتلي، أردتَ إخافتي فحسب، دفعتَ الجميع بخبثٍ كي يرحلوا عن القصر، تقتل رئيس الخدم ومن بعده البرنس، ثم تأخذ القصر بوضع اليد، لن يطالب به أحد بعد أن يموت البرنس ويتم استبعادنا جميعًا من الوصية؛ لأننا غادرنا القصر قبل المدة التي حددها المحامي، خطة بمنتهى الذكاء.

بصق «عادل» مرة أخرى دماءً تجمَّعتْ في فمه، ثم أعلن بإعياء:

- لا توجد وصية، لقد خدعكم البرنس، الرجل الذي قابلتموه في ليلتكم الأولى بالقصر ليس محامي الباشا، استأجره البرنس ليلعب عليكم.

أمسك «شحاتة» بأحد الصحون وأقبلَ عليه يحاول كسره فوق رأسه، منعه «فؤاد» و«حسين» بصعوبة. صاح «شحاتة»:

- أكرمك جدنا الباشا بالعمل في حديقة قصره فنكرت الجميل يا قليل الأصل، صحيح «زي الصُّوف تِكرمه يِعِتّ».

ظلَّتْ «درية» هانم مُحافظة على هدوئها، حذَّرته قائلة:

- إياكَ أن تُلاوِع، لو تركنا «شحاتة» يؤدِّبك ستخرج من هنا على «الإسبتالية».

ثم سألته دون أن تُبدي نحوه أي قابلية لتصديقه:

- إن كان كل ذلك لعبة كما تقول.. فبمَ سيستفاد منها البرنس؟ ما الذي أراده منا؟

استرق «عادل» النظر إلى «حُرة» الجالسة فوق الطاولة الخشبية، توليه ظهرها، لماذا لا تنظر نحوه؟ كيف تركتهم يُهاجمونه دون أن تحمي ظهره.. دون أن تضرب على أيديهم.. دون أن تَبكي ألمه؟! ألم تعده أنها ستُكون جُنديًا باسلًا في جيشه، بل كُل جيشه؟ كيف تخلَّتْ عنه عندما احتاج إليها وسط المعركة؟! أرادها أن تكون شُعلة تؤجج ثورته، لماذا أخمدَتها وأسقَطَتْ رايته؟!

لو يرى في عينيها ألمًا لسامحها على تخاذلها في مساعدته، لو يلمح فوق قسمات وجهها أسفًا لصفح ضعفها قبل أن يسمع منها عُذرًا، لكنها تتحاشى النظر إلى وجهه، مثل وباء ينتقل بالنظرات!

احتدتْ «درية» هانم:

- أجب سؤالي.

استجمع قوته، قال:

- المفتاح.. أراد المفتاح.

قالت «درية» هانم بشكٍ:

- مفتاح القصر؟!

أجاب بحزمٍ:

- بل مفتاح الكنز!

صاح «حسين» باندفاع:

- هذا ما قاله «محفوظ» تمامًا، قال إنه سيحاول تأليف القصص والحكايات وإقناعنا بها ليُبعد الشُبهات عن نفسه.

فقد «عادل» صبره، قال مُغاضبًا:

- كل ما أخبركم به «محفوظ» كذب، الشخص الذي حاول خنق «درية» هانم و«حسين» هو «محفوظ» نفسه، ما إن سمعتُ صراخ كليهما حتى تسلقتُ شجرة الرمان الكبيرة المواجهة لغرف القصر.. رأيته بنفسي.

تجمَّد الجميع، أصابهم الذهول للحظة، أفاقتْ منها «درية» هانم سريعًا وهي تهتف بحدة:

- كاذب، عندما دخل الجميع إلى الغرفة وأضاؤوا النور لم يكن بها أحد، ولم يُقابل أحد منهم «محفوظ» وهو خارج من الغرفة أثناء قدومهم إليها.

صاح «شحاتة» وهو يُحاول الفكاك من قبضات الرجلين:

- دعاني، سأقتله، سأحطِّم المطبخ فوق رأسه السميك.

قال «عادل» وقد أصرَّ على خوض الطريق لنهايته مهما كلفه ذلك، الليلة يجب أن ينتهي كل شيء:

- اختفى «محفوظ» خلف الباب قبل أن يدخل الجميع ويشعلون الأنوار، وفي غفلة منكم تسلل بينكم وكأنه قدِمَ مع الجميع، لكنه لم يأتِ من خارج الغرفة بل من خلف الباب، رأيتُ ذلك مرتين!

لم يُصدقه أحد، أفلتَ «فؤاد» و«حسين» لجام «شحاتة» لثوانٍ، هاجم خلالها «عادل» بالصحن، أنزله بقوة فوق رأسه، فقد «عادل» وعيه وتحوَّل إلى دُمية في أيديهم، لا حول لها ولا قوة!

دار «حسين» حول المقعد، وتفحَّص جيدًا يديّ الرجل الفاقد للوعي، تذكَّر للتو أن قطه قد قفز فوق يد مُهاجمه وخمشه، حتى أنه سمع تأوهًا صدر عنه مما جعله يدرك أن مُهاجمه رجل وليس امرأة، لكن يدي «عادل» خاليتان تمامًا من الخدوش!

قالتْ «درية» هانم بتوتر، وهي تبحث في المطبخ عن كبريت لتُشعل سيجارتها:

- أحسنتَ يا «شحاتة»، الآن لن نعرف منه أي شيء على الإطلاق!

استنكر «شحاتة»:

- إنه «حَلانجي»، أي شيء سيقوله كذب ونفاق.

أشعلتْ سيجارتها، تخللتْ أصابع يدها خصلات باروكتها الصفراء، ثم واجهتهم قائلة:

- ربما ليس كذبًا تمامًا، أقصد الجزء المُتعلق بالوصية، ربما بالفعل لا توجد وصية، وتم جمعنا هنا في القصر لهدف آخر.

تبادلتْ مع «فؤاد» نظرات ذات مغزى، عندئذ فطن «شحاتة» أن هناك ما يخفيانه، لم يغضب منهما إذ كان هو الآخر يخفي عن الجميع أمر مصعد الطعام، وزيارات البرنس الغامضة لطابق سُفلي تحت المطبخ، حتى «حسين» انتبه إلى أن كلًا منهم لديه سر أخفاه عنه، تمامًا كما أخفى هو أمر أنابيب السائل الأحمر الممتلئة بالزئبق السام كما أخبره حكيم الباشا.

قرر الجميع في تلك اللحظة أن يتشاركوا ما بحوزتهم من معلومات، أن يعملوا كفريق واحد من أجل مصلحتهم جميعًا. ودون حاجة لكلام توجه الجميع خارج المطبخ، بعيدًا عن أسماع الرجل المخادع الذي ربما يتظاهر بفقدان الوعي فيسترق السمع إلى حديثهم المهم.

غادروا ليعقدوا اجتماعهم في غرفة «شحاتة» المجاورة للمطبخ، ولم ينتبهوا إلى أن «حُرة» لم تلحق بهم، ما إن خلا المطبخ من الجميع حتى توجَّهَتْ إلى أحد الأدراج، أخرجتْ سكين المطبخ الكبير، ثم دَنَتْ من «عادل» الفاقد لوعيه، وضعتْ نصل سكينها فوق عرق نابض بعنقه، تمامًا عند نفس النقطة التي أسالَت منها دماء «مرزوق» قبل قدومها إلى القصر.

لكن هذه المرة ضغطَتْ على السكين بكل ما تملكه من قوة.. وغضب!

أنهوا حديثهم بقراءة الفاتحة، تبرُّكًا بها على اتفاقهم الذي صاغته «درية» هانم بوضوح:

- لن يأخذ أي منا القصر لنفسه، سنتشارك فيه جميعًا، نحن أبناء خالات لم نعرف بوجود بعضنا البعض إلا منذ أيام فحسب، لا يجب أن تدخل بيننا العداوة والبغضاء، القصر كبير ويسعنا جميعًا، لا توجد وصية، هذا ما أنا واثقة به، حتى وإن ترك الباشا وصية بالفعل، سنطعن فيها، لن نقبل أن يُحرم أي منا من ميراثه!

صحيح أنها أرادتْ القصر كله، خاصة أنها ستقتسمه مُجبرة مع أختيها في حال فوزها به، لكن لم يبق سوى عدد قليل من الرملات في القسم العلوي من الساعة الرملية، لعبة الفوز بالقصر لعبة فاشلة سيخرجون جميعهم منها بلا حمص، أما تقسيم القصر بالقانون سيضمن حقوقهم كاملة.

قاطعها «شحاتة» بحماس:

- ليس القصر فحسب، بل كل ما كَتبه الباشا للبرنس في وصيته، الخسيس ترك له وحده أموال وعقارات وتركة لا أول لها ولا آخر، والله العظيم هذا ظلم وافتراء.

صدَّق «حسين» على كلمات «درية» هانم و«شحاتة»، لن يطعنوا في الجزء المتعلق بالقصر فحسب، بل سيُشاركون البرنس كل شيء.. حتى أنفاسه!

أما «فؤاد» فقد عقدَ جبينه في ضيق قائلًا:

- شرعًا ليس لي ولا لـ «حُرة» ميراث؛ لأن أمي وأمها ماتتا قبل الباشا، ووجود البرنس على قيد الحياة يحجب نصيبي ونصيب «حُرة» من التركة.

طمأنته «درية» الهانم التي ذاكرتْ درسها جيدًا:

- لكَ ولها وصية واجبة بموجب القانون، طبعًا بعد تجنيب نصيب البرنس.

شرحَتْ لهم حسبة قانونية مُعقدة للمادة ٧٦ من قانون الوصية لسنة ١٩٤٦ المعمول به في مصر، لم يفهمه «حسين» من الأساس، وصاح «شحاتة» مُنبهرًا وإن لم يعِ الكثير هو الآخر:

- صحيح يا أولاد «أُم لِسان سِت النِّسوان»!

غضَّتْ «درية» هانم الطرف عن صيحة «شحاتة»، أمَّا «فؤاد» الذي تابع حديثها بانتباه أشرق البِشر في مُحيَّاه؛ زالتْ كل مخاوفه في الحال. لم يعد ثمة عائق أمام وِحدة صفِّهم، لا مجال للطمع ولا للضغينة بينهم، كلهم في مركب واحدة، عليهم أن يتشاركوا قيادتها؛ حتى تصل بهم إلى بر الأمان.

طائر حالم هي، لم تمنح الحياة لجناحيها الهواء الكافي للطيران، على شذرات زَجاج محطم نزفَتْ أحلامها، رغم النزيف.. رغم الألم.. رغم الغضب.. لم تفلح قوتها إلا في أن تُحدِث برقبته جُرحًا صغيرًا لا يكاد يُرى، حتى أنه لم يكن باتساع قطرة دماء!

لم تستطع أن تُبكِي عِرق رقبته دمًا كما أبكَتْ «مرزوق» من قبل، رغم أن الخيبة أكبر، والمصيبة أعظم، ما المختلف هذه المرة إذن؟

ذاك الشيء النابض بصدرها هو الفارق، هو الذي يتقاعس.. ويتخاذل.. ألا قاتله الله هو ومن يأويه بين حُجراته الأربع!

استفاق على صورتها وهي ماثلة أمامه شعثاء، غبراء، مُشتتة الفكر، مكسورة النظرات، تطعن مسامعه صرخت جراحها النازفة، ما إن رآها على هذه الحال حتى دبَّتْ القوة بأوصاله، غالَبَ آلامه:

- «حُرة».. ماذا أصابكِ؟ هل تعرضَّ لكِ أبناء خالاتك بالأذى؟

كاذب هو، مُزيَّف مثل مجوهرات «سعد» التاجر، يُحضرها معه من مصر، ويبيعها لفلاحات قريتها على أنها أحجار كريمة نادرة، أيوجد حجر كريم ثمنه قرش تعريفه؟

لهفة عينيه زائفة.. نبرات صوته زائفة.. أمارات الشوق فوق وجهه زائفة.. لا يسوى في نظرها أكثر من قيمة مجوهرات «حسان» في سوق الأحجار.

وضعتْ السكين على رقبته ثانية، رأت على وجهه صدمة حقيقية، ظنَّته سيبدأ في التوسل إليها كما فعل «مرزوق» كي ترحمه، لكنه لم يفعل، ويا ليته فعل. أطالَ النظر في عينيها، يقرأ ما أفلتَ منهما من خبيئة نفسها، رأى الطريق إلى قلبها تعترضه غابة موحشة، بها ذئاب وأفاعٍ وبومة تنهم.

قال بهدوء:

- أنت لست «حُرة» التي أعرفها، أنتِ غاضبة.. غاضبة جدًا، شخص ما عبَّأ رأسكِ بالأكاذيب.. عني.

نطقتْ للمرة الأولى منذ أن ألقتْ بنفسها بين ذراعي «درية» هانم في الحديقة:

- اخرس!

- سأخرس، لكن سأقول لكِ شيئًا واحدًا قبل أن أخرس، شيئًا قررتُ أن أخبركِ به عند عودتنا معًا إلى القصر، لكنكِ تعجَّلتِ وأتيتِ إلى هنا وحدكِ.

كاد جدار قوتها أن ينقض، حاولَتْ بجُل عزمها أن تُسكته:

- اخرس.

- ستسمعينني شئتِ أم أبيتِ.

استحضر صورتها وهي جالسة معه فوق الجسر تتدفأ ببطانية من الخيش، وهي تقتسم معه قليلًا الطعام في رضا، وهي ترتدي الجلباب الأزرق، وهي تُعانق أباها شوقًا، وهي تبكي أمها عند القبر قهرًا، أمعَنَ النظر في عينيها يبحث فيهما عن «حُرة» التي يعرفها، استجمع حنان فؤاده، وأشواق عينيه، وأعطي لكل حرفٍ حقه من الدفء والصدق:

- أحبكِ!

تهدج صوته، همَسَ مُستشعرًا قُدسية كلماته:

- أبوح بها لأول مرة.

هو أيضًا لم يفُض أحد ختم قلبه من قبل!

أتفرح بكلماته أم تَبكيها؟!

تَشتتَ منطقها، تاه بين ما سمعته وما أخذ قلبها يصدح به. أخذت تُعيد عليه باكية ما سمعته من كلمات سمَّمَتْ عقلها، وأطاحتْ باتزانها، وأسلمَتْ قلبها لأسياد الغضب وسَدَنته! أعادَتْ على مسامعه كلمات «براخا» حرفًا حرفًا، وكلما روّتْ له أكثر، اتسعت عيناه دهشة، واحتقن وجهه غضبًا، حتى ختمتْ حديثها بألم، وهي تُشير إلى ذراعيه:

- رأيتُ آثار الحرق على ذراعيكَ ومع ذلك لم أصدق أنك حاولتَ حرق جدي وقصره، لكنني حين سألتكَ اعترفتَ بكل شيء!

انتفختْ أوداجه غيظًا:

- لم أعترف بكل شيء، فقط قلتُ إنني أشعلتُ النار في القصر، وقلتُ أيضًا إنني سأشرح لكِ كل شيء، لكنكِ لم تنتظري، تسرَّعتِ بتصديق تلك الحية!

- أي شيء ستشرحه أكثر من اعترافك بحرق القصر؟!

- حرقتُ القصر نعم، لكنني لم أعرف أن أحدًا بداخله، قبل ليلة الحريق بأيام سمعتُ قدرًا حديثًا بين أبي وأمي كشف لي سِرًّا أغضبني كثيرًا، أعماني الغضب، ليلتين أدور في الشوارع بغضب مُشتعل دون أن أجد من يُطفئه، توجَّهتُ إلى القصر لحرقه، أشعلتُ فيه النيران نعم، لكن أقسم لكِ أنني لم أعرف أن الباشا بالداخل، كان غائبًا عن القصر لأيام هو وكل خدمه ولم أعرف برجوعه تلك الليلة، وعندما سمعتُ صراخه في غرفته تسلَّقتُ شجرة الرمان الكبيرة وقفزتُ عبر النافذة، حملته على ظهري حتى أخرجته من الغرفة المُشتعلة، لو أنني أردتُ قتله حرقًا لتركته يموت ولما سببتُ لنفسي آثار حروق لن تزول.

ثم استطرد مُطرق الرأس تجتاحه نوبة ندم:

- كنتُ مُخطئًا حين سمحتُ للغضب أن يعميني عن الصواب؛ لذلك قررتُ أن أتريَّثَ وأكون طويل النَفَس حتى أحصل على ما أريد.

تدور اعترافاته في عقلها، تحاول أن تبحث فيها عن موضع خلل، ما السر الذي سمع أباه وأمه يتحدثان عنه وأغضبه بهذا القدر الرهيب؟ وما علاقة غضبه بحرق القصر؟ رفع رأسه ونظر إليها مُعاتبًا:

- خذلتني! كيف صدَّقت تلك الحيَّة؟! «براخا» اليهودية امرأة معجونة بالشر، أرادتْ ضربي في مَقتَل؛ لأنني الوحيد القادر على إيقاف مُخططها القذر، وأنتِ قدَّمتِ لها رقبتي على طبق من فضة!

توقفتْ عن البكاء، مسحتْ عبراتها، سمحتْ لبعض المنطق من أن يزور أفكارها، ويصبغها بصبغته.

- لو وثقتِ بي لما صدقتِها، لكنكِ لم تثقي بي قط، أنا رجل غريب عنكِ لدرجة أن تُصدقين أنني سآتي بمثل هذا الفعل الخسيس، لا أعني لكِ أي شيء على الإطلاق!

مسحتْ عبراتها، تحاول أن تُفتِّش عن الزيف في كلماته.. في وجهه.. في نبرة صوته وهو يقول بألم:

- يُمكنني أن أغفر ما فعله بي أبناء خالاتكِ، لكن لن أغفر خُذلانكِ لي.. خُذلان المُحبِّين لا يُنسَى ولا يُغتَفَر.

لم يكن زائفًا، بل غُشيَتْ بصيرتها بغمامة الشك.. الجهل.. الوسوسة.. عندئذ أدركَتْ جُرم فعلتها. وكأن ما قاله لم يكن كافيًا لإمطارها بالندم، ألقى بكلماته الأخيرة الكافية لتُخرسها للأبد:

- لا يمكنني أن أؤذيكِ حتى ولو لم أكن أحبكِ، أتعرفين لماذا؟

باح أخيرًا بسره الذي أخفاه عن الجميع:

- لأن بيننا رابطة دم!

نطق وجهها بالصدمة، خفق قلبها بقوة، يحاول تغذية عقلها بالدماء الكافية لتعي كلماته.

أغمض عينيه لوهلة، ثم أردفَ:

- أنا أيضًا أحد أحفاد الباشا!

في غرفة «شحاتة» أفسحَتْ الدهشة لنفسها مكانًا بينهم، بعد أن أفشى كل منهم السر الذي كان يخفيه عن الآخرين، لم يعد لدى أي منهم أدنى شك في أن أمرًا ما غير طبيعي يدور بقبو سري تحت القصر، هذا الشيء مهم جدًا إلى درجة حرص البرنس على الاطمئنان عليه كل حين.. ما السر الذي يخفيه عنهم يا تُرى؟

ولَمَّا كانتْ «درية» هانم أكثرهم قدرة على ربط الأحداث ببعضها أعادتْ على مسامعهم القصة بعد أن تجمَّعتْ أجزاؤها:

- إذن ما حدث هو الآتي.. الباشا لم يكتب وصية، أو لعله كتب وصية لم تعجب البرنس؛ لأن البرنس أراد الحصول على شيء آخر، شيئًا مُخبأ في قبو سري تحت القصر، وهذا الشيء هو ما كان يبحث عنه الباشا طيلة حياته.. «الزئبق الروحاني الأحمر»، الذي له قدرة على تسخير الجن المسئول عن استخراج الكنوز المدفونة، الزئبق الروحاني مادة نادرة جدًا، يُقال إنها موجودة في مقابر الملوك والكهنة، إذن هذا يقودنا إلى استنتاج واحد لا شك فيه.

تبادلتْ النظرات معهم، ثم قالت بحماسة بالغة:

- توجد تحت القصر مقبرة فرعونية ممتلئة بتلك المادة النادرة التي تُساوي جرامات منها ثروة فاحشة!

قال «شحاتة» في نفسه: «ثروة كريهة الرائحة! أتكون تلك الرائحة مبعثها عطونة المقبرة؟ كلا، تلك الرائحة أكثر نتانة من ذلك، ماذا تكون إذن؟!».

أضاف «فؤاد» إلى القصة ما غفلت عنه:

- وبما أن البرنس كان يستخدم مصعد الطعام دائمًا؛ هذا يعني أن الطريق الوحيد لدخول المقبرة هو عبر مصعد الطعام.

صفَّقَتْ «درية» هانم بجزل طفولي وهي تقول:

- ليس الطريق الوحيد.

تطلعوا إليها بدهشة، فأردفتْ:

- يوم أن حاولتُ البحث عن «أنيس» في جميع أرجاء القصر ليأتي لي بالحكيم ولم أجده.. رأيته فجأة يخرج من المطبخ، رغم ثقتي أنه لم يكن في المطبخ ولا في الحديقة، إذن فـ «أنيس» كان وقت اختفائه داخل هذا القبو السري؛ فهو خادم البرنس الوفي، وبالتأكيد يحتاجه لحراسة الطريق إلى المقبرة الأثرية، وبما أن «أنيس» كبير الحجم لا يستطيع حشر جسده داخل مصعد الطعام؛ إذن فحتمًا في المطبخ يوجد طريق آخر للوصول إلى القبو.

سحب «عادل» بكَرة الزمن، وعاد إلى بداية الحكاية، يرويها على «حُرة» السابحة في بحور الدهشة:

- قيل إن ابنة الشيخ «شلش» أول فتاة من العزبة تزوجها الباشا غصبًا، هذا صحيح، وقيل إنها ماتت حرقًا مع طفلتها في القصر، وهذا غير صحيح، لم يمت تلك الليلة سوى ابنة الشيخ «شلش» فحسب، لم تمت طفلتها، بل بالأحرى لم يمت طفلها!

أصاب الباشا سعار إنجاب صبي من واحدة من بنات العزبة، وبعدما تزوّج ابنة الشيخ «شلش» التي جلبها له الأعور حملتْ الفتاة سريعًا، وفي شهرها التاسع، في ليلة سُكر أكثر فيها الباشا من شُرب الخمر، أطلعها على المصير الذي ينتظرها، إن أنجبتْ بنتًا سيلقي بها هي وابنتها خارج قصره، وستعود إلى أهلها مع ورقة طلاقها، أما إن أنجبتْ الصبي سينتزعه من أحضانها ولن تراه مرة أخرى أبدًا. الفتاة التي تعلّقتْ بالروح التي تتحرك داخل أحشائها دعتْ الله سرًا وجهرًا أن يرزقها بالبنت؛ كي لا تُحرم من فلذة كبدها، لم تكتف بالدعاء بل اتخذتْ التدابير اللازمة لتنجو بطفلها إن كان صبيًا.

كانت الفتاة ذكية؛ استطاعتْ ترويض أحد الذئاب الرمادية التي وضعها الباشا في الغابة المحيطة بالقصر؛ كي يمنع الفلاحين من مُهاجمته أو التلصص عليه، خاصة عائلة الشيخ «شلش» بعد موت كبيرهم.

صار الذئب الرمادي رفيق الفتاة لأشهر طويلة، تزوره كل حين، وتجلب له معها اللحم الشهي من مطبخ القصر، وعندما أحسّتْ بآلام المخاض، أخفتْ ذلك عن الباشا، وتمكّنتْ بمساعدة الذئب الرمادي من الفرار عبر الغابة. عادتْ إلى بيت أبيها الشيخ «شلش» لتعلم بوفاته، وكان الباشا قد أخفى عنها خبر موته؛ فهمت الفتاة أن الباشا لن يترك أهلها على قيد الحياة

إن هي هربتْ إنقاذًا لطفلها فأرسل الله لها الحل والتدبير، إذ ماتت طفلة لإحدى قريباتها كانت قد وضعتها للتو، فأخبرتها عائلتها أنها حين الوضع إن رُزقتْ بفتاة فلا خوف عليها، ستعود سالمة هي وطفلتها إلى أحضان عائلتها من جديد، أما إن رُزقتْ بصبي ستضع الطفلة الميتة بين ذراعيها وكأنها ابنة الباشا وقد لفظت أنفاسها عند ولادتها؛ فتنجو بنفسها وبطفلها.

أخذتْ الطفلة الميتة وأخفتها فوق شجرة «كافور» بالغابة، وأمرتْ الذئب الرمادي أن يحرسها، وفي الليلة التالية ازدادت آلام المخاض وعرفت أن لحظة ولادتها قد حانت، سارعتْ بدخول الغابة، وأسفل شجرة «الكافور» ظلَّتْ لساعات تُعاني آلامًا كالموت، يطوف حولها الذئب الرمادي، يحميها من الذئاب المتربصة بها.

وأخيرًا سمعتْ صرخات طفلها الأولى، صبيًا وجهه كالبدر، حمدتْ ربها أنها كانت قد أعدت خطة لإنقاذه، ضمَّته إلى صدرها، وأطعمته حتى شبع. عبرت الغابة تحت جنح الليل وسلَّمتْ الصبي إلى أهلها الذين كانوا يرابضون بالقرب من سياج الغابة.

عادتْ الفتاة وحملت الطفلة الميتة من فوق شجرة «الكافور»، قبَّلتْ جبينها وضمتها إلى صدرها، وانتظرتْ حتى يعثر عليها الباشا ورجاله، لم يكن الباشا قد انتبه لغيابها حتى قُرب الفجر، وحينما عثروا عليها في الغابة كانت في حالة شديدة الإعياء.

كان غضب الباشا في غاية الشراسة حينما اكتشف أنها أنجبتْ بنتًا وليس ولدًا، حتى أنه لم يذرف دمعة واحدة لموت الطفلة. ضرب الفتاة وجرَّها من شعرها حتى باب القصر، لم يستطع أحد أن يُهدئ من غضبه، طال غضبه الفتاة والعاملون بالقصر وحُراسه وحتى الأشجار نفسها، إذ

أخرج سيفًا قديمًا ورثه عن أجداده وطفق يُقطع فروع الأشجار، ويقتلع نباتات، ويُحطم كل ما يطاله سيفه.

كان من المفترض أن تعود الفتاة لبيتها بعدما يُلقي بها الباشا خارج قصره، كما أخبرها إن أنجبتْ بنتًا، انتظر أهلها.. ساعة.. اثنين.. ثلاث.. عشر ساعات، ثم رأوا النار تندلع من غرفة الباشا بالقصر!

لا أحد يعرف كيف تم الحريق، لم تُلفَظ فيه إلا أنفاس ضحية واحدة، ابنة الشيخ «شلش»، وبعدها رممَّ الباشا الغرفة كأنها لم تحترق قط، لم يتهم البوليس أحدًا، تم تسجيله كحادث منزلي غير متعمد على الرغم من أن من رأووا الجثة أجزموا أنها لم تكن محترقة فحسب، بل مُمزَّقة كذلك!

ثم نظر «عادل» إلى «حُرة»، يردف قائلًا بفخر ممزوج بالحُزن:

- تلك المرأة الشجاعة التي أنقذتْ طفلها وماتت حرقًا داخل هذا القصر.. هي جدتي!

تقدَّمهم «شحاتة» إلى المطبخ للبحث عن الطريق الآخر للمقبرة، وجدوا «عادل» ما يزال مربوطًا إلى المقعد، وعلى الأرض تجلس «حُرة» بوجوم. فتَّشوا كل ركن من المطبخ، أزاحوا الثلاجة والطاولة وفتحوا جميع الرفوف والأدراج، لكنهم لم يعثروا على فتحة يُمكن استخدامها كمدخل للقبو. لم يبق أمامهم سوى استخدام الطريق الوحيد الواضح لهم، فيرسلون واحدًا منهم عبر مصعد الطعام إلى الأسفل، وفي الأسفل يحاول العثور على الطريق المُفضي إلى المطبخ والذي بإمكانه أن يسع رجلًا بحجم «أنيس». تلاقتْ أنظارهم عند «حُرة» أولًا، فهي أقلهم حجمًا، لكن حالها

الذاهل لم يُشجعهم كثيرًا على اختيارها للمهمة الصعبة، فوقع اختيارهم على «حسين» الذي يليها حجمًا.

صرخ قائلًا:

- لا يمكن، مستحيل أن أجلس داخل هذا الشيء وأسمح له أن يتحرك بي إلى الأسفل، أنا أخشى الأماكن المغلقة.

تقدَّم «فؤاد» يخلع عنه معطفه وحذاءه، ثم يفتح مصعد الطعام، تسرب عبره طيف من رائحة كريهة.. بسيطة جدًا، لكن أنف «شحاتة» الحساسة للروائح التقطتْ الرائحة وكأنه واقف أمام منبعها. حاول «فؤاد» أن يحشر جسده داخل الفراغ الصغير، انتبهتْ «حُرة» لما يحدث فحاولتْ منعهم، أوقفتها «درية» هانم:

- انتظري يا «حُرة» سأخبرك بكل شيء، من حقك أيضًا أن تعرفي، أسفل القصر مقبرة فرعونية بها مادة نادرة تساوي ثروة، إنها من أجلنا جميعًا.

حاول «عادل» تحذيره:

- لا تذهب وحدك يا «فؤاد».

وبينما تقص عليها «درية» هانم كل شيء دون أن تولي كلمات «عادل» أدنى اهتمام، تحرّك مصعد الطعام حاملًا «فؤاد» إلى الأسفل، لا يصحبه إلا خوف، ورهبة، ومصباح جاز نحاسي.

نهش القلق أعصابهم، ثلاث دقائق كاملة لم يند خلالهم عن «فؤاد» صوت واحد.

- في الأسفل شيء آخر غير الذي تظنونه!

التفتَ الجميع إلى «عادل» الذي قال تلك العبارة بهدوء كبير، لكن هذا الهدوء استفز أعصاب «شحاتة» المُلتهبة بشدة؛ هجم عليه محاولاً ضربه، وقفتْ «حُرة» تحول بينهما، ثم طلبتْ من «شحاتة» في رجاء:

- استمع له، لديه ما يقوله لكم.

وآخر ما يرغبون به في تلك اللحظة هو الاستماع إلى هذيان الرجل المُقيَّد.

فجأة.. سمعوا صيحة «فؤاد» الفزعة عبر فتحة مصعد الطعام، تخبطوا يحاولون مناداته، صرخاته المتصلة التي لا تنقطع تسري في أجسادهم مثل سكاكين تُقطِّع أوصالهم، وكأنه يرى شيئًا بشعًا للغاية. تفاجأ الجميع بـ «حُرة» تحل آخر عقدة في الحبال التي كتَّفوا بها «عادل»، فهمتْ أخيرًا أن هذا الرجل ليس مُثقلًا بالهموم، بل مُثقلًا بالمعرفة!

عارضها الجميع، وتقدَّم «شحاتة» يحاول منعها، لكنها دافَعتْ عن حريته بحزم:

- «عادل» لا يستحق ذلك.

اندفع «عادل» صوب المصعد يميل بجذعه، محاولاً مناداة «فؤاد» والاطمئنان عليه، لم يتحدث «فؤاد» بكلمة، وانقطعتْ صرخاته بغتة!

ازدادوا قلقًا على قلق، اغرورقتْ عينا «درية» هانم بالعبرات، ربما للمرة الأولى منذ زمن طويل، همستْ بندم كبير:

- ما كان علينا إرساله وحده.

«عادل» الذي لا يعرف المدخل الثاني للقبو، والذي فشل لأشهر طويلة في العثور عليه داخل المطبخ، أخذ يقتلع الأدراج من مكانها، يُحرّك كل شيء حتى أوشك على تحريك الجدران نفسها، وفي اللحظة التي كاد اليأس أن يلتهم قلوبهم، تحرَّكت خمسة أحجار من الجدار فيما يُشبه الدَرَج! ثم استَوَتْ متجاورة فوق الأرض كأنها درجة أخيرة لسلم طويل، وعندئذ وطأ «فؤاد» تلك الدرجةِ الأخيرة، وخرج إليهم سليم الجسد.. ذاهِل الفِكر.. متقطع الأنفاس.. أُضِيفت إلى عمره أعمارًا.

قال لاهثًا:

- في الأسفل شيء بشع.. بشعًا جدًا!!

الجميع على الدرجة نفسها من الجهل، حتى «عادل» نفسه كان يجهل عما يتحدث عنه «فؤاد»، شيء بشع!

ماذا يكون؟!

أشار إلى الدَرَج وقال والصدمة تعلو وجهه:

- انظروا بأنفسكم يا أحفاد الباشا!!

رائحة العفونة تزداد مع كل درجة إلى الأسفل، الإضاءة برتقالية خافتة، مصدرها الوحيد داخل القبو هو مصباحا جاز مُعلقان في جدارين متقابلين، زاد من قوة الإضاءة بعض الشيء المصباح النحاسي الذي يحمله «فؤاد» في يده. للوهلة الأولى يظن الرائي أنه داخل قبر، فالأجواء خانقة، تبعث في الجسد قشعريرة مُنفِّرة، ثم يتضح أن المكان أكثر اتساعًا من قبر، غرفة بحجم المطبخ فوقه، بغير أثاث، كلا، لحظة واحدة، هناك فراش في أحد

الأركان.. معدني.. صغير.. فارغ؟ كلا.. فوقه ملاءة.. قذرة.. بالية.. تحت الملاءة شيء ما تتبدَّى رأسه بوضوح، هل هذا رأس أم جمجمة عظمية؟ لا يمكن الرؤية من هنا، عليهم الاقتراب أكثر.

ما إن فارقوا درجات الدرج حتى ارتفع، والتصق بفتحة الجدار، غُلِّقَتْ بوابة دخولهم وخروجهم! طمأنهم «فؤاد»:

- بإمكان الدرج أن ينفتح من الجدار مرة أخرى بالضغط عليه، هكذا فتحته منذ قليل.

صارتْ الرؤية أكثر سوءًا بعدما اختفى الضوء البسيط المتسرب من المطبخ، اقتربوا أكثر من الفراش الصغير، باتْ بإمكانهم رؤية هذا الشيء المَسجي فوقه بوضوح.. أو للدقة هذا الشخص!

يبدو كجثة تكسوها طبقة متعفنة من الجلد، جلدًا مُتقرِّحًا أصابه العفن لانعدام الحركة، يتساقط وكأن صاحبه مصاب بمرضٍ جلدي بشع يدفعه للتحلل والانسلاخ، لم تفلح فتحات التهوية القليلة المُتمركزة في سقف أحد الجدران المُفضية إلى الحديقة في أن تُبدد الرائحة.

الرجل على قيد الحياة؛ عيناه الزرقاوان تضويان تحت ضوء المصباح، تند عنه أنَّات ضعيفة، هذا الوجه رأوه من قبل، لكن أين؟!

كانتْ «حُرة» أول المُتذكرين؛ كانت أكثرهم تأملًا في قسمات الصورة المُأطَّرة بإطار ذهبي في منتصف غرفة الصالون، الصورة المهيبة التي كانت تدفعها لأن تجفل كلما التقتْ بعيني صاحبها.

صورة «كاظم باشا البارودي».. جدها، إذن هذا هو سر الغرفة رقم ثلاثون!

عجزَتْ غدد «شحاتة» الشميّة عن تحمُّل الرائحة، ومركز إبصاره عن التطلع إلى الرجل ذي الجلد المُتقرِّح، حتى وإن كان هذا الرجل هو جده، بحث في جيوبه عن علبة «النشوق»؛ لم يعثر عليها فجلس أرضًا في إعياء.

وقف «حسين» يضرب كفًا بكف، لم يكن «عادل» أقل ذهولًا من الجميع، لم يتخيَّل قط أن البرنس قد يبلغ به الجشع مبلغًا يدفعه إلى سجن أبيه المريض تحت القصر، الآن باتَ الأمر أكثر وضوحًا، الآن فقط فهمَ سِر اللعبة بين البرنس والأعور.

في لحظة جنون اندفعتْ «درية» هانم تمسك بتلابيب «عادل» تتهمه بأنه حبس جدها، وأوصله إلى هذه الحالة المُتأخِّرة من المرض، وأنه أراد قتلهم الواحد تلو الآخر. حاول «فؤاد» منعها من غرس أظافرها في وجه «عادل»، تتحرك بجنون من يخشى الموت، تتذكر تلك اللحظات الرهيبة التي خنقها فيها بوسادتها، لا تُريد الموت الآن.. في هذا المكان.

دافعتْ «حُرة» عن «عادل» باستماتة، وقفتْ حائلًا أمام الجميع، مثلما فعل معها في قريتها، ثم قالت:

- عليكم أن تستمعوا إليه أولًا، تظنون أنكم تعرفوا كل شيء لكن هذا غير صحيح، كل منا يعرف شيئًا يحتاجه الآخرون بشدة، وبغياب أي منا لن تكتمل الحكاية الحقيقية أبدًا.

على مضض استمع الجميع إلى «عادل» وهو يروي لهم كل ما خفي عنهم، كونه حفيدًا للباشا مثلهم جميعًا. أخبرهم عن جدته، وعن الذل والهوان الذي أنزله الباشا و«الأعور» على عائلته في الماضي، وعن الطريقة التي تزوَّج بها الباشا جدَّاتهم، ثم ختم حديثه قائلًا:

- أعلم أن ما قلته صعب التصديق لكن تلك هي الحقيقة، في هذا المكان ثروة تعود لأهل العزبة، أنا هنا من أجل استعادتها.

صاحتْ «درية» هانم وهي تضحك بسعادة في وجه «فؤاد»:

- الكنز يا «فؤاد»، ما وصلنا إليه صحيح، هنا توجد مقبرة فرعونية بها الزئبق الروحاني، انتهتْ أيام الشقاء سنصير أغنياء جدًا.

- لن يمس أحد منكم تلك الثروة.

أعلنها «عادل» بوضوح.. دون مواراة.. دون خداع، ثم أردف وهو يطوف بأنظاره في وجوههم:

- تلك الثروة هي قوت وعرق ودماء أهل العزبة، اغتصبتها سُلالة من البلطجية بمباركة ولي أمرهم، فأصبحتْ تلك الحقوق المنهوبة لعنة على رأس الباشا، اختنق طيلة حياته بدعاوي المظلومين في الثلث الأخير من الليل، يسألون ربهم باكين مُتضرِّعين أن يمحق رزقه.. ويقطع نسله.. ويُشتت ولده.. ويمد في عمره ليرى من العذاب ضعفين، وأن يصبح القصر الأسود قبره، هذا الدين سيعود لأصحابه، وإلا انتقلتْ إلينا لعنة دعاء المظلومين!

صاحت به «درية» هانم تستنكر فكرة التخلي عن الكنز من أجل أهل العزبة:

- كيف تكون هذه المقبرة الفرعونية هي حق أولئك الفلاحين وحدهم؟! إنها ميراثنا جميعًا من أجدادنا الفراعنة.

- لا توجد مقبرة فرعونية، ولا يوجد ما يُسمى بالزئبق الروحاني الأحمر، كلها مجرد خرافات اخترعتها عقول النصابين ليصدقها الجُهلاء!

لم تصدق «درية» هانم كلمات «عادل»، تعرف أن الزئبق الروحاني مادة موجودة تُباع بمئات الآلاف، اتهمته بالكذب، فبصَّرها بالحقيقة كي يُبرِّئ نفسه:

- بمقبرة فرعونية أثرية لأحد كبار قادة الجيش في مصر القديمة.. اكتشف أحد الأثريين في التابوت أسفل القائد زجاجة بها سائل لزج يميل إلى الاحمرار، هذه الزجاجة هي السبب في كل ما يُشاع عن الزئبق الأحمر الروحاني واستخدام السحرة له في السيطرة على جن استخراج الكنوز، ولا يفلح الساحر حيث أتى!

ثم أردف بأسف:

- وقع الباشا ضحية للدجل والخرافات؛ بحثًا عن الثراء السريع، أمضى حياته بحثًا عن تلك المادة، علم بذلك القاصي والداني، فاستغل «الأعور».. أو لنقل استغلَّتْ أمه اليهودية شغف الباشا على النحو الأكمل، فالإنسان أسير شهواته!

ندَّ عن «شحاتة» صوت أنين وكأنه يُنازع الروح، هرع جميع الأحفاد صوبه، جسده الضخم الذي يشق على رجل واحد حمله، توزَّعتْ مشقته على الأحفاد فباتتْ المهمة أقل صعوبة. صعدوا به إلى المطبخ، أجلسوه فوق المقعد الذي كان «عادل» مقيدًا إليه منذ قليل، أعطته «حرة» كوبًا من الماء وهي ترنو إلى «عادل» بأنظارها وتسأله بفضول لم تستطع كبح جماحه:

- ما علاقة «براخا» اليهودية بالباشا؟

بعدما اطمأنَّ «عادل» على مؤشرات «شحاتة» الحيوية، التفتَ إلي أبناء عمَّاته قائلًا:

- ورث الأعور الأوسط زوج «براخا» اليهودية عن أبيه سبائكه الذهبية التي جمعها من اغتصاب حقوق الفلاحين، جار على حقوق أخوته في الميراث ووضع يديه على السبائك وحده، وبعد أن جمع من أهل العزبة ثروة هو الآخر أراد إخفاءها عن الجميع، حتى عن زوجته نفسها إذ عَرفَ عنها الطمع والجشع، أراد إخفاءها في مكان لا يصل إليه أحد.

عرف الأعور الأوسط من أمه، وأمه من جدتها التي كانت تعمل في قديم الزمن خادمة بالقصر، أن تحت المطبخ حجرة بها مخبأ سري كان يتخفَّى فيها أجداد الباشا من أعدائهم، وهذه الحجرة صارت نسيًا منسيًا، لا يعرف عنها أحد شيئًا، ولا الباشا نفسه؛ إذ تربَّى في صباه وشبابه بربوع أوروبا، ولم يرجع إلى مصر إلا بعد أن أصبح الوريث الوحيد للقصر.

التقطَ أنفاسه ثم استطرد:

- في هذا المخبأ السري أخفى الأعور الأوسط كل السبائك الذهبية، دون أن يخبر أحدًا سِر فتحها، إلا ابنه الوحيد الذي أودَع فيه كل ثقته، وأراده نسخة عنه وعن أبيه فيستكمل مسيرة سُلالة الأعور التي لا يقهرها أحد.

لكن الأعور الأوسط أنجب ابنًا غبيًا، بعقله لوثة، لم يكن ذكيًا كأبيه وجده.. يُغالب جشعه عقله.. ذاكرته كذاكرة سمكة؛ فاضطر أبوه إلى أن ينقش له فوق الجدران طريقة فتح ذلك المخبأ السري كي لا ينساها.

همستْ «حُرة» وقد فهمتْ كل شيء:

- تلك الطريقة هي المفتاح الذي يبحث عنه الجميع!

استطرد «عادل» يستكمل الحكاية:

- وعندما مات الأعور الأوسط تسلَّم الأعور الصغير الزعامة بدلًا منه، ونجحتْ «براخا» في استدراكه ليخبرها عن مكان إخفاء سبائك الذهب، لكنه لم يخبرها قط بطريقة فتحه، ولا أنها منقوشة فوق جدران الحجرة السرية.

لغباء وضعف الأعور كاد أهل العزبة أن يستقووا عليه، ويُنزلوه عن عرشه، هنا تدخلَّتْ «براخا» وحاكتْ خدعتها الخبيثة. يعرف الجميع أن «براخا» تعمل بالسحر، لكنه سحر المكر والخديعة، أقنعتْ الباشا أنها ساحرة تخاوي الجن.. وأن أحد خُدَّامها من الجان أخبرها أن أسفل حديقة القصر مقبرة فرعونية بها الزئبق الروحاني الذي ظل لسنوات يبحث عنه في الأماكن الأثرية دون جدوى، وضعتْ القليل من سائل أحمر لزج خلطته بنفسها داخل زجاجة ودفنتها في حديقة القصر، ولما عثر عليها الباشا بمساعدة ابنها طار عقله من الفرح، وباتَ أسيرًا لكل مطالبها.

أخبرته «براخا» أن ما وجده من قطرات قليلة لا يكفي لإرضاء جن استخراج الكنوز، وأن عليه الحصول على كمية أكبر، فحفر الباشا حديقته شبرًا شبرًا، اقتلع أشجارها وزرعها، حتى أصبحتْ صحراء جرداء، دون أثر لأي مقبرة. لجأ إلى «براخا» وناشدها أن تحاول إقناع الجن بقبول تلك القطرات القليلة، وبعد إلحاح كبير وافقتْ، ثم أتته في اليوم التالي لتخبره أن الجن وافق بشرط أن ينجب الولد! لا من أي امرأة بل من إحدى فلاحات عزبته.

أرادتْ «براخا» أن يكون الباشا هو السوط الذي تضرب به ظهور رجال العزبة، والعصا التي تسوقهم بها.

اختارتْ ابنة الشيخ «شلش» كي تنتقم من الرجل الذي أفسد عملها في الربا بعد موت زوجها، وصار يخطب في الناس ويأمرهم بالمعروف أن يجتنبوا مالها القذر، أرادتْ الإطاحة بقوته وعزته، ولمَّا مات ذليلًا في سوق القرية بعد زواج الباشا من ابنته غصبًا، أقامت في بيتها وليمة كبيرة، ودعتْ لها كل جيرانها!

أنجبتْ ابنة الشيخ «شلش» بنتًا ميتة -أو هكذا ظن الجميع- وبعدما ماتت الفتاة محروقة داخل القصر، تفاجأ الباشا بتلك الحادثة، رغم أن الجميع قد اتهمه بقتلها لكنه لم يفعل قط، أخبرته «براخا» أن الجن غضب منها؛ لأنها لم تنجب الولد فحرقها بناره!

أعجبتها اللعبة، فقالت للباشا إن عليه الزواج من فلاحة ثانية، فالأولى لم تنجب له الولد، ولن يرضى الجن إلا بالولد؛ تزوج الباشا فلاحة ثانية، اختارتها «براخا» بعناية، كانت حفيدة لأحد المتمردين الذي ما يزالون يأمرون الناس بالمعروف وينهونهم عن المنكر!

أنجبتْ المرأة بنتًا، وماتت حرقًا، مثلما ماتت ابنة الشيخ «شلش»، لكن قصتها كانت مختلفة.

زوجته الثانية كان الجميع يدعوها بـ «أم الخَلاخيل»؛ لأنها تُحب ارتداء الخَلاخيل، بزواجها غصبًا من الباشا علمتْ أن مصيرها هو الحرق حية مثلما حدث لابنة الشيخ «شلش»، تلك الفتاة كانت خبيثة في عرقها جشع، لم تكن بشجاعة ابنة الشيخ «شلش»، كانت

تعرف بأمر ثروة عائلة «الأعور» التي اختفت دون أن يعرف أحد مكانها، وتعلم أن تلك العائلة لا تثق بالبنوك قط، خاصة بعد فضيحة «البنك المصري العام»[1] سنة ١٩٣٢، حينما اتضح أن مؤسسَه الذي أسهَبَت الصحف في الحديث عنه لم يكن سوى نصاب من الطراز الأول، التهم أموال الناس ومدخراتهم، وترك خزائن البنك خالية على عروشها.

فكَّرَتْ الزوجة الثانية للباشا أن الثروة حتمًا مُخبَّأة في مكان بعيد عن الأنظار، أثناء إقامتها بالقصر انتبهَتْ إلى زيارات «الأعور» المريبة إلى المطبخ في الليل، فتتبعته ذات مرة، وعرفتْ أن بجدار المطبخ درَجًا يوصل إلى قبو أسفل القصر، رأته ينظر إلى المفتاح الذي نقشه له أبوه على الجدار كي يتمكن من فتح المخبأ السري؛ فللأحجار ترتيب معين يجب أن تتحرك به لينفتح باب المخبأ السري، وهذا الترتيب كان منقوشًا على الجدار بالأرقام، التي لم يتعلم الأعور سواها، بعدما انفتح المخبأ السري رأت «الأعور» يمسك بسبائك الذهب ويتحسسها ويضيف لها قطعة كان قد أخفاها في ثيابه.

ابتعدتْ دون أن ينتبه لها، وحين خرج من الحجرة السرية وفارَق المطبخ فعلت كما فعل، نزلت الدرج، وهناك رأت على الجدار المفضي إلى المخبأ السري على الجدران الأرقام المحفورة، حفظتها في رأسها، وأزالتها من فوق الجدار بحجارة، محتْ آثارها تمامًا!

ومن سوء حظها أن عاد «الأعور» مرة أخرى، رآها تدخل المخبأ السري وتقترب من السبائك الذهبية، اندفع صارخًا نحوها بغضب، فرَّتْ الفتاة محاولة النجاة بنفسها، لم يتبعها الأعور على

(١) ليس له علاقة ببنك مصر.

الفور؛ إذ انتبه إلى النقوش المطموسة فوق الجدار فاشتعل غضبه وحاول فتح المخبأ السري بدفع الحجر دون ترتيب، فأصابه ذلك الشيء الذي حذَّره منه أباه دومًا: «لا تحاول فتح المخبأ دون مفتاح، إن حاولتَ فتحه بطريقة خاطئة سيخرج من بين الحجارة سائل حمضي حارق يشوي الوجوه».

لكن السائل الحارق لم يشو وجهه عندما حاول دفع الحجارة بترتيب عشوائي، بل اندفع مباشرة داخل عينه يُصفي ماءها تمامًا!

عرفَتْ زوجة الباشا أنها ميتة لا محالة، هربت مع طفلتها إلى العزبة، وهناك أرادتْ أن تُدوِّن هذا المفتاح كي لا يسقط من عقلها، وكانت تُحسن قراءة الحروف والأرقام وكتابتها، فخلعتْ خُلخالها عن ساقها، وأزالتْ القطع الصغيرة التي تُزيِّنه، ثم أخذتْ سلك نحاسي عثرتْ عليه، وصنعت منه أرقامًا بترتيب الأحجار، ثم علَّقتْ تلك الأرقام الصغيرة في خلخالها، ولفَّته حول قدم طفلتها الرضيعة ثلاث مرات. لم تجد من تلجأ إليه سوى عائلة الشيخ «شلش» المعروفين بأمانتهم، استودعتهم الطفلة بعد أن أخبرتهم بحكايتها.

أرادتْ الهرب من العزبة وحدها إلى أن يهدأ الأعور وينسى أمرها، ثم تعود لتأخذ طفلتها والسبائك الذهبية.

لكن الأعور صادفها في الطريق وجرَّها حتى باب القصر، وهناك فعل بها ما فعله بالزوجة الأولى أي جدتي، حين أحرقها حية داخل القصر وزيَّن بعظامها بابه، أخبَر الباشا أن الجن غضب للمرة الثانية؛ لأنها أنجَبَتْ له بنتًا!

هنا نظر «عادل» إلى «حُرة» التي تتساقط عبراتها فوق وجنتيها بصمت وقال بأسى:

- تلك الطفلة هي أمك يا «حُرة»، كانت عائلتي على استعداد كي يحموها بأرواحهم، أرادوا لها أن تتربى مع أخيها.. أبي، لكنهم خافوا أن يعرف الباشا أنها ابنته خاصة أنه رآها عدة مرات قبل أن تفر بها جدتك، أرادوا لها أن تحيا بعيدًا عن العزبة.. وعن أبيها الباشا الظالم؛ فوضعوها أمام أحد المساجد الكبيرة في القاهرة، ولم يفارقوها إلا عندما رأوا الإمام يلتقطها ويضمها إلى صدره ويُدخلها إلى صحن المسجد.

انهمرتْ عبراتها تغسل قلبها، ويغسل الندم ذنبها، تمثَّلتْ أمامها كل لحظة لم تعانق فيها ذكرى أمها بحبٍ، تقتص منها انتقام سنوات من القسوة. لا بد أن أمها عانت الكثير حتى انتهى بها المطاف تعيش وسط الفَجَر، وتعمل فيما يعملون فيه، صدق «عادل» حين التمسَ لأمها العُذر بنُبلٍ، وأحسَن الظن في أنها لم يكن لديها حل آخر لتعيش بشرفها، كان «عادل» أبَر بأمها منها، آلمها ذلك مثل سكاكين حادة تحفر خريطة للندم في صدرها.

حثَّتْ «درية» هانم «عادل» على استكمال الحكاية؛ أردفَ «عادل» بوجوم:

- لم تتوقف «براخا»، ليس حبًا في اللعبة هذه المرة بل انتقامًا من الفتاة التي أفقدَتْ ابنها عينه، وأضاعت منها مفتاح الثروة، صار الباشا لُعبة في يد «براخا» اليهودية، تأمره أن يتزوج فيفعل، تأمره أن يغادر القصر فيفعل، ثم تحترق الزوجة التي تنجب له البنت، ويلقي بالطفلة بين يدي عائلة أمها، لكن في تلك الأزمان

كانت القسوة قد عشّشتْ في صدور أهل العزبة، قطّعوا أرحامهم أشد تقطيع، رفضتْ كل عائلة أن تأخذ طفلة الحرام كما كانوا يسمونها، لم يصدق أحد منهم أن الباشا قد تزوَّج ابنتهم زواجًا رسميًا؛ ففتحتْ عائلتي أحضانها لهؤلاء الأطفال، ولضيق حالهم لم يتمكّنوا من تربيتهن، فكانوا يضعوهن تباعًا أمام المسجد الكبير، إلا عائلة أم «محفوظ»، كانت العائلة الوحيدة التي قبلتْ احتضان حفيدتها؛ لذلك تربَّتْ أمه في العزبة، سبحان الله، ويخلق من ظهر التقي فاسدًا!

سبع زوجات متن بالطريقة ذاتها؛ ازداد خوف أهل العزبة من الباشا، ومن الأعور القادر على خطف بناتهن من أحضانهن! لم تتوقف «براخا» إلا عندما سقط الباشا مريضًا، ليس مرضًا جسديًا بل مرضًا أصاب روحه، جعله يُحاول الإقدام على الانتحار عدة مرات فينجده أحد خدمه، وكأن لعنة ما قد أصابته، وأول من انقلب عليه «براخا» وابنها، نفى ابنها في بطون السجون تائهًا لأكثر من أربعين سنة عاشت خلالهم «براخا» على أمل كبير.. أن يظهر المفتاح، كانت على ثقة من أن ابنة الفتاة الجشعة التي أذهبت بعين ابنها ستعود ذات يوم لتضع يدها على الثروة وحدها، وانتظرتْ بأمل لا ينقطع.

عاد ابنها أخيرًا من غيبته.. جدد أملها.. وحاكت معه خطة جديدة، استغلتْ فيها سذاجه البرنس وجشعه للمال بعد أن أضاع كل ماله في نوادي القمار ورهانات سباق الخيل، وغرق في ديون تفوق قامته، انتعشتْ فيها روح الساحرة الماكرة مرة أخرى، وأقنعتْ البرنس بقصة الزئبق الروحاني التي كان يعرف أن أبيه مؤمن بها.

أخبرته أن الباشا كان قاب قوسين أو أدنى من تسخير جن استخراج الكنوز، وأنه وحده سيتمتع بهذا الكنز مقابل أن تنتقم من المرأة التي أفقدتْ ابنها عينه، أو تنتقم من أبنائها.. أو أحفادها، فالشخص الوحيد الذي يملك مفتاح المخبأ السري سيكون حفيد هذه المرأة، لكن «براخا» امرأة كاذبة، كانت ستحصل على الكنز لنفسها، لم تكن لتترك للبرنس جرامًا واحدًا من الذهب.

لم تعرف «حُرة» أن المفتاح كان معها طيلة الوقت، ملتف حول ساق أبيها، ولا أظن أن أمها طيلة حياتها كانت تعرف سر هذا الخلخال البسيط، أظن أنها احتفظت به لأنه الذكرى الوحيدة من أهلها الذين لا تعرف عنهم أي شيء.

والمؤسف في الأمر أنهم استغلوا «محفوظ» في لعبتهم، كانوا بحاجة لعين تراقبنا وتنقل لهم أخبارنا، لا أظن «محفوظ» يعرف كل شيء أخبرتكم به، ما يحركه الجشع هو الآخر، فقد وعدوه بالفوز بالقصر إن ساعد في الإيقاع بصاحب المفتاح.

وبشكل ما أقنعتْ «براخا» البرنس بحبس الباشا داخل القبو، وإعلان خبر موته، حتى أنا سَرَتْ الخدعة عليّ وصدَّقتُ أن الباشا مات فعلًا، يبدو أن البرنس أراد تأمين نفسه جيدًا، فإذا ما فشل في العثور على المفتاح بعد جمعكم وإخباركم أنكم أحفاد الباشا مؤكد أنكم ستفكرون في الطعن بالوصية والمطالبة بحصصكم من القصر، ولم يكن البرنس ليخاطر بهذا أبدًا؛ لذلك أبقَى الباشا على قيد الحياة ولم يقتله.

نزلوا القبو مرة أخرى بعد تحسن «شحاتة»، تأملوا الجدار الحجري، أحجار كبيرة مُتراصة فوق بعضها في أربعة صفوف، بدتْ لهم تلك الأحجار قابلة للحركة بالضغط عليها إلى الداخل. تحرَّك «عادل» أمامهم دون مُعارضة من أحد، ضغط على الحجارة بالترتيب الذي حفظه، بعدما فشل في نزع الخلخال من قدم والد «حُرة».

انفصلتْ الحجارة عن بعضها وكأنها مصراعا نافذة، ومن خلفه فتحة كبيرة مُظلمة، أمسك «عادل» بمصباح الجاز وقرَّبه من الفتحة الكبيرة، تساقَط الضوء فوق سبائك الذهب، فتلألأ بأشعة مُبهرة خطفتْ أبصارهم.

«فؤاد» هو أول من قطع حبال الصمت:

- لماذا نساعد هؤلاء الفلاحين؟ إنهم جهلة.. ضعفاء.. أغبياء.. أحنوا رقابهم وعاشوا في ذل وهوان، لماذا نساعدهم ونُعيد إليهم أموالهم إن كانوا هم بأنفسهم لم يسعوا لاستعادتها؟!

تنهد «عادل» بعمق، ثم قال:

- هل تظن أنني لم أقل لنفسي هذا الكلام من قبل؟ كم مرة قلت لنفسي إنهم يستحقون الذل والفقر والهوان، يستحقون أن يتسلط عليهم الأعور وأمه، لماذا تساعدهم؟ لماذا تسترد لهم حقوقهم؟ وبعد تفكير طويل وجدت الجواب، نحن سنأتي الله يوم القيامة فرادى لا جماعات، سنُحاسَب فردًا فردًا، كل واحد عن عمله، سأجد في صحيفتي عملي أنا لا هوانهم وذلهم وخنوعهم، لا أدافع عن الحقوق المهدرة لأن أصحابهم يستحقون، بل لأن هذا هو دوري كخليفة لله على الأرض، الغاية التي نسعى لها هي إقامة العدل، ثم لعل منهم رجلًا ضعيفًا ينكر المنكر بقلبه لعجزه عن أن ينكره

بلسانه، لعل فيهم رجلًا صالحًا أكرمهم الله من أجله، لعل فيهم بذرة طيبة إن سُقيتْ بالعلم والحقيقة أنبتتْ وأزهرتْ نباتًا طيبًا، إن كان الطاغية يُراهن على جهل الجهلاء، فأنا سأراهن على فطرتهم الطيبة!

دنتْ «حُرة» من الفراش، تأمَّلتْ الرجل الراقد فوقه، تنظر إلى عمق عينيه، تسأله سؤالًا واحدًا:

- لماذا؟

سمعتْ «عادل» يقول من خلفها:

- أراد الثراء السريع.

التفتتْ له مستنكرة:

- ثراء سريع! الباشا ثري أصلًا.

- كلما زاد ثراء الإنسان تضوَّر جوعه إلى المال.

تمتمت هامسة وهي ترمق بإشفاق بقايا الإنسان المتهالك فوق الفراش: «اللهم ارزقنا الشبع!».

اقتربتْ «درية هانم» من فراش جدها، تنظر له بعينين دامعتين، لو كان موجودًا في حياتها يرعاها حق الرعاية، لما اضطرَّتها أمها للزواج من رجل لا ترغب به، ولما عانت وأختاها مرارة الفقر. يصعب عليها التخلِّي عن الذهب من أجل الفلاحين، لكن شيئًا واحدًا دفعها لأن تفعل، لا تريد أن يكون بين بناتهم «درية» هانم أخرى.

قالت لجدها بوجوم:

- كنتَ عاقًا بأبنائكَ وأحفادكَ يا جدي، وها هو دين العقوق يُرد لكَ، العقوق دين لا يسقط بالتقادم! يُرد إلى صاحبه مهما طالتْ السنون، افتح صدرك يا جدي وعبئه بعقوق ابنك البرنس، هل اكتفيتَ أم تقول هل من مزيد؟

على ضوء مصباح الجاز ثمة دمعة تند من عين الجد وتتساقط ببطء، شربتها على الفور الوسادة القذرة، فاختفى صفاؤها في عمق الوَسَخ! لعله أدركَ أن ديون الظلم لا تسقط بالتقادُم، تتعلق في رقبة الظالم وتصحبه داخل القبر، وأن مُحقرات الذنوب تهلك صاحبها، لكن هذا الإدراك جاء في وقت متأخر.. متأخرًا جدًا.

لكل معصية شؤم، وشؤم المعاصي يستجلب لصاحبها الابتلاء، تضرب عليه بالذلة والمسكنة، وتورثه وحشة القلب.. شتات النفس.. فساد الرأي.. عمى البصيرة.. ضعف الهمة.. وهن البدن.. قلة الرزق.. سوء المقصد.. خلل البيان.. زوال النِعَم وحلول النقَم!

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1]

سمعوا صوت مصعد الطعام ينزل ببطء، انفتح بابه ليكشف عن البرنس الذاهل، أصابه ذُعر شديد إذ كشفوا أمره، وقبل أن يندفع «فؤاد» ليمسك به، أغلق باب المصعد وعادَ من حيث أتى.

دنا الأحفاد من الفراش، تجمَّعوا حول جدهم الباشا، يقررون كيف سيردون له دين العقوق!

---

(١) سورة الروم، الآية ٤١.

في الخارج يقوم «الأعور» وأمه بحملة أخرى في المعركة ذات الأنفاس الطويلة، التي لا تموت بموت أصاحبها، بل تُورَّث من جيل إلى جيل.. معركة السيادة!

يظن كل فريق أنه شعب الله المختار، وأنه مبعوث إلهي من أجل إقامة العدل، لكن أي عدل؟ عدله الخاص حسب فهمه وقناعاته، أم عدل ربَّاني أنزله الله في كتابه؟!

جاءَتْ «براخا» مُحمَّلة بالحقد والغضب، تُدافع عن حقها في السيادة، على يمينها الأعور ابن بطنها، وعلى يسارها «محفوظ» ابن المصلحة الذي خرج من رحم النفعيَّة، ومن خلفها يقف فلاحون عزبة «العبيط» كرتوش تُكمل الصورة.

تعرف أنهم لا يغضبون، لا يثورون، فلجأتْ إلى حيلة لا تخيب من أجل جلبهم حتى باب القصر، حرَّكَتْ شهوات الشبع بداخلهم، اضطرتْ أخيرًا إلى إظهار أنيابها، وعرض مقاصدها الحقيقية في سوق الأفهام، لكن أي أفهام؟! أهل العزبة لا يغضبون؛ لأن عقولهم غارقة في سُبات الجهل!

ضَربتْ كرباج زوجها فوق ظهر الأرض سبعًا، فتألَّمتْ الأرض أربع عشرة مرة، رفع الفلاحون أصواتهم المتحشرجة من كثرة السكوت، تعلو شيئًا فشيئًا على استحياء، يطالبون أحفاد الباشا بالخروج.

وصل الصوت عبر فتحات التهوية إلى أسماع الأحفاد الستة فخرجوا في وَجَل، أخذ المشهد المهيب بدهشتهم، الفلاحون يحملون شعلات نار تتأجج في ظلمة الليل، لا يند عنهم مطلب ولا رغبة، كأنهم نسوا كيف تكون المطالب والرغبات، أما «براخا» كانت تعرف جيدًا ماذا تريد، أرادتْ القصر، وكل ثروة مُخبَّأة في بطنه، وكذلك يعرف «محفوظ» ما يريد، يود أن يكون سيدًا على القصر، وإن لم يسكن القصر سوى الخدم

والحاشية، وإن فارقه الخدم والحاشية وسكنته قافلة من الحمير، يكفيه أن يكون السيد فحسب، حتى وإن كان سيد الحمير!

تقدَّم «عادل» أبناء عمَّاته، أمرَ «براخا» بالتراجع، لم يوجه حديثًا لمن معها، يعلم أنهم أتباع يسوقهم صاحب العصا. قابلَتْ «براخا» مطلبه بالسخرية، وأمطرته بوابل من السباب، أمرته أن يغادر القصر ومن معه، أبَى أن يترك كل مسعاه يذهب أدراج الرياح.

جاءَتْ «براخا» على أمل أن الأحفاد متفرقون، مُشتتون، لا تستقيم لهم كلمة، ولا تتوحَّد لهم راية، لكنها تراهم الآن يقفون كتلة واحدة، جنبًا إلى جنب، ونفَسًا بنفَس، مثل البُنيان المرصوص، يُقدِّمون «عادل» عنهم بخطوة.. خطوة المعرفة!

هنا أدركتْ «براخا» أن خروجه لن يكون إلا بالدم، كي تختفي عائلة الشيخ «شلش» من على وجه الأرض، ستنقطع سلالتهم، ولن تجد في المستقبل من يحمل دماءه الفائرة المُأجَّجة بنار الغضب.

لو سقط «عادل» لتساقط باقي الأحفاد بالتبعية، فالغراء الوحيد الذي يجمعهم الآن هو احتياجهم إلى قائد قوي، يقودهم وسط دروب يجهلونها، لو فقدوا الشعلة التي تنير لهم الطريق، لتخبطوا أبد الأبدين في ظلمات الجهل.

حاول «عادل» استجلاب «محفوظ» إلى صفِّهم، أخبره علنًا وكل أهل العزبة أنه حفيد الباشا، وأن أباه القعيد الذي ضربوه ظلمًا وسببوا له عاهة مستديمة هو ابن للباشا، صدَّقتْ على كلماته «حُرة» وباقي الأحفاد واحد تلو الآخر، لم يروا دليلًا.. ولن يروا.. لا يمكن لأي اختبارات دم أن تُثبت صدقه، ربما في المستقبل حين يخترع عالم ما اختبارًا لإثبات البنوة.

الثقة شيء عفوي تبنيها المواقف في لحظة، تأتي معارك الحياة على غفلة، ويضطر المرء إلى اختيار اللواء الذي سيُحارِب تحته، باتَ «عادل» في أنظار أبناء عمَّاته رجلًا أمينًا، عافَتْ نفسه الثروة المُخبَّأة تحت القصر، وقد كان بإمكانه أخذها والهرب، لكنه لم يفعل.

فكَّرتْ «براخا» أنها لو قتلته بنفسها، أو دفعتْ ولدها لقتله لالتفَّ حبل القانون حول رقبتها، لكن لو قتله جميع الفلاحين لن يجسر قاض على أن يقتص من عشرات الأرواح من أجل روح واحدة، فـ «عادل» ليسَ ضابطًا إنجليزيًا ليثور القانون لموته! فما هو إلا فلاح ابن فلاح!

يهمها ألا يفنَى أهل عزبة «العبيط»، أن تظل سُلالاتهم تتناسل من جيل إلى جيل، لم ينزع الأعور الكبير غضبهم عبثًا، لم يُبد الأعور الأوسط سَوْءَة دياثتهم سُدى! أين لها بأهل عزبة مُخنَّثين مثلهم لا يجتاحهم جنون الغضب حين يرون الدماء المسفوكة، والحقوق المُهدورة، والظهور المسلوخة بالكرباج، حين تُغتصب البنات بعقد زواج باطل، حين يحترق الأحياء ويُرصَّع بعظامهم باب القصر؟!

بدأ الفلاحون في التململ، فهم معتادون على النوم باكرًا!

أدركتْ «براخا» أن الوقت قد حان لوضع جزرة في نهاية العصا، صاحت بأعلى صوتها وهي تُشير إلى القصر المهيب الذي تلتمع نوافذة بانعكاس النيران المتوجهة، فتبدو كعيون ذهبية تشتعل غضبًا:

- في هذا القصر تُحف ولوحات وكؤوس من فضة وستائر من حرير، كلها لكم يا أهل عزبة «العبيط».

طار النوم من عيون الفلاحين، برزتْ أعينهم من محاجرها! حتى خُيِّل للأحفاد أن عيونهم ستتساقط بعد قليل في حجورهم. ثم قالت بالنبرة المغوية ذاتها:

- في هذا القصر طعام وشراب، لم يخطر على قلب بشر، كلها لكم يا أهل عزبة «العبيط».

تدلَّتْ ألسنة الفلاحين، اعتَرَتهم نزوة اشتهاء، لشعور قديم اسمه شَبَع؛ تساقط لعابهم فوق صدورهم، لا تتوقف، وكأن نبعه لا ينضب، امتلأ المصب وفاض، حتى خُيِّل للأحفاد أنهم سيغرقوا في بحور لعابهم.

حررَّ «محفوظ» الذئاب الشرسة التي ربَّاها الباشا على الجوع والعطش، سحبهم رجاله بأمر منه ليخرجوا من الغابة التي لم يفارقوها قط، وأدخلوهم إلى الأرض المُحرَّمة عليهم، لم تر الذئاب هذا الكم من اللحم الشهي من قبل، توقظ رائحة اللحم في خيالاتهم أحلام الشبع، أحاطوا بهم كما يُوقِع الصياد الشرِه بفريسة مُنهكة، لم يكن التهامهم تحت عيون القمر صعبًا، لن يسمع صرخاتهم صديق، لن ينقذهم من أنيابهم مُحِب.

لكن «حُرة» لا تعرف الاستسلام!

أمسكتْ بعصا وأخذَت تُهوِّش بها على الذئاب، تُبعدهم، تُصيح بهم ألا يقربوهم، ولمَّا أيقنَتْ أن القوة تغلب الشجاعة خرَّتْ على قدميها باكية. أرسلتْ عينيها إلى السماء تُناجي ربها أن يُرسل لهم من عندِه مددًا؛ ربما طيور تحمل بأرجلها حجارة من نار يلقون بها على الذئاب فتقتلهم، أو لسان برق يمتد من السماء فيحرقهم، أو تهتز الأرض أسفل أقدامهم فتَخسَف بهم، أو تنشق السماء عن صيحة تُبيد جنسهم من فوق الأرض.

أرادتْ «درية» هانم أن تُشاركها الدعاء، سمعَتْ وسواسًا يهمس في رأسها: «من أنتِ حتى يُرسل الله لكِ جُندًا من عنده؟ أنتِ عبدة ضعيفة آثمة، ضالة عن دروب الصالحين، تائهة عن مسالك الزاهدين، لستِ من أولياء الله لينصركِ، لا وزن لكِ في مُلكه العظيم، ألديكِ عمل صالح يستحق أن تتقرَّبي

إلى الله به فيرحمك من مصير أسود؟ ما هو أكبر أعمالك الصالحة؟»، لم تعثر في ذاكرتها على عمل واحد يكفي ليشفع لها، ثم لاح لها صوتٌ حكيم قادم من وجدانها، يُبارز الصوت الأول: هذا وسواس شيطان رجيم يُريد أن يدفعكِ إلى اليأس من روح الله، رب العالمين طيب جوَّاد، عند حُسن ظن عبده به، يُجيب دعوة المُضطَّر والمظلوم وإن كان كافرًا فاجرًا!

فقد أحد الذئاب صبره فهاجم «عادل»، أوقعه أرضًا، وكان هذا بمثابة حُكمًا بالموت، هجم عليه آخر، يتطاير شرر مخيف من عينيه الذهبيتين، يسيل لُعابه فوق ثياب «عادل» بينما يُحاول تمزيقها، ليظفر بلحمه. وقفتْ باقي الذئاب بتحفُّز، تنتظر أن ترى نتيجة صراع الذئبين قبل أن تُبادر هي الأخرى بالهجوم.

اختل اتزان «محفوظ»، ندَّتْ حبات عرق عن جبينه، انسحبتْ الدماء من أطرافه لتتجمع في قلبه النابض بعنف. أراد القصر، لكنه لا يقوى على رؤية الدماء، ولأنه حنون القلب، رقيق الحس، رؤوف الوجدان دار على عقبيه وأولاهم ظهره.. اختار ألا يرى!

اندفعتْ «حُرة» صوب «عادل»، تُطلق صيحة بدَتْ وكأنها تند عن حيوان جريح أصابه الهياج، في صوتها تستعر قوة، ومن عينيها تندلع ثورة! تمد يدها في فم الذئب، تفتح فكه بأصابعها لتُخلَّص «عادل»، لا تأبه للدماء التي سالت منها، هجم أبناء خالاتها على الذئب الآخر، يتعاونون معًا يدًا بيد، ينزعونه عن جسد «عادل».

عوَت باقي الذئاب وقد أدركوا أن الوقت قد حان للتدخل وإلا خسروا وجبة العشاء، ما إن تحرَّكوا حتى اندفع فجأة كبيرهم الرمادي الذي تأخَّر في الظهور، يعوي بشراسة من خلف إحدى الأشجار! حفيد أول

ذئب رمادي تُروِّضه فلاحة ريفية! تراجعت الذئاب خوفًا، إلا أحدهم كان عنيدًا، أصابه العناد بالغباء فعصى أوامر كبيرهم، أصر على التقدم صوب «درية» هانم التي كادتْ تفقد وعيها فزعًا، فحماها «فؤاد» بجسده.

اندفع الذئب الرمادي يقبض بأنيابه على رقبة الذئب العاصي، يجره بعيدًا، ثم يحمله من رقبته ويُلقي به بعيدًا كما لو كان رقعة قماش بالية. لم ينقذ الذئب الرمادي «عادل» إخلاصًا له، فالذئاب لا تعرف الإخلاص، أنقذه لأنه من يُطعمه، فخشى أن يفقد مصدر طعامه!

أصاب «عادل» حين روَّض الذئب الرمادي، أدركَ من البداية أنها معركة ذكاء؛ في عصر ما بعد الكُرباج القوة وحدها لا تكفي!

لمَّا رأوا أهل العزبة كيف يقف الذئب الرمادي الضخم تحت أقدام «عادل» مثل قطة تتمسَّح في صاحبها أصابهم الهلع، تذكروا الإشاعات القديمة عن ابنة الشيخ «شلش» التي استطاعتْ ترويض ذئاب الغابة، ولمَّا ماتت حرقتْ الذئاب الغاضبة بناتهم داخل القصر واحدة تلو الأخرى.

خافوا من الحرق وهم من يمسكون بالنيران!

اندفع «محفوظ» يختطف المشاعل من أيادي الفلاحين، يبر قسمه بحرق القصر إن لم يفز به، أخذ يلقي بها شرقًا وغربًا، فطالت النار نباتات الحديقة وأشجارها. اهتاج أحد الذئاب فحاصَر «براخا» في الزاوية، يتقدم خطوة بعد خطوة، يتخير الموضع المناسب لينهش جسدها، وقد أدركَ أنها الجانب الأضعف في المعركة، فالذئاب عبيد الأسياد الأقوياء فحسب.

«براخا» التي لا ترغب في الموت دفعتْ بـ «الأعور» في اللحظة التي قفز فيها الذئب مُهاجمًا إياها، افتدتْ نفسها بولدها! أخذَ يستنجد بها، يستحلفها أن تُخلِّصه من أنياب الموت، دسَّتْ «براخا» جسدها خلف

صفوف الفلاحين الذين ماتت فيهم الإنسانية وأضحوا مسوخًا، تحتمي بأجسادهم البليدة، وبعقولهم الخاوية.

لم ترغب باقي الذئاب في العودة خالية الوفاض، انقضوا على الفلاحين كل ذئب يختطف رجلًا، يجره أرضًا ويغرس أنيابه في عروق رقبته، صرخاتهم تُمزِّق رداء السماء، اندفع أحفاد الباشا يحاولون إنقاذ الفلاحين من أنياب الذئاب، لون الدم الذي تحنَّت به أرض الحديقة أيقظ عقول قِلة من الفلاحين، وأخرجها من سُبات الرضا!

أشعل في نفوسهم مشاعر قديمة اسمها «غضب»، فعاونوا أحفاد الباشا على إنقاذ جيرانهم وأقربائهم من الأنياب التي تنهشها، ضربوا رؤوس الذئاب بالنبابيت والحجارة حتى قتلوا منهم خمسة. كان بعض الفلاحين بحاجة لمُحفِّز حاسم ليستيقظ «غضبهم»، كانوا بحاجة إلى قدوة! وفي تلك اللحظة رأووا في «عادل» وأحفاد الباشا القدوة التي اشتاقوا إليها طويلًا.

أول من صبَّ عليه الفلاحون الثائرون جام غضبهم كان المسئول عن حمايتهم، ورئيس نقطة عزبتهم، التفوا حول «محفوظ» يقتصُّون منه للدماء التي سالتْ أسفل أقدامهم، أعماهم الغضب الوليد بداخلهم، غضب بِكر لم يتعلموا بعد كيف يسيطرون عليه، ويجهلون كيف يصلون به إلى دروب العدالة، دفعوا بـ «محفوظ» نحو أحد الذئاب الجائعة؛ سارَع أحفاد الباشا بقتل الذئب، و إنقاذ حياته بعد أن غرَز الذئب أنيابه عميقًا في وجهه، اندفعتْ الدماء من وجهه بغزارة مع سن مُهشَّم سقط أرضًا، لم يسمح لهم «محفوظ» بتضميد جراحه، اندسَّ بين جموع الفلاحين وفر هاربًا!

سمع الجميع صيحة قوية من أعلى القصر، اتسعتْ أعينهم فزعًا يتطلعون إلى جسد البرنس الذي يهوي أرضًا وتتفجَّر منه الدماء.

صاح فلاح يحتمي ببوابة القصر في ذُعر:

- القصر الأسود ملعون كما أخبرنا آباؤنا وأجدادنا، إنه يقتل ويحرق!

ولم يُفكِّر أحد منهم أن القصر ما هو إلا بناء من طوب وملاس، وأن الملعون هو سيده!

البرنس الذي لم يتحمل الإفلاس وخسارة مكانته بين أصحاب الألقاب قرر إنهاء حياته بنفسه قبل أن تُنهيها الديَّانة، بعدما باع كل ممتلكات الباشا بعقود مُزوَّرة، إلا القصر الذي رَهَن الكثير من تحفه ولوحاته.

وفي تلك الليلة عندما خلَتْ الحديقة من الأحياء، عادَ الذئب الرمادي إليها، وفازَ بجثة البرنس وحده، مكافأة نهاية الخدمة!

(((الزمن)))

تساءَلَتْ شجرة «الصفصاف» في ضيق:

- لماذا يفعل البشر ذلك ببعضهم البعض؟ لماذا لا يكونون مثلنا لا يُخطئون؟

أجابها الزمن:

- لأنهم مخلوقات لها حُرية الاختيار، حينما عرض الله الأمانة على الأرض والسماء والجبال، وخيَّرهم بقبولها أو رفضها، بشرط إن أحسنوا أثيبوا وإن أخطأوا عُوقِبوا، رفضوا حملها، لم يقبل بحملها سوى آدم عليه السلام، تحملها ذريته من بعده، فالأمانات تُورَّث، والعهود تُورَّث، مثلما يُورِّث البعض لأبنائهم شؤم المعاصي والظلم والطغيان.

تساءلتْ شجرة «الخشخاش»:

- وما هذه الأمانة يا زمن؟

أجابها الزمن:

- طاعة اللهِ وأداء فرائضه واجتناب المُحرمات، الصلاة أمانة.. الصيام أمانة.. بر الوالدين أمانة.. الوفاء بالعقود أمانة.. كلمة الحق أمانة.. نصرة المظلوم أمانة.. وصلة الرحم أمانة.

ارتعد فرع «الكافور» الوليد من هول ما سمع، لا يفهم كيف اختار الإنسان أن يحمل هذه الأمانات كلها، ثم يُضيعها بسهولة دون أن يرف له جفن، ألا يخشى عقاب الواحد القهار؟!

سبَّحتْ أشجار الغابة بحمد ربها، بفضول تساءَلَتْ شجرة «الصفصاف» الحالمة بسذاجتها المعهودة:

- وماذا سيحدث لشرير الحكاية يا زمن؟ هل ستموت «براخا» وينتهي شرها؟

- أنا لا أعرف المستقبل يا شجرة «الصفصاف»، فالغيب لدى علام الغيوب.

- يُمكنكَ التخمين يا زمن، أنتَ تعرف الماضي والحاضر أكثر منا؛ فذاكرتكَ تفوق عُمر أشجار الغابة.

أجابها الزمن بحكمته المعهودة:

- سواء ماتت أم لم تمت.. ستُورِّث الحقد والجشع لأولادها وأحفادها الأحياء، لن تنتهي شرور الأرض حتى يوم فنائها، طالما الإنسان يعيش في هذه الدنيا فالخير والشر لن يتوقفا عن التصادم، الغلبة للخير حينًا وللشر حينًا حتى تقوم الساعة، فيخرج يوم القيامة عنق من النار، على هيئة رقبة طويلة، له عينان يُبصر بهما، وأذنان يسمع بهما، ولسان ينطق به، يقول: «وُكِّلتُ اليوم بكل جبار عنيد»، الظالم الذي كان يعرف الحق في الدنيا لكنه أنكره.. وجحده.. تكبَّر.. وعانَد.. أفعاله لا تموت، إنما يُرسلها لنفسه في زمان آخر، سيكون القاضي فيه هو «العدل» بنفسه.

نامتْ أشجار الغابة بعدما انتهتْ الحكاية، لم يبق سوى الفرع الوليد، يُفكر في الحكاية التي سمعها، وقد أدمن سماع الحكايات، ناشد الزمن

كي يحكي له حكاية جديدة، عن فتاة أخرى، وقصر آخر، في مكان آخر، فهمس الزمن كي لا يوقظ بصوته الأشجار:

- حسنًا يا صغيري، سأحكي لك حكاية جديدة، فحكاياتي لا تنفد أبدًا.

تساءل الفرع الوليد ببراءة:

- هل في الحكاية الجديدة خير وشر؟

- نعم يا صغيري، لا تخلو حكايات الدنيا من الخير والشر، المهم.. إلى أي الطرفين ينتمي أبطالُ الحكاية؟!

٢٣ يوليو ١٩٥٢

دقَّ قلبها وشم الفرح، وحنَّتْ كفَّيها الأحلام، تجلس فوق ربوة عالية، تنظر بهيام في عيون البحر، لم تسبل الأزرق فوق جسدها؛ كانت روحها مُعبَّأة به.

الموج يُعانق الصخور، يُقبِّلها، يغسل أدرانها، يتطاير رذاذه فوق قدميها، يُغازلهما، ويُهدهد كفَّيها، تُجفِّف الشمس حِبر البحر بعد أن كتب قصيدة حب فوق حلقة ذهبية تُطوِّق إصبعها.

تعب رأسها، فتوسَّد صدر سيد قلبها، أوَّل من فضَّ ختمه، وتربَّع فوق عرشه حبيبًا لا تَعصي له شوقًا، تتكسَّر على صدره مثل الأمواج، تتفتَّتْ صدَفتها، وتتكشَّف بضاعتها من الخيبات والأحلام المُجهَضة، يشتريها كلها بحفنة أمل.

لأشهر اعتادا الهرب إلى البحر كل ضيق، يغسلان همومهما في مائه، ويُكحِّلانٍ عيونهما ببهائه. لا تخلو الحياة من هم وغم، وضيق ومُر، لا يهوِّن صِعابها، ويُجمِّل أحراشها إلا رفيق الأحلام ووليف الأيام.

لم تعرف الحب الحقيقي إلا حين ارتوَتْ من بحوره، لما يشبه رسمًا حبَّرته خيالاته، ولا أمنية اشتهتها بقلبها، كان جنونيًا لا يسكن سطحه، أحيانًا يعانقها كموجة مد عالية، وأحايين تُبخِّر حرارة الحياة بعضه، فينحسر المد، لكن نبع البَحر أبدًا لا ينضب، يعود ليُشكِّل موجة عالية تُعانقها من جديد.

قررتْ أن تدخل امتحانات الابتدائية هذا العام، ألحقَ «عادل» اسمها بصفوف إحدى المدارس الأهلية، يتوهَّج قلبها حماسة كل صباح وهي تصدح مع التلاميذ بالنشيد الوطني[1]:

وطنُ الحُرّ سَمَا لا تُمتَلَك والفتى الحُرُّ بأفْقِه مَلَكْ

لكِ يا مصرُ السلامة وسلامًا يا بلادي

إن رَمَى الدهرُ سِهامَه أتَّقيها بفؤادي

واسلَمي في كلِّ حين.

يعكف «عادل» على تدريسها وتعليمها ما فاتها، تقرأ عليه ما تحفظ، وتستفهم منه عما تجهل، يُمسك بكفَّيها ويقودها برحمة بين بطون الكتب، وعلوم السابقين. كان لها بحرًا ترتوي منه ولا ينفد، وكانت له شمسًا تُضيئ وتُدَفئ، تمسح بكفوفها عن جبينه عرق الأيام، وسُهد لياليها. لم تعد تفزعها أصوات الذئاب، ولا البشر وهي تنام إلى جواره، ليس لأنه رجل خارق، بل لأنها تعرف أنه يُضمِر لها الحُب، حبًا مُقدسًا يستوجِب الحماية والرعاية والدفء والإيثار.

فتح لها على العالم نافذة صغيرة، وأطلعها على مُستجَّدات الأخبار في تلك الأشهر القليلة؛ أصبحت «إليزابيث» الثانية ملكة بريطانيا، بدأ سريان معاهدة سان فرانسيسكو وإنهاء احتلال اليابان، عاد «الجنرال باتيستا» لتولي السُلطة في كوبا، ووضَعت ثورة «بوليفيا» استراتيجيات جديدة في التعامل مع السكان الأصليين والنساء.

صنع لها فوق سطح القصر «غِيَّة حمام»، وأودَع فيها أنواعًا نادرة مثل: «البلق» و«الصوافة» و«القزاز»، اتخذ منها وسيلة للتربح، وهواية تشاركا في حُبها.

(١) كلمات مصطفى صادق الرافعي.

يأخذها في المغربية إلى محلات شُرب «البوظة» في باب الشعرية، المكان الذي اشتهر بطفولة الموسيقار «محمد عبد الوهاب»، يمران بالأطفال في الحارات، البنات يلعبن «الحجلة»، والأولاد يلعبون «عسكر وحرامية»، وبعضهم يكتفي بالمشاهدة وهم يتغنون بـ: «يا عزيز يا عزيز كُبَّة تاخُد الإنجليز».

وفي ساحة باب اللوق يمران على بائع الذرة وهو ينادي: «يا ذرة عالي يا مشوية»، فيبتاع اثنتين يأكلانهما أثناء مشاهدة خيال الظل وألعاب الحواة. تتعلَّق «حُرة» بصندوق الدنيا، وتُعلن عن رغبتها في مشاهدته حين يُنادي صاحبه: «قرَّب واتفرَّج على صندوق الدنيا، يلَّا يا شاطر أنتَ وهوَّ». يجلب لها «عادل» حلوى «كعب الغزال» كل مساء، وحين تُخفي فرحتها وتسأله: «أتظنني طفلة؟»، يُجيبها بحنان:

- نعم، أنتِ طفلة قلبي.

تُساعده في العناية بأشجار الحديقة وأزهارها وهي تغني:

أنا كنت صياد سمك وصيد السمك غيِّة
ونزلت بحر السمك أصطاد لي بنيَّة
وعجبني شكل السمك في البحر حواليَّه
واحدة بياض شِفتشي والتانية بُلطية
والتالتة من بدعها سحرِت مراكبية
يا مَحلى صيد السمك واللعب في المايه
يا ريت فردت الشَبك واصطدت لي شوية[1]

(١) كلمات مجهولٌ كاتبها، غناها محمد أفندي العربي.

عادا إلى القصر دون تأخير، استقبلهما الجميع بحفاوة، كأنهما غابا لأسابيع، وليس لثلاثة أيام، أمضياها في غرفة من الخوص عند شاطئ المعمورة، مُكافأة «حُرة» على حفظها لمتن «تحفة الأطفال»[1].

امتلأت حديقة القصر بالضحكات، عادت الزهور تنمو من جديد، والخضرة تغطي على رماد احترق منذ شهور. ترنو الأشجار بحبور إلى حفل الشواء الصاخب، وحول طاولتين كبيرتين تم ضمهما معًا لتسع الجميع، التف «عادل» وأسرته الصغيرة، أمه وأبوه ورفيقة دربه وأبوها.. «درية» هانم» وأمها وأختاها.. «شحاتة» وأمه وأخوه الصغير.. «حسين» وأمه وأخواته السبع.. و«فؤاد».

الخادم الجديد يطوف عليهم بعصير الطماطم الذي تُحبه «حُرة»، ويملأ الصحون بطعام شهي تشاركوا في إعداده، حرصَتْ «درية» هانم أن تُجنِّب نصيبًا أكبر من «الزَفَر» لـ «شحاتة»، الذي همَّ بإخراج علبة «النشوق» من جيبه، إلا أنه توقَّف عندما لمح نظرة امتعاض على وجه «درية» هانم. وحين نهض «حسين» ليُحضر صحنًا لقطه الذي أسماه «مشمش»، وجد «فؤاد» عائدًا به.

أم «درية» هانم التي لم تقتنع بعلاقة ابنتها بـ «فؤاد» ذي الشارب الدقيق، والحال الرقيق، مالَت عليها لتقول:

- فكري جيدًا.. «كمال باشا السويفي» كلَّمني مرة أخرى ويريد أن...

قاطعتها «درية» هانم بتصميم، مالت صوبها قائلة بنبرة حازمة:

- أنتِ أمي، لكنني لن أسمح لكِ بتدمير حياتي.

(١) منظومة شعرية للشيخ سليمان الجمزوري -رحمه الله- تجمع بعض أحكام تجويد القرآن.

سكتتْ أمها في تبرم، أخذتْ تُراقب الجميع، توقفتْ أنظارها عند شاب بعين واحدة، يميل «شحاتة» الذي يرتدي قفطان وعمة ولاسة بلدي صوبه ويقول:

- أردتُ لو يكون القصر كله لكَ وحدكَ، لكن...

سارع أخوه بالابتسام، قال وهو يطوف بأنظاره في أبناء خالاته، وابن خاله:

- لقد جئتَ لي بما هو أجمل من قصر، جئتَ لي بعائلة «زي البيض بيتكحرتوا على بعض».

لم يقتنع «شحاتة»، أردفَ أخوه:

- توقف عن لوم نفسكَ، سامحتكَ منذ زمن طويل، لم تأخذ أنتَ عيني، أخذها الغضب، الغضب نفسه الذي جعل «عادل» يُحاول حرق القصر عندما عرف حقيقة نسبه للباشا وما حدث في الماضي، كما يقول «عادل» الغضب سلاح ذو حدين، حصان جامح لا يجوز قتله، ولا ترك حبله على الغارب، يجب علينا ترويضه، كما روَّض هو الذئب الرمادي.

لم يشف والد «حُرة» من الجنون، لكن حاله صار أفضل عندما تقرَّب من عائلة زوجته الغجرية، صار ملازمًا لأخيها والد «عادل»، يسمع كلامه، ويشكو له حاله بطول موَّاله، يَبكى حين يراه، يُعانقه ، يتشمَّمه، يبحث فيه عن رائحتها، وفي وجهه عن ملامحها، حتى أنه تخلَّى عن ارتداء الخُلخال النحاسي، لم تعد الجمادات تُذكِّره بها؛ استبدلها بأخٍ لها من دمها.

حول الطاولة الكبيرة التفَّ أقارب دم، على اختلاف مشاربِهم، يبذلون لبعضهم النُصح والدعاء، ولقصرهمٌ العمَار والإحياء، لم يعد قصرًا

بالنسبة لهم، بل وطنًا، يدافعون عنه من الجَهَلة والأعداء، ويُنظِّفون ما علق بماضيه من مظالم وادِّعاءات.

يعرفون أن قاطع الرحم ملعون في كتاب الله؛ أرادوا الفكاك من اللعنة التي أصابتْ جدَّهم، وقضَتْ على خالهم، الإحسان إلى الأقربين بإيصال الخير إليهم، ودفع الشر عنهم هو ما تعاهدوا على أن يفعلوه من أجل بعضهم البعض.

تباحثوا طويلًا عما يجب أن يفعلوه في الثروة المُخبأة، لو أعطوها لأهل العزبة يدًا بيد لأفسدتهم، من الإحسان إلى الجاهل والسفية ألا يُملَّك مالًا، أو يرأس مقامًا، أو يقول في الحق مقالة!

باتَ الفلاحون يخشون القصر والأحفاد، أكثر من خوفهم من الباشا و«الأعور»، رغم أن الغابة خلَتْ من الذئاب إلا من الذئب الرمادي، ورغم أن الأحفاد لم يؤذوا أهل العزبة في أنفسهم وأهلهم وأموالهم، إلا أن حاجزًا من الجهل ظل قائمًا بينهما، وحواجز الجهل مغناطيس خبيث، يستقطِب كل طاقات المشاعر السلبية، والأفكار المشوهة.

إلا قلة قليلة من الفلاحين استيقظ غضبهم يوم المواجهة الكبيرة، وهؤلاء يحتاجون فقط إلى قتل الجهل لتستيقظ في نفوسهم «العدالة»، وعندها سيبحثون بفؤوسهم وجهدهم وعرقهم وقوة سواعدهم عن «الشبع».

لذلك قرر الأحفاد أن يُشيِّدوا في العزبة ما ينفع أهلها ويؤمِّن مصالحهم؛ سيبنون الفصول، ويُشيِّدون كتاتيب حفظ القرآن، سيصلحون الطريق، وشبكات الصرف، سيُرمِّمون البيوت التي أوشكَتْ على السقوط فوق رأس ساكنيها، وسيعطون لكل ربَّ بيت «بقرة» تدر عليه باللبن والجُبن والسمن والزبد، ويعطون لكل صاحب أرض بذورًا طيبة

وسمادًا، سيبنون مستوصفًا صحيًا؛ لتطعيم الأطفال، وتأمين الإسعافات الأولية، والعلاج بالمجان.

والأهم، سيُنشئون صندوقًا للاقتراض الحَسَن، بغير ربا! فيكون لهم عن كل يوم بمثل ما أقرَضوا صدقة! فإن حالَ أجل القرض وأراد صاحبه إطالة المدة؛ أخذوا عن كل يوم من الأجر ضعفين، والله يُضاعف لمن يشاء.

سيجمعون الناس بعد خطبة الجمعة ويُفقهونهم في دينهم، سيُعقدون مسابقات حفظ القرآن لأبناء العزبة، ولآبائهم، وسيسمحون للأطفال بالصلاة في المسجد بعد أن زُجِروا عن الدخول إليه.

وأخيرًا، سيبتاعون لكل فلاح حذاءً، لن يبقى في العزبة رجل أو امرأة أو طفل حافي القدمين!

وسط هزلهم وضحكاتهم انبعث من الراديو صوت أحد المنتمين إلى حركة «الضباط الأحرار» يعلن بعد ستة أشهر من الفراغ السياسي منذ حريق القاهرة، وعجز ثلاثة رؤساء وزارات عن إعادة النظام والاستقرار.. أن آن أوان التخلص من الاستعمار.. والقضاء على الإقطاع.. وتأسيس حياة جديدة.. وتطهير البلد من الفساد.. ورفع شعار الاتحاد والنظام والعمل.. وإعادة الحكم للشعب!

انتهى البيان ليترك خلفه مشاعر مُتخبطة.. ثائرة.. قلقة.. مُحجمة.. مُشتتَّة.. نابضة بالأحلام. وفي اللحظة ذاتها اخترق السمع صرخات الخالة «بهانة» من نافذة الغرفة المُطلة على شجرة الرمان الكبيرة، تولول وتزغرط في الوقت نفسه:

- مات الباشا.. تسقط الألقاب!

هرول الأحفاد إلى الغرفة، والتفوا حول الفراش الكبير، يتطلعون بمشاعر مُتباينة إلى الباشا الذي صار جثة لا حول لها ولا قوة، لم يفرحوا لموته، ولم يحزنوا كذلك، كانت مشاعرهم بين بين.. مضطربة.. متوجسة.. تخاف من المستقبل بقدر بُغضها للماضي.

دنَتْ «حُرة» من النافذة ترنو إلى السماء، مُشرِعة ذراعيها بخشوع، يلهج لسانها بالدعاء، تعرف أن الدعاء يُصارع الأقدار المُعلَّقة المكتوبة في صُحُف الملائكة، يَعتَلِج الدعاء والقدَر بين السماء والأرض حتى ينتصر أحدهما على الآخر، إن انتصرَ الدعاء؛ تغيَّرتْ الأقدار!

يمحو الله ما يشاء من الأقدار ويُثبِّت ما يشاء منها؛ فالدعاء نفسه من قدر الله؛ لذا اعتادَتْ ألا تتهاون في الدعاء قبل نزول البلاء أو بعده، حين ينزل البلاء يتلقاه دعاؤها ويُصارعه، لم يكن لديها سلاح أقوى لتواجه به الأقدار، وسوء المُنقَلَب.

طافتْ عيناها طويلًا في أرجاء السماء، ثم حطَّتْ رويدًا على الأرض، انخلع قلبها وهي تُبصر «محفوظ» يتوسَّط بجسده الفارِع مدخل القصر، يلتف حوله بعض مُعاونوه في الزي الميري، حلق شاربه الكَث، تضخَّمتْ عضلاته، وظهرت عليه سِمات الثقة ودلائل العزم، يتحسس طبنجته بيدٍ، وبالأخرى يتلمَّس جرحًا عميقًا يشوِّه وجنته اليُمنى، ترتسم على وجهه ببطء ابتسامة واسعة، أشارت الشمس بكفها إلى سن ذهبي استعاضَ به عن سنه المفقود.

تجمَّع الأحفاد في نافذتي غرفة الباشا يرقبون «محفوظ» ومن معه بقلوب وجِلة يثقلها القلق، وأرواح مُترقِّبة تنهشها الظنون.

ومن بعيد رأووا أهالي عزبة «العبيط» يُهرولون فرادًا وجماعات، يصيحون بأقصى ما تصل إليه حناجرهم من قوة النبرات، مُطالبين بالشيء الوحيد الذي يشغل عقولهم، وتلتقي عنده أهواء قلوبهم:

- نُريد نصيبنا من ثلاجة الملك!

الشمس تطهو رؤوسهم؛ يفوح منها رائحة شواء! تساءَل طفل لاهث الأنفاس، تسحبه جدته، لا يكاد يُلاحِق خطواتها المُتسارعة:

- جدتي، إلى أين نذهب؟

تذكَّر حكاياتها العتيقة عن الطفل الذي كان يعيش في البطون قديمًا، ثم تركها ذات يوم ورحل، سألها بفرحٍ:

- هل عاد «شَبَع»؟

أجابته وهي ترنو إلى الأُفق، تغشى عينيها سحابة رمادية فتنقلِب الصور؛ ترى الأرض تُظللها من فوقها، والسماء مُمهدة من تحتها!

- نعم، عاد «شَبَع»، سنُلاقيه اليوم، وغدًا ننتظرُ «غضب» و«عدالة»!

تمت بحمد الله